إحدى عشرة دقيقة...



رواية

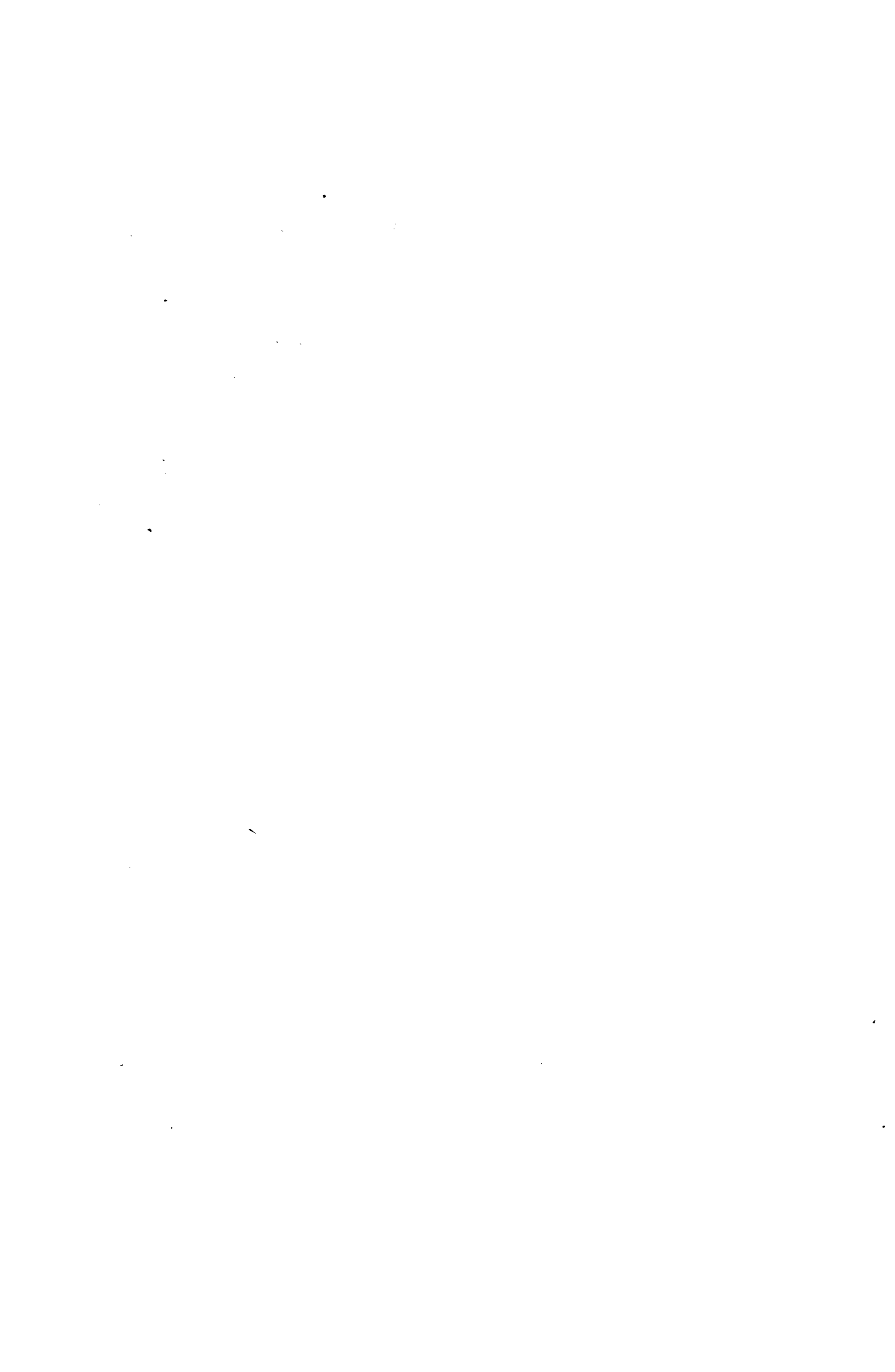
پاولو كويليو

مؤلّف الرائعة العالمية «الخيميائي»

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



إحدى عشرة دقيقة



إحدى عشرة دقيقة...

پاولو كويليو

ترجمة: ماري طوق

تدقيق لغوي: روحي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: Onze Minutos

نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، اسبانيا، بوكالتهم عن پاولو كويلو

موقع پاولو كويلو على الانترنت:

http://www.paulocoelho.com.br



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. : ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

E-mail: sales@all-prints.com

الطبعة السابعة ٢٠٠٧

الاخـراج الفنـي: بسمة التقي

مقدمة الكاتب لسلسلة
رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوّفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن، يُحتضَر، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ من كان معلّمك ايها المعلّم؟

أجاب: «بل قل المئات من المعلمين. وإذا كان لي أن أسميهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير الآخرين؟»

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرةٍ جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت منه المساعدة، ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلّمني كيف فعل ذلك.

فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمل، وأكثر من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، عما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، منوالاً واحداً لا يتغير: 'لم أوفّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جزاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفّق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟»

ـ «كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّف حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن

يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسز بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسُحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ لبنان»، في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مخيلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويليو

في التاسع والعشرين من أيار ٢٠٠٢ وقبل ساعات قليلة على الفراغ من هذا الكتاب، ذهبت إلى مدينة لورد في فرنسا لأجلب القليل من مياه الينبوع العجائبية. كنت أقف في ساحة الكنيسة عندما اتجه نحوي رجل يناهز السبعين وخاطبني قائلاً: «هل تعرف أنك تشبه باولو كويليو؟».

أجبته بأنني أنا هو، عانقني الرجل وقدَّم لي زوجته وحفيدته، قال لي إن كتبي تحتل مكانة كبيرة في حياته، ثم ختم كلامه بالقول: «إنها تجعلني أحلم». غالباً ما سمعت هذه الجملة وأدخلت المسرَّة إلى قلبي لدى سماعها. لكني، مع ذلك، شعرت في تلك اللحظة بقلق عميق. كنت أعرف أن روايتي «إحدى عشرة دقيقة» تتناول موضوعاً حساساً يُحدث لدى القارىء صدمة عنيفة ومزعجة. مشيت إلى الينبوع لأحصل على القليل من المياه العجائبية. ثم سألت الرجل عن مكان إقامته (شمال فرنسا قريباً من الحدود مع بلجيكا) وسجَّلتُ اسمه في مفكرتي.

موريس غرافلين هذا الكتاب مهدى إليك. لديَّ واجب تجاهك وتجاه زوجتك وحفيدتك وتجاه نفسي: التحدث عما يشغلني وليس عمّا يود الناس سماعه. إن بعض الكتب تجعلنا نحلم وبعضها الآخر يذكّرنا بالواقع، لكن لا يمكن لأي كاتب أن يتنصّل مما هو جوهري لكتابته، ألا وهو النزاهة التي يكتب بها.



وإذا امرأة خاطئة في المدينة لمّا علمت أنه متكىء في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب ووقفت من ورائه عند رجليه باكية وجعلت تبلّ رجليه بالدموع وتمسحهما بشعر رأسها وتقبّل قدميه وتضمخهما بالطيب. فلمّا رأى الفريسي الذي دعاه ذلك قال وهو يحدّث نفسه لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما حالها إذ هي خاطئة. فأجاب يسوع وقال له يا سمعان عندي شيء أقوله لك. فقال قلْ يا معلّم. قال كان لرجل دائنٍ مدينان على أحدهما خمس مئة دينار وعلى الآخر خمسون. وإذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما فقلْ أيهما يكون أكثر حباً له. فأجاب سمعان وقال هو فيما أظن الذي سامحه بالأكثر. فقال له بالصواب حكمت. ثم التفت إلى المرأة وقال لسمعان أترى هذه المرأة. أنا دخلت إلى بيتك فلم تسكب على رجلي ماءً وهذه بلّت رجلي بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها. أنت لم تقبلني وهذه منذ دخلت لم تكفّ عن تقبيل قدمي. أنت لم تدهن رأسي بزيت وهذه المرأة دهنت قدمي بالطيب. لأجل ذلك أقول لك إن خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبّت كثيراً والذي يُغفر له القليل يحب قليلاً.

إنجيل لوقا، ٧، ٣٧ ـ ٤٧

لأنني الأولى والأخيرة
لأنني المُبجَّلة والمُحتقرة
الزوجة والعذراء
الأم والابنة
لأنني ذراعا أمي
لأنني العاقر ولأن أولادي لا يحصون
لأنني الزوجة الزوجة والعزباء
لأنني من تُنجب ومنِ لم تنجب قط
لأنني العزاء في آلام الولادة
لأنني الزوجة والزوج
ولأني رَجُلي هو الذي خلقني
لأنني أم أبي
لأنني أخت زوجي
ولأن زوجي هو ابني الذي تخلّيت عنه
لأنني كل ذلك
قدموا لي الاحترام على الدوام
فأنا الفاجرة وأنا المرأة النبيلة..

نشيد إلى ايزيس، القرن الثالث
الميلادي أو الرابع، اكتشف في نجع
حمادي



كان ما كان، كانت هناك عاهرة تُدعى ماريا. لحظة لو سمحتم. «كان ما كان»، هذه هي العبارة المثلى للبدء بقصة خرافية للأطفال، فيما كلمة «عاهرة» كلمة تُستعمل للبالغين. كيف بالإمكان إذاً البدء بقصة على هذا التناقض المبين؟ لكن، بما أننا في كل لحظة من حياتنا، لدينا قدم في قصص الجنيات الخرافية وقدم أخرى في الهاوية، فلنحتفظ إذاً بهذه البداية.

كان ما كان، كانت هناك عاهرة تُدعى ماريا. وُلدت عذراء بريئة ككل العاهرات وحلمت، إبّان مراهقتها، بأن تلتقي فتى أحلامها (أرادته أن يكون ثرياً وذكياً وجميلاً) وأن تتزوّجه (مرتدية ثوب الزفاف)، وأن تنجب منه طفلين (لا يلبثان أن يصبحا مشهورين في المستقبل)، وأن تقيم في بيت جميل (يشرف على البحر). كان والدها وكيلاً لإحدى الشركات التجارية ووالدتها خياطة. لم يكن هناك في مدينتها نوردستا في البرازيل إلا صالة سينما واحدة وملهى ليلي ووكالة مصرفية. لذا، كانت ماريا تنتظر اليوم الذي سيظهر فيه فارس أحلامها بغتة ودون سابق إنذار فيمتلك قلبها وتنطلق برفقته لغزو العالم.

بما أن فارس الأحلام لم يظهر، فلم يتبقّ لها والحالة هذه سوى الحلم. عرفت طعم الحب لأول مرة في الحادية عشرة من عمرها، عندما كانت تذهب إلى المدرسة الابتدائية سيراً على القدمين. في اليوم الأول من السنة الدراسية، أدركت أنها لم تكن وحيدة على الطريق وأن صبياً يسكن في الجوار يمشي على مسافة قريبة منها،

ويذهب إلى المدرسة في الأوقات نفسها، ولم يكونا ليتبادلا كلمة واحدة. لكن ماريا لاحظت أن اللحظات، التي كانت تدخل السرور إلى قلبها وتشعرها بالبهجة أكثر من أي شيء آخر، هي تلك التي تقضيها على الطريق المغبرّة بالرغم من العطش والتعب في الشمس المحرقة، والصبي الذي يسرع في مشيته، فيما هي تبذل جهوداً مضنية لتبقى في محاذاته.

تكرّر المشهد لأشهر عدة، لم يكن لدى ماريا، التي تكره الدرس، من تسلية أخرى سوى مشاهدة التلفزيون. لذا، أخذت تتمنّى أن يمضي الوقت بسرعة، وتنتظر بلهفة أوقات الذهاب إلى المدرسة، وتشعر بالضجر في عطلة نهاية الأسبوع بخلاف الفتيات أترابها. كانت ماريا تتعذّب، لأن الساعات تمر بطيئة بالأولاد، أبطأ منها بالكبار، وتحس بأن أيامها متناهية الطول لأنها لا تمنحها إلا عشر دقائق تقضيها على الطريق بمحاذاة فتى أحلامها، فيما تقضي آلاف الدقائق والساعات في عالم الخيال تحلم بلقائه والتحدّث إليه ولو لبرهة قصيرة من الوقت.

وذات صباح اقترب منها الصبي وسألها أن تعيره قلماً. فلم تُجِب وتظاهرت بأن هذا التقرّب المتطفّل يزعجها فحثّت الخطى. ثم ما لبثت أن تجمّدت من شدة الذعر عندما رأته يتجه ناحيتها. خشيت أن يكتشف أنها تحبه وتنتظره، وأنها تحلم بأن يأخذ بيدها متجاوزاً باب المدرسة فتعبر الطريق برفقته حتى النهاية، إلى أن تبلغ، كما يُقال، مدينة كبيرة وأشخاصاً يبدون وكأنهم طالعون من الروايات، وفنّانين وسيارات وقاعات سينما كثيرة وكل أنواع الفرائد.

طوال النهار، كان يشقّ عليها أن تستجمع أفكارها في الصف. كان تصرّفها العبثي يعذّبها، ولكن يعزّيها في آن التفكير بأنّ الصبي استأنس بوجودها هو أيضاً، وبأنه استخدم القلم ذريعة للدخول في حديث معها، لأنها لاحظت قلماً في جيبه لدى اقترابه

منها. كانت تتحزق شوقاً وحزناً لرؤيته. في تلك الليلة وفي الليالي التي أعقبتها، أخذت تستلهم كافة الأجوبة التي يمكن أن تواجهه بها، إلى أن عثرت على الطريقة المثلى التي تؤهّلها البدء بقصة لن تنتهي أبداً.

لكن الصبي لم يعد يتوجّه إليها بالكلام. استمر لقاؤهما على طريق المدرسة: أحياناً تتقدّمه ماريا بضع خطوات وتمسك قلماً بيدها اليمنى، وأحياناً تتخلّف عنه قليلاً ليتاح لها أن تراقبه ملياً. وقد وجدت لزاماً عليها أن تكتفي بحبه، وتتعذّب بصمت حتى نهاية السنة الدراسية.

بدت لها العطلة لامتناهية واستفاقت ذات صباح وساقاها ملطختان بالدم. ظنت أنها مائتة لا محالة. قررت أن تكتب رسالة للصبي تعترف له فيها أنه كان الحب الأول الكبير في حياتها. ثم خطرت لها فكرة أن تغرق في «السرتا» وتفترسها إحدى البهائم المتوحشة التي تلقي الذعر في نفوس مزارعي تلك المنطقة كالغول الذئبي أو البغلة التي لا رأس لها[1]. وهكذا، أخذت تفكر بأنَّ والديها لن يبكيا لموتها لأن الفقراء يتعلّلون بالأمل، رغم المآسي التي ترهق كواهلهم. لا بل سيعتقدان أن عائلة ثرية دون أولاد قد اختطفتها وأنها سترجع يوماً مكلّلة بالمجد والثروة. أما الحبيب الحالي (والأبديّ) في حياتها، فلن يتمكن من نسيانها وسيتعذب كل صباح لأنه لم يتوجه إليها بالكلام.

لم تتمكن ماريا من كتابة الرسالة لأن أمها دخلت غرفتها ورأت الشراشف الملطخة ببقع الدم وقالت: «ها قد كبرت وصرت صبيّة يا صغيرتي».

أرادت ماريا أن تعرف ما هي العلاقة بين كونها صارت صبية والدم الذي انساب بين ساقيها. لكن أمها عجزت عن شرح ذلك لها.

---

(١) هي، بحسب الاعتقاد الشعبي، خليلة الكاهن التي تحولت فيما بعد إلى بغلة تخرج ليلاً، وتحدث السلاسل التي تجزها ضجة ترعب المتطيّرين الذين يؤمنون بالشعوذات.

أكّدت لها فقط أن ما حدث لها أمر طبيعي وأنها من الآن فصاعداً يتوجّب عليها أن تضع منشفة صغيرة بسماكة وسادة دمية، مدة أربعة أو خمسة أيام في الشهر. سألتها ماريا عما إذا كان الرجال يستعملون أنبوباً لكي يمنعوا الدم من تلطيخ سراويلهم؛ وعلمت أن ذلك لا يحدث إلا للنساء فقط.

شكت أمرها لله، بيد أنها ألفت، آخر الأمر، العادة الشهرية، لكن صعب عليها أن تألف غياب الصبي. وأخذت تلوم نفسها على موقفها السخيف الذي يدفعها إلى التهرّب مما كانت تتمناه أكثر من أي شيء آخر.

عشية العودة إلى المدرسة، دخلت الكنيسة الوحيدة في المدينة وأقسمت أمام القديس انطونيوس بأنها ستتّخذ المبادرة وتتحدّث إلى الصبي.

في اليوم التالي، رتَّبت هندامها على أكمل وجه وارتدت الفستان الذي خاطته أمها خصيصاً للمناسبة. ثمَّ خرجت وهي تشكر الله على أن العطلة انتهت أخيراً. لكن الصبي لم يظهر. وهكذا مرَّ أسبوع جديد من الحيرة والقلق، ثم ما لبثت أن علمت من بعض الأصدقاء أن الصبي غادر المدينة.

قال لها أحدهم: «غادر بعيداً».

عندئذٍ أدركت ماريا أن ليس هناك ما يمنع من أن نفقد بعض الأشياء إلى الأبد. وعلمت أيضاً أن هناك مكاناً يدعى «بعيداً»، وأن العالم واسع ومدينتها صغيرة، وأن الكائنات الأهمّ يؤول بها الأمر إلى الرحيل دوماً. ودّت لو أنها تستطيع أن تغادر هي أيضاً، لكنها لا تزال فتية جداً. ومع ذلك، حين شاهدت الطرقات المغبرة، اتّخذت القرار بأنها ستمشي ذات يوم على خطى الصبي. في أيام الجمعة اللاحقة، وعلى مدى السنوات التالية، تناولت ماريا القربان المقدّس وفق عادة دينية درجت عليها، وصلّت للعذراء طالبة منها أن تنقذها يوماً من هذا المأزق.

تعذّبت ماريا لبعض الوقت، وعبثاً حاولت أن تجد أثراً للصبي. لكن أحداً لا يعرف إلى أين انتقل أهله. عندئذٍ بدأت ماريا تشعر أن العالم واسع جداً وأن الحب خطير. أيقنت أيضاً أن العذراء تقطن في السموات البعيدة التي لا تصلها صلوات الأولاد وتضرّعاتهم.

مرّت ثلاث سنوات تعلّمت خلالها ماريا الجغرافيا والرياضيات، وتابعت مشاهدة المسلسلات التلفزيونية. كما تصفّحت سراً في المدرسة أولى المجلّات الإباحية. وشرعت تكتب بانتظام يوميات تتحدّث فيها عن حياتها الرتيبة ورغبتها الكاملة في التعرّف عن كثب إلى ما تعلمته: المحيط، الثلج، الرجال الذين يرتدون العمامات، النساء الأنيقات المزدانات بالجواهر... لكن، لمّا لم يكن أحد يستطيع التعايش مع الرغبات المستحيلة، وبخاصة حين تكون الأم خياطة والأب غائباً دوماً، فسرعان ما أدركت ماريا أنه يجدر بها أن تولي ما يحدث من حولها اهتماماً أكبر. كانت تتابع الدراسة لكي تتدبر أمرها في الحياة، وتفتش في الوقت نفسه عن رفيق يمكن أن يشاركها أحلامها في المغامرة. عندما بلغت سن الخامسة عشرة وقعت في غرام صبي التقته خلال أحد الزياحات التي تجرى في أسبوع الآلام.

لم تكرر الخطأ الذي ارتكبته في طفولتها: تحدثا وصارا صديقين ثم ذهبا إلى السينما وإلى الأعياد معاً. وخلصت ماريا إلى النتيجة نفسها التي تقول إن الحب يتجلّى في غياب الحبيب أكثر منه في حضوره. كانت تفتقد حضور الفتى باستمرار، وتقضي الساعات متخيّلة ما يمكن أن تقوله له في اللقاء المقبل، مستعيدة كل ثانية تقاسمتها معه، مستحضرة ما فعلته من تصرفات جيدة أو سيئة. كانت تحب أن تظهر بمظهر الفتاة الشابة التي تملك تجربة في الحياة والتي سبق لها أن كابدت هياماً كبيراً، وعرفت

مقدار الألم الذي يسببه هذا الشغف. كانت عازمة على الصراع بكل ما أوتيت من قوة، لتملك قلب هذا الرجل: أوليس هو من سيتزوج بها، ويمنحها أولاداً ويهبها بيتاً يشرف على البحر.

حدّثت أمها في الأمر فقالت لها متوسلة:

ـ لا يزال الوقت مبكراً جداً يا بنيتي.

ـ لكنك كنت في السادسة عشرة عندما اقترنت بأبي.

امتنعت الأم عن شرح سبب هذا الزواج المبكر الذي يعود إلى ظهور بوادر حمل غير متوقّع. أرادت أن تضع حداً للنقاش، فلجأت إلى الحجة القائلة بأنه «في ذلك الزمان، كان الأمر مختلفاً».

في اليوم التالي ذهبت ماريا برفقة الصبي للتنزه في الريف المحيط بالمدينة. أخذا يتبادلان أطراف الحديث. حدّثته ماريا عن رغبتها في السفر، فأخذها بين ذراعيه على سبيل الإجابة وقبّلها.

أول قبلة في حياتها! حلمت كثيراً بهذه اللحظة. كان المنظر بديعاً: طيور مالك الحزين المحلّقة في الجو، والشمس الغاربة، والمنطقة شبه القاحلة بجمالها الوحشي، وصوت الموسيقى الصادحة في البعيد... تظاهرت ماريا بالتمنّع ثم عانقته مكررة الحركة التي رأتها مرات عدة في السينما والمجلات والتلفزيون: مرّغت شفتيها بعنف فوق شفتيه، محركة رأسها من جهة إلى أخرى بشكل شبه منتظم وشبه خارج عن سيطرتها. شعرت بين الفينة والأخرى أن لسان الرجل يلامس أسنانها ووجدت الأمر لذيذاً.

وفجأة توقفت عن التقبيل.

سألها الصبي: «ألا ترغبين في ذلك؟».

ماذا عليها أن تجيبه؟ أتجيبه بأنها ترغب في ذلك؟ بالطبع! لكن لا يجدر بالمرأة أن تستسلم على هذا النحو، وبخاصة لزوجها المقبل، وإلا لاشتبه بأمرها طوال حياته، ولاعتقد بأنها تقبل كل شيء بسهولة كبيرة. لذا فضّلت ألا تقول شيئاً.

أخذها من جديد بين ذراعيه، بحماس أقلّ هذه المرّة. ثم توقّف وقد اشتد احمرار وجهه. أدركت ماريا أن هناك خللاً ما طرأ، لكنها خافت أن تسأله عن الموضوع. أمسكت بيده وعادا إلى المدينة، وهما يتحدّثان عن أمر آخر وكأن شيئاً لم يكن.

في تلك الليلة، أيقنت ماريا أن حدثاً جللاً قد حصل، فدوّنت في يومياتها هذه العبارات التي انتقتها بعناية:

«عندما نلتقي أحدهم ونقع في غرامه، نشعر أن الكون كله يطاوعنا في هذا الاتجاه. هذا ما حدث لي اليوم عند مغيب الشمس. لكن إذا حدث خلل ما، فإن كل شيء عندئذٍ يتلاشى ويختفي! طيور مالك الحزين والموسيقى الصادحة في البعيد وطعم شفتيه. تُرى، كيف يمكن للجمال الذي كان حاضراً بقوة أن يختفي بهذه السرعة ويتلاشى؟

الحياة تمر مسرعة وتنقلنا من الجنة إلى الجحيم ولا يحتاج الأمر إلا الى ثوانٍ معدودات».

في اليوم التالي، ذهبت لموافاة صديقاتها شاهدنها جميعهن تتنزّه برفقة «حبيبها». يبدو أنه ليس مهماً في نهاية المطاف أن يعيش الإنسان حباً كبيراً، المهم أن يعرف الجميع أنك شخص يثير الرغبة لدى الآخر. كانت صديقاتها متشوّقات جداً ليعرفن كيف جرت الأمور، فأعلنت ماريا لهن بفخر شديد أن أفضل ما حصل لها هو عندما لامس لسانه أسنانها.

أخذت إحدى الفتيات بالضحك:

ـ ألم تفتحي فمك؟

وبغتة، أصبح كل شيء واضحاً لها: السؤال والخيبة.

ـ ولمَ عليّ فعل ذلك؟

ـ لكي تدعي لسانه يمر.

ـ وما الذي سيتغيّر؟

ـ هكذا يقبّل الرجل المرأة.

أُطلقت الضحكات المكبوتة، وأظهرت بعض الفتيات تعاطفاً مخادعاً فيما كتمت الأخريات غيظهن، ولاحت في أذهانهن مشاريع الانتقام، لأنهن لم يعرفن حبيباً من قبل. تظاهرت ماريا بعدم الاكتراث، وضحكت بدورها، حتى لو كانت روحها تبكي. أخذت تلعن في سرها كل الأفلام التي علّمتها أن تغمض عينيها وتمسك بيدها رأس صديقها، ثم تدير رأسها تارة إلى اليسار وطوراً إلى اليمين دون أن تعلّمها ما هو جوهري. ثمَّ ما لبثت أن صاغت تفسيراً ملائماً لما جرى (لم أشأ الاستسلام في الحال، لأنني لم أكن متأكدة بعد من مشاعري. لكنني متيقّنة الآن أنه رجل حياتي) وانتظرت الفرصة المقبلة.

بعد ثلاثة أيام، رأت الفتى خلال احتفال أقامته البلدية، وكان يمسك بيد إحدى صديقاتها، تلك التي سألتها بالذات عن طعم القبلة الأولى. تظاهرت ماريا عندئذٍ بعدم الاكتراث. احتملت المشهد حتى نهاية السهرة، وألهت نفسها بالتحدث إلى صديقاتها الفنّانات، والشبان الذين يسكنون في الجوار. كما تظاهرت بتجاهل نظرات الإشفاق التي رمقتها بها إحدى صديقاتها. لكن، ما إن رجعت إلى البيت حتى شعرت أنها عاجزة عن الإمساك بزمام الأمور وأن عالمها قد انهار، فبكت طوال الليل. تعذّبت ثمانية أشهر متواصلة وخلصت إلى أن الحب لم يُخلق لها ولم تُخلق هي من أجله. قرّرت عندئذٍ أن تسلك طريق الرهبنة وتكرّس بقية حياتها لمحبة يسوع، لأن هذا الحب لا يترك جراحاً أليمة في القلب. سمعت الناس في المدرسة يتحدّثون عن مرسلين إلى أفريقيا للتبشير، فرأت في ذلك منفذاً للخلاص من حياتها الرتيبة الخالية من الانفعالات. قرّرت الدخول إلى الدير، وتعلَّمت الإسعافات الأولية (لأن هناك ناساً كثيرين يقضون حتفهم في أفريقيا بحسب ما يقول بعض الأساتذة)، وشاركت بجد

ومثابرة في دروس التعليم الديني. بدأت تتخيّل نفسها قديسة الأزمنة الحديثة تخلّص النفوس الخاطئة، وتستكشف الغابات المزدحمة بالنمور والأسود.

لكن تلك السنة، سنة بلوغها الخامسة عشرة، خبّأت لها اكتشافاً ثالثاً: الاستمناء. اكتشفته بالمصادفة عندما كانت تلعب بعضوها فيما تنتظر رجوع أمها إلى المنزل. كانت قد اكتسبت تلك العادة في طفولتها، ووجدت فيها لذة غامرة، إلى أن فاجأها والدها ذات يوم وهي في وضعية الاستمناء، فانهال عليها بالضرب دون أن يشرح لها السبب. لم تنسَ ماريا الضربات، وتعلّمت أنها يجب أن تمتنع عن ملامسة عضوها في حضور الآخرين. وبما أنها لم تكن لديها غرفتها الخاصة، فقد نسيت اللذة التي منحتها إياها هذه العادة.

ولبثت كذلك إلى أن اكتشفتها مجدداً في ذلك اليوم بعد الظهيرة، بعد مرور ستة أشهر تقريباً على القبلة الشهيرة. تأخّرت أمها في العودة، كان أبوها قد خرج مع صديقه. لم يكن لديها ما تفعله ولم يكن هناك برنامج مهم على التلفزيون. لذا، أخذت تتلهّى بتفحّص جسدها على أمل أن تجد فيه بعض الشعيرات المزعجة التي تستوجب الإزالة. دُهشت عندما لاحظت وجود برعم صغير في أعلى فرجها. أخذت تلامسه دون أن تتمكّن من ردع نفسها، وراحت وتيرة لذتها تتصاعد لتصير أكثر حدّة، والتوى جسدها كله لذةً، وبخاصة القسم الذي لامسته. شعرت بأنها تدخل شيئاً فشيئاً فيما يشبه الجنة، وتزايد الشعور. دوّنت في يومياتها أنها لم تعد ترى ولا تسمع شيئاً بوضوح. بدا كل شيء وكأنه اصطبغ بالذهب، ثم أنّت تحت وطأة اللذة، وكانت تلك رعشتها الجنسية الأولى.

الرعشة الجنسية! المتعة!

لكن بدا لها أن الأمر يشبه سقوطاً بطيئاً بمظلّة من أقاصي السماء إلى الأرض. كان جسدها ينضح عرقاً، لكنها أحسّت أنها تشعر بارتياح كلّي يغمرها وأنّها مفعمة بالحيوية. هذا هو إذاً

الجنس! يا للروعة! لم تعد محتاجة إلى مجلات بورنوغرافية يتحدّث فيها الجميع عن اللذة بتكشيرة تنم عن ألم. لم تعد بحاجة إلى رجل يحب جسد المرأة ويكره قلبها. بإمكانها أن تفعل كل ذلك بمفردها! أعادت الكرَّة متخيلة ممثلاً شهيراً يقوم بمداعبتها وبلغت من جديد أعالي السماء قبل أن تهبط مجدداً على الأرض وهي تفيض بالحيوية. كانت تهمّ بالاستمناء للمرة الثالثة عندما وصلت أمها.

ذهبت ماريا لتتحدث مع صديقاتها عن اكتشافها هذا، وحاذرت هذه المرة أن تبوح لهن أنها قامت بالتجربة الأولى منذ ساعات قليلة. كنّ جميعهن، ما عدا اثنتين، يعرفن الكثير عن الموضوع. لكن أيّاً منهن لم تتجرأ على قول ذلك علانية. شعرت ماريا أنها توشك أن تصير ثورية وقائدة للجماعة، فاخترعت «لعبة الاعترافات الحميمة»، وطلبت إلى كل واحدة أن تتحدّث عن طريقتها الأثيرة في الاستمناء. تعلّمت ماريا عدة تقنيات للاستمناء: البقاء مثلاً تحت الغطاء في عز الصيف (لأن التعرق، كما قالت إحدى الفتيات، يسهّل العملية)، أو استخدام ريشة إوزّة لملامسة المكان (لم تكن ماريا تعرف اسم المكان) أو أن تدع صبياً يقوم بذلك مكانها (هذا لم يكن ضرورياً لماريا) أو استعمال حنفية حوض الاستبراء (لم يكن لديها حوض للاستبراء، لكنها ستجرب ذلك لدى زيارتها لإحدى صديقاتها الثريات).

عندما اكتشفت ماريا الاستمناء واستخدمت بعض التقنيات التي اقترحتها عليها صديقاتها، تخلّت نهائياً عن فكرة الرهبنة. لقد منحها الاستمناء لذة كبيرة، لكن الجنس في نظر الدين هو أعظم الخطايا. وعرفت عبر صديقاتها أنفسهن الشائعات المتصلة بالاستمناء، فهو يجعل الوجه يمتلىء بالبثور، وقد يؤدي إلى الجنون أو إلى الحمل. لكن ماريا استمرت، بالرغم من كل هذه المخاطر، في منح نفسها اللذة مرة في الأسبوع على الأقل، يوم الأربعاء عموماً، حين يذهب أبوها لكي يلعب الورق مع أصدقائه.

وفي الوقت نفسه، بدأت ماريا تشعر أن ثقتها بنفسها تضعف في حضور الرجال، وتملّكتها رغبة عارمة في مغادرة المكان الذي تعيش فيه. وقعت في الحب مرة ثالثة ورابعة وتعلّمت التقبيل والمداعبة والاستسلام لمداعبة أحبائها، إلا أن هناك دوماً شيئاً لا يسير على ما يرام، ويحدث أن تنتهي العلاقة في الوقت الذي تقتنع ماريا فيه بأنَّ شريكها مناسب تماماً لتقضي معه بقية أيام حياتها. وفي النهاية، توصلت ماريا إلى الاستنتاج أن الرجال لا يجلبون إلا الألم والحرمان والعذاب والضجر. ذات يوم، بعد الظهيرة، حين صادف وجودها في إحدى الحدائق، اتخذت قراراً، وهي تراقب أماً تلاعب ابنها ذا السنتين، أن بإمكانها أن يكون لها هي أيضاً زوج وأولاد ومنزل يشرف على البحر، لكنها لن تقع في الغرام إطلاقاً، لأن الغرام يفسد كل شيء.

وهكذا مرّت سنوات مراهقة ماريا. ازدادت جمالاً وجذب مظهرها الغامض والحزين الكثير من الرجال، فخرجت بصحبتهم، حلمت وتعذّبت، بالرغم من الوعد الذي قطعته لنفسها بألّا تقع في الغرام من جديد. فقدت عذريتها خلال أحد هذه اللقاءات على مقعد سيارة خلفي: كانت هي وصاحبها يتلامسان باضطرام أكبر من المعتاد فتحمّس الفتى. وإذ سئمت ماريا من كونها آخر عذراء بين صديقاتها، سمحت له بولوجها. كان الأمر مؤلماً بخلاف الاستمناء الذي كان يقودها إلى الجنة، ولطّخ خيط رفيع من الدم ثوبها. لم يمنحها ذلك الشعور السحري الذي منحتها إياه القبلة الأولى. ليس هناك طيور مالك الحزين المحلّقة في الفضاء ولا الشمس الغاربة ولا الموسيقى... أرادت أن تنسى ما حصل لها.

ضاجعت الصبي عدة مرات، بعد أن حذّرته بأنه يعرّض نفسه للقتل على يد أبيها فيما لو عرف أنه فضّ بكارة ابنته. جعلت منه أداة لتتعلّم ممارسة الجنس، وحاولت بجميع الوسائل أن تعرف أين مكامن اللذة في العلاقة الجنسية مع الشريك.

كل ذلك غير مجدٍ. الاستمناء يتطلّب جهداً أقلّ، ويمنح نعماً أكبر. لكن جميع المجلّات والمسلسلات التلفزيونية والكتب والصديقات... كل شيء من هذه الأشياء، كل الأشياء على الإطلاق تعلن وتؤكد أهمية الرجل في حياة المرأة. فكّرت ماريا أنها تعاني مشكلة جنسية لا يمكن البوح بها، وأخذت تحصر همّها بدروسها، ونسيت لبعض الوقت هذا الشيء الرائع والفتّاك الذي يُدعى الحب.

ذاك مقطع من يوميات ماريا وهي في سن السابعة عشرة:

أتوق إلى فهم الحب. أدرك شعوري بأنني كنت مفعمة بالحياة حين أحببت، وأعرف أن كل ما أملكه الآن، مهما يبدُ مهماً، لا يلهب في قلبي الحماسة.

لكن الحب رهيب: رأيت صديقاتي يتعذبن ولا أريد أن يحصل لي ذلك. كن يسخرن مني من قبل ومن براءتي. وها هن الآن يسألنني ماذا أفعل لكي أتمكن من الهيمنة على الرجال بهذا الشكل. أبتسم وأسكت، لأنني أعرف أن الدواء أسوأ من الألم نفسه. الجواب بسيط وهو أنني لا أقع في الحب. بت أدرك مع مرور الأيام هشاشة الرجال وعدم استقرارهم وقلّة ثقتهم بأنفسهم وتصرفاتهم التي لا يمكن التنبؤ بها... حاول بعض آباء صديقاتي استدراجي إلى علاقة حميمة معهم لكنني قابلتهم بالصدّ. في أول الأمر صُدمت بتصرفاتهم. أما الآن فأدرك أن ذلك يشكل جزءاً من الطبيعة الذكورية.

رغم أن هدفي يتمثل في فهم الحب، ورغم العذاب الذي عانيته على أيدي هؤلاء الذين سلّمتهم قلبي فإن بإمكاني القول إن هؤلاء الذين لامسوا روحي لم ينجحوا في إيقاظ جسدي من كبوته، وإن هؤلاء الذين لامسوا سطح جسدي لم ينجحوا في بلوغ أعماق روحي.

أنهت ماريا دروسها الثانوية في سن التاسعة عشرة ثم وجدت عملاً في محلّ للنسيج أوقعت صاحبه في غرامها. وباتت ماريا في تلك المرحلة تعرف كيف تستغل رجلاً دون أن يستغلّها. لم تسمح له قط بملامستها، رغم أنها كانت تُظهر دائماً دلعاً، وتدرك سطوة جمالها.

سطوة الجمال: تُرى كيف ترى النساء البشعات العالم؟ كان لديها صديقات لا يلفتن انتباه أحد في الأعياد، ولا يسألهن أحد عن أحوالهن. إلّا أن هؤلاء الفتيات، ولو بدا الأمر صعب التصديق، يُولينَ أهمية كبيرة للحب القليل الذي يُمنح لهن، ويتعذّبن بصمت عندما يُرفضن، ويجهدن ألّا يبنين مستقبلهن على الأمل الاحتمالي بإثارة الإعجاب لدى أحد الرجال. كانت ماريا تعتقد أن العالم يجب أن يبدو لهن غير محتمل، لكنها تجهل أنهن كن أكثر استقلالية من الجميلات، ويكرسن حياتهن في أجواء هادئة لتحقيق أنفسهن باطّراد.

بيد أن ماريا كانت مدركة تماماً لجمالها. ومع ذلك، فإنها احتفظت بنصيحة واحدة من نصائح أمها التي كانت تنساها دوماً: «يا بنيتي، الجمال لا يدوم». لذا استمرت ماريا في علاقة ليست بالحارّة ولا بالباردة مع صاحب العمل. وموقفها هذا تجسّد عملياً بزيادة هامة لمرتّبها (لم تكن تعرف المدى الذي تستطيع فيه السيطرة عليه وإيهامه بإمكانية وقوعها في حبائله؛ لكن ما دام الوضع على هذا النحو فبإمكانها توفير مصدر رزقها)، فضلاً عن

العلاوة المستحقّة عن الساعات الإضافية (كان الرجل يرغب في الحقيقة أن يبقيها قريبة منه وربما كان يخشى، فيما لو خرجت مساءً أن تلتقي حبها الكبير). عملت ماريا أربعة وعشرين شهراً دون انقطاع، واستطاعت توفير المعيشة لأهلها وادخار المال الضروري. وأخيراً يا للنجاح الذي يمنحها فرصة قضاء إجازة في مدينة أحلامها، مدينة الفنانين وقبلة أنظار السيّاح: ريو دي جانيرو.

اقترح عليها رب العمل أن يرافقها ويسدّد عنها كل النفقات. تذرّعت ماريا كاذبة أن الشرط الوحيد الذي اشترطته والدتها للموافقة على السفر هي أن تنام عند قريب لها يمارس المصارعة اليابانية، لأنها ذاهبة إلى إحدى المدن الأكثر خطورة في العالم.

وأضافت: «كما أنك يا سيدي، لا يمكنك أن تترك المحل هكذا دون شخص يهتم به ويكون موضع ثقة».

قال لها:

ـ لا تناديني «سيدي».

ورأت ماريا في عينيه شيئاً لم تألفه من قبل: نار الشغف. شكّل هذا الأمر مفاجأة حقيقية لها، إذ كانت تعتقد أن هذا الرجل لا يهتم إلا بالجنس. أما الآن فنظراته توحي بالعكس: «أستطيع أن أمنحك عائلة وبيتاً وقليلاً من المال لأهلك». فكّرت ماريا بالمستقبل وقررت أن تزيد ناره اضطراماً.

قالت له إنها تحب عملها كثيراً، وإنها ستفتقد الناس الذين تهيم بمعاشرتهم (حرصت على ألا تذكر شخصاً بالتحديد لكي يبقى تصريحها محاطاً بالكتمان)، فهل يمكن أن يكون «الناس» الذين أشارت إليهم «هو» تحديداً؟ ووعدته بأن تهتم بمحفظة نقودها اهتماماً كبيراً، وتحافظ على نزاهة أخلاقها. أما الحقيقة فكانت مختلفة تماماً: لا ترغب في أن يفسد أحد، ولا أي شخص، أسبوعها الأول من الحرية الكاملة، كانت ترغب في الاستجمام والتحدّث إلى أشخاص مجهولين والتسكّع أمام الواجهات والتمتّع بالنظر إليها،

وتهيئة نفسها للالتقاء بفارس الأحلام الذي سيأتي ويختطفها إلى الأبد.

قالت بابتسامة مغرية وبدلع مضلّل: «أي أهمية لأسبوع في حياة الإنسان؟ سرعان ما ينقضي الأسبوع، وأعود قريباً لأفي بالتزاماتي».

حاول صاحب المحل إقناعها دون جدوى، ثم ما لبث أن رضخ والأسى يمزّقه لأنه كان عازماً على القيام بخطة سرية، وهي طلب يدها للزواج عند رجوعها من السفر؛ فقرّر أن يبقي مشاعره طي الكتمان، فلا يعمد إلى إسماعها كلمة غزل واحدة.

استغرقت الرحلة ثماني وأربعين ساعة في الباص. ونزلت ماريا من ثمّ في فندق من الدرجة الخامسة في كوباكابانا (آه، كوباكابانا! الشاطئ، السماء...). وقبل أن تفرغ أمتعتها، انتشلت «المايوه البيكيني» الذي اشترته مؤخّراً، وارتدته رغم الطقس الغائم وذهبت إلى الشاطئ. نظرت إلى البحر بحذر وخشية، ثم ما لبثت أن خاضت في الماء بخفر.

إن أحداً على الشاطئ لم ينتبه إلى أن هذه الفتاة كانت تعيش أول اتصال لها مع المحيط والإلهة ايمنجا والتيارات البحرية وزبد الأمواج، ومع شاطئ أفريقيا المزدحم بالأسود في الجهة المقابلة للأطلسي. عندما خرجت من الماء، اقتربت منها امرأة تبيع سندويشات خالية من المواد الكيماوية، وسألها رجل أسود جميل عما إذا كانت متفرغة هذا المساء؛ ودعاها رجل لا يعرف كلمة برتغالية واحدة، بالإشارات، إلى مشاركته في تناول شراب جوز الهند.

اشترت ماريا السندويش لأنها خجلت من الرفض. إلا أنها تجنّبت الكلام مع الرجلين. أحسّت بالحزن يجتاح قلبها؛ الآن، وقد بات بإمكانها أن تفعل ما تريد، لماذا كانت تتصرّف بهذه الطريقة المخزية؟ بما أنها لا تملك تفسيراً لذلك، فقد جلست تنتظر أن تظهر الشمس المحتجبة خلف الغيوم من جديد.

إلا أن الأجنبي ظهر حاملاً جوزة الهند وقدّمها إليها. سُرّت لأنها لم تكن مضطرة للتحدث إليه. شربت ماء جوز الهند وابتسمت، فابتسم له بدورها. التزما لبعض الوقت بهذا الشكل من التواصل المريح الذي لا يُلزم الطرف الآخر بشيء: ابتسامة من هنا، ابتسامة من هناك، إلى أن انتشل الرجل من جيبه قاموساً صغيراً ذا غلاف أحمر وقال بلكنة: «جميلة». ابتسمت من جديد كانت تودّ طبعاً أن تلتقي فارس أحلامها لكنها تريده أن يتكلم لغتها ويكون أكثر فتوة.

أصرَّ الرجل وهو يتصفّح الكتاب قائلاً: «العشاء هذا المساء؟» وأضاف على الفور: «سويسرا». ثم تلفّظ بهذه الكلمات التي تصدح مثل أجراس الجنة أياً تكن اللغة التي تقال فيها: «وظيفة! دولارات!»

لم تكن ماريا تعرف مطعم «سويسرا»، ثم هل يُعقل أن تكون الأشياء بهذه السهولة وأن تتحقّق الأحلام بهذه السرعة! من الأفضل تحاشي الموضوع: شكراً للدعوة، أنا مشغولة، ولا أبحث عن شراء دولارات.

لم يفهم الرجل كلمة لعينة واحدة من جوابها. بدأ يشعر باليأس. تركها لبضع دقائق بعد أن وجّه إليها بعض الابتسامات ثمّ عاد برفقة مترجم. قال لها، عبر وسيطه، إنه آتٍ من سويسرا (هذا ليس اسم مطعم إذاً بل اسم بلاده)، وإنه يودّ فعلاً تناول العشاء معها لأنه يريد أن يعرض عليها وظيفة. كان المترجم أحد حرّاس الفندق حيث ينزل الرجل، وكان يعاونه في مساعيه. قال لها على انفراد: «لو كنت مكانك لقبلت العرض. هذا الرجل مدير فني مهم وقد أتى إلى البرازيل للبحث عن مواهب جديدة للعمل في أوروبا. إذا شئت، أستطيع أن أعرّفك إلى بعض الفتيات اللواتي وافقن على اقتراحاته، وصرن ثريات وتزوّجن وأنجبن، وهن الآن بمنأى عن البطالة، وليس لديهن ما يخشينه من صروف الدهر». ثم أضاف وهو ينوي التأثير فيها بثقافته الواسعة: «بالإضافة إلى ذلك فالسويسريون يصنعون أصنافاً ممتازة من الشوكولاتة والساعات».

كانت التجربة الفنية لماريا لا تكاد تذكر: مثّلت ذات مرة دور بائعة الماء، وكان دوراً صامتاً في مسرحية تقام دوماً خلال أسبوع الآلام. ومع أنها نامت بشكل سيّىء في الباص، فإن منظر البحر كان يستثيرها، ويتعبها التهام السندويشات، ويحرجها أنها لا تعرف أحداً في الريو، وأن عليها التعرف سريعاً إلى أحد الأصدقاء. سبق لها أن مرّت بمثل هذه الحالة والتقت رجلاً يكرّر إطلاق الوعود دون أن يحقّق واحداً منها. لذا، كانت تعرف أن قصة هذا المدير الفني ليست إلا وسيلة يبحث من خلالها عن إثارة اهتمامها والتقرب منها، فيما هي تتظاهر بصدّه.

لكنها كانت على يقين من أن العذراء منحتها هذه الفرصة، وعلى اقتناع بضرورة أن تستفيد من كل ثانية في أسبوع العطلة هذا. لذا شعرت أن الأمر برمّته يشكّل مادة نفيسة يمكن أن ترويها لصديقاتها عند رجوعها. قررت عندئذٍ قبول الدعوة شرط أن يرافقهما المترجم، لأنها سئمت الابتسام والتظاهر بأنها تفهم كلام الأجنبي.

لكن المشكلة التي تتّسم بالخطورة البالغة هي أنها لا تملك ثوباً للمناسبة، والمرأة لا تعترف أبداً بهذه الأسرار الحميمة (يسهل على المرأة أن تتقبل خيانة زوجها من أن تعترف بالحالة المريعة لخزانة ملابسها). لكن، بما أن ماريا لا تعرف هذين الرجلين، ولن تراهما مجدداً في حياتها، فقد رأت أن ليس لديها ما تخسره وقالت: «ما زلت قادمة للتوّ من نوردستا، وليس لديّ ما أرتديه للذهاب إلى المطعم».

توسّل إليها الرجل عبر المترجم قائلاً إنه لا يجدر بها أن تقلق بهذا الشأن، ثم طلب إليها عنوان الفندق الذي تنزل فيه. بعد الظهيرة، أرسل إليها فستاناً لم ترَ مثله في حياتها وحذاء يبلغ ثمنه أجر عام كامل.

شعرت أن المغامرة قد بدأت، المغامرة التي طالما حلمت بها خلال

طفولتها ومراهقتها في «السرتا» البرازيلية. و«السرتا» بلاد قاحلة وشباب لا مستقبل لهم، مدينة نزيهة لكن فقيرة، والحياة فيها رتيبة وفارغة من أي اهتمام. ها هي تتحضّر الآن لتصبح أميرة العالم! ها إن رجلاً يعرض عليها وظيفة ودولارات، ويقدّم إليها حذاء مترفاً وفستاناً يشبه الفساتين في قصص الساحرات! لا ينقصها إلا الماكياج، لكن موظفة الاستعلامات تعاطفت معها وأتت لنجدتها، ولم تنسَ أن تحذّرها بقوة وتنبّهها إلى أن الأجانب ليسوا كلهم جديرين بالاحترام، كما أن ليس كل سكان ريو دي جانيرو صعاليك.

تجاهلت ماريا التنبيه. ارتدت هدية السموات وقضت ساعات أمام المرآة، وهي تتحسّر لكونها لم تجلب معها الكاميرا فتصوّر هذه اللحظات. واستمرّت كذلك إلى أن انتبهت أنها تأخرت عن موعدها. خرجت وهي تركض مثل ساندريلا، ووصلت إلى الفندق حيث ينزل السويسري. دُهشت حين أخبرها المترجم أنه لن يرافقهما.

ـ لا تكترثي لأمر اللغة. المهم أن يشعر أنه مرتاح برفقتك.

ـ لكن ما العمل إذا لم يفهم ما أقوله؟

ـ لن تحتاجي إلى الكلام، لأن المسألة متصلة «بالطاقات الكامنة فينا».

لم تفهم ماريا معنى قوله. في بلادها، عندما يلتقي الناس، يحتاجون إلى تبادل الكلام والأسئلة والأجوبة. لكن مايلسون، اسم المترجم الحارس، أكّد لها أن الأمر مختلف في ريودي جانيرو كما في سائر أنحاء العالم.

ـ لا تحاولي أن تفهمي. تدبّري أمرك بمفردك واجعليه يشعر بالراحة. الرجل أرمل ولا أولاد له، وهو صاحب ملهى ليلي يبحث عن برازيليات يرغبن في العمل في الخارج. قلت له إنك لست مؤهّلة لهذا العمل، لكنه أصرَّ على الموضوع. يدّعي أنه وقع في الغرام ما أن رآك تخرجين من الماء وأنه وجد «المايوه البيكيني» جميلاً. توقّف

المترجم عن الكلام ثم أضاف: «لكني بصراحة أقول لك إن كنت تريدين أن تجدي عشيقاً هنا، فعليك أن تغيّري موديل «البيكيني»، لأنه باستثناء هذا السويسري، لن يعجب أحداً في العالم، لأنه قديم الطراز للغاية».

تظاهرت ماريا بعدم سماعه، ثم تابع مايلسون قائلاً: أرى أنه لا يرغب فقط بمغامرة معك، بل يعتبر أن لديك ما يكفي من الموهبة لتصبحي نجمة ملهاه الليلي. بالطبع، لم يستمع إلى غنائك ولم يرَ رقصك، لكن هذا يمكن اكتسابه. أما الجمال، فيأتي بالفطرة. آه! هؤلاء الأوروبيون! يلقون رحالهم هنا معتقدين أن كل البرازيليات شهوانيات ويعرفن رقصة السامبا؛ إذا كانت نيّاته جدية، اقترح عليك أن تبرمي عقداً معه، مقترناً بتوقيع رسميّ من القنصلية السويسرية، قبل مغادرة البلاد. غداً سأكون على الشاطىء أمام الفندق. تعالي لرؤيتي إذا ساورتك بعض الشكوك.

ابتسم السويسري وأمسك بذراعها مشيراً إلى سيارة التاكسي التي تنتظرهما.

«أما إذا كانت نيّاته مختلفة ونيّاتك كذلك، فإن التعرفة لليلة الواحدة هي ثلاثمئة دولار. لا تقبلي بما هو أقلّ».

قبل أن تتمكّن من الإجابة، كانت سيارة التاكسي قد أقلعت باتجاه المطعم. اقتصر الحوار على الحد الأدنى: «العمل؟ دولارات؟ نجمة برازيلية؟».

إلا أن ماريا كانت تفكر في أقوال المترجم: «ثلاثمئة دولار لليلة واحدة! يا للثروة! ليست مضطرة لأن تموت من العشق! بإمكانها أن تغري هذا الرجل كما فعلت مع رب عملها، وأن تتزوّج وتنجب أولاداً وتؤمّن حياة مريحة لوالديها. ما الذي لديها كي تخسره؟ فهو عجوز ولن يلبث أن يموت فترث ثروته. عبثاً يلهث السويسريون وراء الثروات، لكأن النساء عملة نادرة في بلادهم.

كانا قليلَي الكلام خلال العشاء: ابتسامة من هنا وابتسامة من

هناك. فهمت ماريا تدريجياً قصة الطاقات الكامنة هذه. أظهر لها الرجل ألبوماً يحتوي على وثائق عدة مكتوبة في لغة لا تعرفها وقصاصات جرائد وصور لنساء يرتدين البيكيني (مايوهات لا شك أنها أكثر أناقة وجرأة من ذلك الذي كانت ترتديه حين رآها السويسري لأول مرة). احتست ماريا الكثير من الكحول لمواجهة ما يمكن أن يقترحه عليها السويسري من أمور منكرة (لا أحد يستطيع أن يهزأ بثلاثمئة دولار! ثم إن القليل من الكحول يجعل الأمور تجري بسهولة أكثر ولاسيما بغياب أشخاص تعرفهم). لكن الرجل تصرّف بلياقة وتهذيب: كان يقدّم الكرسي لها لدى جلوسها ويزيحه لدى نهوضها. تذرّعت ماريا عند انتهاء السهرة أنها تعبة واقترحت عليه موعداً على الشاطئ صباح الغد (أشارت إلى الموعد على ساعتها مقلّدة حركة الأمواج بيدها وردّدت كلمة غـــ ـ د ـــ أ ببطء شديد). بدا راضياً، ونظر هو أيضاً إلى ساعته (ربما كانت سويسرية) وأفهمها أن الوقت يناسبه.

لم يكن نومها مريحاً. فكّرت أن كل ذلك كان حلماً. لكنها حين استيقظت، استنتجت أن ذلك حصل فعلاً، وأن هناك بلا شك ثوباً فوق الكرسي في غرفتها المتواضعة وحذاء جميلاً، وموعداً على الشاطئ في المدى القريب.

دوّنت ماريا في يومياتها، يومَ التقت السويسري، الكلمات التالية:

تحدّثني نفسي أنني على وشك اتخاذ قرار سيّىء. لكن الأخطاء شكل من أشكال التقدّم في الحياة. ماذا يريد العالم مني؟ هل أجازف أم أعود من حيث أتيت دون أن امتلك الشجاعة لأقول «نعم» للحياة؟

سبق لي أن ارتكبت خطأ حين كان لي من العمر إحدى عشرة سنة، يوم جاء صبي وطلب إليّ أن أعيره قلماً. منذ ذلك الحين أدركت أن الحياة لا تمنح أحياناً فرصة ثانية، وأنّ من الأفضل تقبّل الهبات التي يقدّمها العالم لنا. بالطبع في الأمر مجازفة، لكن هل هذه المجازفة أقلّ خطورة مثلاً من حادث كان بإمكانه أن يحصل لي في الباص الذي استغرق ثمانيَ وأربعين ساعة لإيصالي إلى هنا؟ إذا كان يجدر بي أن أكون وفية لأحدٍ ما أو لشيء ما، فيجب أن أكون وفية لنفسي. وإذا كنت أبحث عن الحب الحقيقي، فعليّ أولاً أن أحسم أمري مع العلاقات التافهة التي أقمتها. علّمتني الخبرة القليلة التي اكتسبتها أن لا أحد يستطيع التحكّم بمجريات الأمور، وأنّ كل شيء ليس إلا وهماً. وهذا الأمر ينطبق على الأمور المادّية كما على الخيرات الروحية. من فقد شيئاً كان يعتبر الحصول عليه أمراً ثابتاً ومضموناً (وهذا ما حصل لي)، يعرف في النهاية أنه لا يمكنه الحصول على شيء.

وإذا كنت لا أملك شيئاً، فلا حاجة لي إذاً لأن أهتم بالأشياء التي ليست لي. الأفضل أن أحيا كما لو أن هذا اليوم أول يوم أو آخر يوم في حياتي».

في اليوم التالي، أعلنت ماريا، وكان يرافقها مايلسون بصفته مدير أعمالها، أنها توافق على الدعوة، شرط أن تحصل على وثيقة مصدّقة من القنصلية السويسرية. لم يستغرب الأجنبي طلبها قط، لا بل أكّد لها أن هذه أيضاً رغبته، لأن العمل في بلاده يستوجب الحصول على ورقة تثبت أن لا أحد غيرها مرشّح للقيام بالمهنة التي تهيّىء نفسها لممارستها. وهذا ليس أمراً صعب المنال لأن السويسريات لسن موهوبات في رقصة السامبا. ذهبوا معاً إلى وسط المدينة، واشترط الحارس المترجم، ومدير الأعمال الأسبق، أن يكون المال المدفوع أوراقاً نقدية. ما إن وقّعت ماريا والسويسري العقد حتى احتفظ لنفسه بـــ ٣٠٪ من الــ ٥٠٠ دولار التي تسلّمتها ماريا.

قال مايلسون: «هذا أجر أسبوع سلفاً. أسبوع، هل فهمت؟ ستتقاضين ٥٠٠ دولار في الأسبوع بلا سمسرة، لأنني لا أستوفي حصّتي كاملة إلاّ من الدفعة الأولى».

حتى هذه اللحظة، لم تكن فكرة السفر أو فكرة الذهاب إلى الطرف الآخر من العالم تخطر على بال ماريا. كل ذلك لم تكن ترى فيه إلا حلماً. والحلم يبقى أمراً مُريحاً ما دمنا لسنا ملزمين بتحقيق ما نصبو إليه. وهكذا، فإنه لا بدّ لنا من اجتياز الظروف الصعبة ومواجهة الأخطار والتعرّض للحرمان عندما تتقدّم بنا السن وتداهمنا الشيخوخة. وفي نهاية المطاف نحمّل الآخرين، ولا سيّما أهلنا وأزواجنا والأولاد، الذنب، لأنهم لم يحقّقوا لنا رغباتنا.

ها قد سنحت الفرصة لماريا فجأة، الفرصة التي طالما حلمت بها من دون أن تسعى إليها جاهدة! كيف سيكون بإمكانها مواجهة الأخطار والتحديات التي ستعترضها على عتبة حياة جديدة مجهولة؟ كيف سيكون بإمكانها التخلّي عن كل عاداتها؟ لماذا شاءت العذراء مريم أن يكون قدرها الذهاب بعيداً إلى هذا الحد؟

واست ماريا نفسها قائلة إن بإمكانها تغيير رأيها والعدول عن الذهاب في أي لحظة، وإن كل ذلك مجرد دعابة بلا عواقب، أو حكاية عجيبة ترويها لدى رجوعها إلى مدينتها. على كل حال، كانت ماريا تقيم على مسافة أكثر من ألف كيلومتر من ريودي جانيرو، وتملك ٣٠٠ دولار. وإذا خطر لها أن تحزم أمتعتها غداً وتعود إلى ديارها سراً، فلا أحد يستطيع أن يعرف وجهتها.

بعد الظهيرة التي أعقبت الزيارة إلى القنصلية، قرّرت الذهاب لتتنزّه بمفردها على الشاطىء، وتراقب الأولاد وأمّهاتهم ولاعبي الكرة الطائرة والمتسولين والسكارى وبائعي المبتكرات الحرفية النموذجية (المصنوعة في الصين)، والرياضيين المنصرفين إلى ممارسة التمارين لمواجهة الشيخوخة قدر المستطاع، والسيّاح والمتقاعدين الذين يلعبون الورق في نهاية الجادة المحاذية للبحر... ها هي الآن في قلب ريو دي جانيرو، نزيلة فندق من الدرجة الأولى، تعرف قنصلية وأجنبياً ومدير أعمال، وقد أهديت فستاناً وحذاء لا يستطيع أحد في نوردستا شراءهما.

نظرت إلى الأفق: لا شك في أن أفريقيا، بأُسودها وغاباتها المزدحمة بالغوريللا، تقع قبالتها، كما تعلّمت في دروس الجغرافيا. وإن اتجهت قليلاً صوب الشمال يمكنها أن تضع رحالها في قارة ساحرة تدعى أوروبا حيث يوجد برج إيفل وأورو ديزني وبرج بيزا. ماذا ستخسر بذهابها؟ ثم إنها، كجميع البرازيليات، تعلّمت رقصة السامبا قبل أن تلفظ كلمة «ماما». وإذا لم ترق لها المهنة غداً يمكنها العودة إلى بلادها، فالفرص متاحة، وينبغي انتهازها على وجه السرعة.

قرّرت أن تواجه فقط التجارب التي بمقدورها السيطرة عليها، كبعض المغامرات مع الذكور. لقد أزجت الوقت، وهي ترفض الانصياع، وتودّ الآن لو أنّها آثرت الاستجابة. ها هي تقف أمام المجهول، ذاك المجهول الذي كانه ذات يوم البحر للبحّارة الذين عبروه، كما تعلّمت في دروس التاريخ. ستكون الظروف دوماً مؤاتية لقول «لا». لكن هل عليها أن تقضي بقية حياتها في التحسّر؟ لا تزال الحسرة تعتصر قلبها عندما تفكّر في الصبي الذي سألها قلماً، ثم افتقدته وتلاشى حبّها الأول!... لماذا لا تسعى هذه المرة لأن تقول «نعم»؟

السبب بسيط: ماريا فتاة عاشت في الريف وليس لديها تجربة في الحياة. كل ما حصّلته طوال سنواتٍ من الدراسة في مدرسة محترمة، ومن ثقافة واسعة في ميدان المسلسلات التلفزيونية، واليقين أنها جميلة؟ لكن هذا لا يكفي لمواجهة العالم.

رأت جماعة من الناس يتهيّبون لدى رؤيتهم البحر، وكأنهم يخشون الاقتراب منه. هي أيضاً أحسّت بالخشية نفسها منذ يومين. لكن الخوف ولّى الآن. تستطيع خوض الماء ما إن ترغب في ذلك، وكأنها وُلدت هنا على البحر. ألن يكون الأمر مماثلاً في أوروبا؟

توجّهت بصلاة صامتة إلى العذراء مريم. وبعد ثوان معدودات، بدت راضية عن قرارها بالسفر بعيداً لأنها أحسَّت أن العذراء تحميها. العودة ممكنة دوماً لكن الفرصة التي سنحت لها بالذهاب بعيداً جداً ليست متوفرة دوماً. والأمر يستحق المجازفة، ما دام حلمها الواعد قادراً على الصمود في وجه الساعات الثماني والأربعين التي يستغرقها الرجوع في الباص دون مكيّف، وما دام السويسري لن يغير سلوكه تجاهها بين لحظة وأخرى.

شعرت أنها مستثارة لدرجة كبيرة: عندما دعاها السويسري للعشاء من جديد، نظرت إليه نظرة اصطنعت فيها الكثير من الدلال وأمسكت بيده. انتزع الرجل يده على الفور فأدركت ماريا، بشيء من الخوف والارتياح في آن، أنه كان جادّاً في مشروعه.

«نجمة سامبا! نجمة سامبا برازيلية جميلة! السفر الأسبوع القادم!».

كل ذلك رائع. لكن عبارة «السفر الأسبوع القادم» تمثّل أمراً لا يُعقل. أوضحت له ماريا أنها لا تستطيع أن تتّخذ مثل هذا القرار دون أن تستشير عائلتها. فما كان من السويسري إلا أن أظهر بغضب نسخة عن الوثيقة الموقعة، وشعرت ماريا بالخوف للمرة الأولى.

كرّر قائلاً: «والعقد؟».

وإذ عزمت ماريا على السفر، أرادت أن تستشير مايلسون مدير أعمالها. أفلم تُؤدِّ له أجره مقابل مساعدتها؟

لكن مايلسون كان منشغلاً بإغواء سائحة من سيّاح المدينة نزلت مؤخّراً في الفندق، وكانت تتمدّد عارية الصدر فوق الرمل، معتقدة أن البرازيل هو البلد الأكثر تحرّراً في العالم (ولم تكن تدرك أنها المرأة الوحيدة شبه العارية هناك، وأن الجميع ينظرون إليها باستياء). وجدت ماريا مشقة بالغة في أن تلفت نظره إلى ندائها.

قالت له بإصرار: ماذا لو غيّرت رأيي؟

ـ لا أعرف ماذا كتب في البنود التي تضمنها العقد بالتحديد، لكن ربما كان يستطيع سجنك مثلاً.

ـ لن أسمح له بالاهتداء إلى مكاني.

ـ أنت محقة. لا تهتمي إذاً.

بدأ السويسري يشعر بالقلق إزاء إصرار ماريا على الذهاب لرؤية عائلتها، لاسيما وأنه أنفق مبلغ ٥٠٠ دولار سلفاً وثمن حذاء وثوب وعشاءين ونفقات التسجيل في القنصلية. لذا، قرر أن يشتري بطاقتي طائرة وأن يرافقها لغاية بيتها، شرط أن ينتهي كل شيء في ظرف ثمانية وأربعين ساعة، وأن يتمكّنا من الذهاب إلى أوروبا

في الأسبوع المقبل وفقاً لشروط العقد الموقّع بينهما. وبعد الابتسامات التي وزّعت من هنا ومن هناك، فهمت ماريا أخيراً أن كل ذلك مرتبط بالوثيقة التي وقّعت عليها، وأنه لا يُفترض بنا أن نلجأ إلى الإغواء والمشاعر ولا أن نعبث بالعقود والمواثيق.

دُهشت المدينة لا بل افتخرت لدى رؤية ابنتها الجميلة ماريا تصل وبرفقتها أجنبي يرغب في مساعدتها على أن تصبح نجمة كبيرة في أوروبا.

سألتها صديقات المدرسة:

ـ كيف حصل ذلك؟

ـ بفعل الحظ.

كن يرغبن في معرفة ما إذا كانت الأمور تجري دائماً على هذا النحو في ريو دي جانيرو، لأنهن شاهدن في المسلسلات التلفزيونية مغامرات مشابهة. لم تقل ماريا «نعم» ولم تقل «لا»، ظلَّ جوابها غامضاً لأنها تبغي أن تُعلي من قدر مواهبها الشخصية، وأن تقنعهن بأنها كائن استثنائي.

ذهبت ماريا والسويسري إلى البيت. وهناك أظهر السويسري من جديد الصور والكراسات عن البرازيل والعقد. وأوضحت ماريا أنه بات لديها الآن مدير أعمال فني وأنها تنوي الانصراف إلى ولوج عالم الفن. رأت أمها مقاس «البيكيني» التي ترتديه الفتيات في الصور، وأرجعت الصور فوراً، ممتنعة عن طرح الأسئلة. كل ما يهمّها أن تكون ابنتها سعيدة وثرية، أو حتّى تعيسة لكن ثرية.

ـ ماذا يدعى؟

ـ روجيه.

ـ روجيريو! كان لديّ قريب يحمل الاسم نفسه!

ابتسم الرجل مصفّقاً وأدرك الجميع أنه لم يفهم الجواب.

قال الأب لماريا: «لكنه في مثل سني!»

فتوسلت إليه زوجته ألاّ يتدخّل في سعادة ابنته. كانت أم ماريا قد اكتسبت، كما كل الخياطات، تجربة كبيرة من خلال التحدّث إلى زبوناتها، وباتت خبيرة في موضوعات الزواج والحب. نصحت ماريا قائلة: «يا معبودتي، الأفضل أن تكوني تعيسة مع رجل ثري من أن تكوني سعيدة مع رجل فقير. وهناك، لديك حظوظ أكبر في أن تكوني ثرية تعيسة. ثم افرضي أن الأمور لم تجرِ كما يجب، يمكنك عندئذٍ أن تمتطي حافلة وترجعي إلى البيت».

أجابت ماريا، وهي فتاة أوسع ذكاءً ممّا تتصور أمها وزوجها المقبل، على سبيل الاستفزاز:

ـ أمي، ليست هناك حافلة بين أوروبا والبرازيل، ثم إنني أريد الانخراط في مهنة فنية، لا أن أبحث عن زوج.

نظرت إليها أمها نظرة شبه يائسة!

ـ حتى لو ذهبت إلى هناك، يمكنك العودة ساعة تشائين، صحيح أن المهن الفنية ممتازة للفتيات الشابات، لكنها تدوم ما دمت جميلة وتنتهي تقريباً في سن الثلاثين. استفيدي إذاً من وجودك هناك، وحاولي أن تعثري على شاب ثري ومغرم بك. تزوّجي، أتوسل إليك. لا تفكّري في الحب. في البداية، لم أكن أحب أباك، لكن المال مفتاح كل شيء، حتى الحب الحقيقي. ومع ذلك، فإن أباك ليس ثرياً.

لو كانت النصيحة صادرة عن إحدى الصديقات لكانت سيئة. لكن، بما أنها صادرة عن أم فهي ممتازة. قبل أن ترجع ماريا إلى الريو، وتحديداً قبل ثماني وأربعين ساعة، ذهبت بمفردها إلى مكان عملها القديم، وقدّمت استقالتها. قال لها رب عملها:

ـ علمت أن مدير أعمال فرنسياً كبيراً قرّر اصطحابك إلى باريس. لا أستطيع أن أقف وجه سعادتك، لكن أريد، قبل أن ترحلي، أن أقول لك شيئاً.

أخرج من جيبه سلسلة فيها قلادة:

ـ هذه القلادة العجائبية لسيدة النِعَم، كنيستها موجودة في باريس. اذهبي إلى هناك، واطلبي حمايتها، وانظري إلى ما هو مكتوب هنا.

قرأت ماريا الكلمات المحفورة على القلادة:

«يا مريم التي حُبِلَ بها بلا دنس، صلّي لأجلنا نحن الذين نتضرّع إليك، آمين».

ـ لا تنسي أن تتلفّظي بهذه الجملة مرة على الأقل في اليوم و...

تردّد قليلاً، ثم تابع قائلاً: «إذا رجعت يوماً فاعلمي أنني سأنتظرك. فاتتني الفرصة لأقول لك شيئاً بسيطاً جداً. أحبك. ربّما فات الأوان، لكني أردت أن تعرفي».

«فاتتني الفرصة»... لكنها عرفت منذ وقت طويل نيّاته. أما كلمة «أحبك»، فقد سمعتها كثيراً على مدى سنواتها الاثنتين والعشرين. وشعرت أنها لا تعني لها شيئاً، لأنها لم تكن قط نابعة من شعور جدي يمكن تجسيده في علاقة مستديمة. شكرته ماريا على هذه الكلمات، ودوّنتها في ذاكرتها. لا أحد يعرف ماذا تخبّىء له الحياة، ومن المستحسن دائماً إيجاد المخارج الملائمة لبلوغ النجاة. طبعت على وجنتيه قبلة بريئة وخرجت دون أن تنظر وراءها.

عندما رجعت إلى الريو، حصلت على جواز سفرها في أقلّ من يوم. «تغيرت البرازيل فعلاً»، هكذا قال روجيه مُعلّقاً بكلمات برتغالية وبكثير من الإشارات. فهمت ماريا ما كان يرمي إليه: «قديماً كان الأمر يستغرق وقتاً أطول بكثير». قامت ماريا بمساعدة مايلسون، في التحضيرات النهائية (الثياب والأحذية والماكياج، وكل ما يمكن أن تحلم به امرأة مثلها). رآها روجيه ترقص في الملهى الذي ذهبا إليه عشية رحيلهما إلى أوروبا، وهنّأ نفسه بحماس على اختياره. وجد نفسه فعلاً أمام نجمة كبيرة

للهى «جيلبير»، نجمة سمراء جميلة ذات عينين فاتحتين وشعر أسود كجناح «الغرونا»[1]، وهو طائر درج الأدباء البرازيليون على تشبيه سواد الشعر بجناحيه. جهّزت شهادة العمل في القنصلية السويسرية. حزما أمتعتهما، وفي اليوم التالي، طارا إلى بلاد الشوكولاتة والساعات والجبنة. كانت ماريا تخطّط سرّاً لإيقاع الرجل في غرامها، فهو في آخر الأمر ليس بشعاً ولا عجوزاً ولا فقيراً. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

(١) كلمة من أصل نوبي (لهجة هندية في أميركا الجنوبية) وتعني طائراً من فصيلة الجواثم الكبيرة، ريشه أسود ليلكي أو مائل إلى الزرقة، تتخلّله تموجات معدنية، منقاره أسود، وهو منتشر في البرازيل والبلدان المجاورة.

وصلت مرهقة، ومنذ هبوطها في المطار، شعرت بالخوف يعتصر قلبها. أدركت أنها كانت تابعة تماماً للرجل الموجود إلى جانبها، ذلك أنها لم تكن تعرف البلاد ولا اللغة ولا البرد. كان تصرف روجيه يتغيّر مع مرور الساعات. لم يعد يسعى لأن يكون لطيفاً. حتى إنه لم يحاول قط أن يقبّلها أو يداعب نهديها. أصبحت نظراته باردة. أنزلها في فندق صغير وعرّفها إلى برازيلية أخرى، وهي امرأة شابة حزينة تدعى فيفيان، وأوكل إليها مهمة تعليمها أصول عملها المقبل.

تفحصتها فيفيان من الرأس حتى القدمين، دون أن تظهر أي كياسة حيال أجنبية آتية لتوها إلى بلاد غريبة. وبدل أن تسألها عن أحوالها، ذهبت قدماً إلى الهدف قائلة:

ـ لا تغذّي أوهاماً في رأسك. إنه يذهب إلى البرازيل كلّما تزوجت إحدى راقصاته، وهذا ما يحدث غالباً. يعرف ماذا يريد، وأظن أنك أنت أيضاً تعرفين. جئت ولا شك لتبحثي عن أحد هذه الأشياء الثلاثة: المغامرة أو المال أو الزوج.

كيف أمكنها أن تحدس ذلك؟ هل يبحث الجميع عن الشيء نفسه؟ أم إنها تستطيع أن تقرأ أفكار الآخرين؟

كرّرت فيفيان قولها: «جميع الفتيات يبحثن هنا عن أحد هذه الأشياء الثلاثة». واقتنعت ماريا أنها كانت تقرأ فعلاً أفكارها. وتابعت فيفيان: «فبشأن المغامرة، الطقس هنا أبرد من أن يسمح لك

بالتنقّل سعياً وراءها، هذا إذا بقي معك فلس للسفر. أما المال، فيجب أن تعملي تقريباً مدة عام كامل لكي تتمكّني من تأمين ثمن بطاقة العودة، ما لم نحتسب المبلغ العائد لنفقات الإقامة والطعام.

ـ لكن...

ـ أعرف، هذا لم يجر الاتفاق عليه. في أيّ حال، نسيت أن تسألي بهذا الخصوص، كما يفعل الجميع في الواقع. لو كنت أكثر انتباهاً، لو أنك قرأت ملياً العقد الذي وقّعته، لعرفت تماماً الورطة التي أوقعت نفسك فيها. صحيح أن السويسريين لا يكذبون، لكنهم يعرفون أيضاً كيف يستغلّون الصمت لصالحهم.

أخذت الأرض تدور تحت قدمي ماريا.

ـ ثمَّ إن كل فتاة تتزوّج تُلحق بروجيه خسارة مالية كبيرة. لذا، يُحظَّر على الفتيات ان يتحدثن إلى الزبائن. وإذا فعلت أي شيء في هذا الاتجاه، فإنك تجازفين بعملك. هنا ليس مكاناً يستطيع الناس أن يلتقوا فيه، بخلاف شارع برن.

ـ شارع برن؟

ـ الرجال يأتون إلى هنا برفقة زوجاتهم، والسيّاح القليلون يجدون الجو عائلياً جداً ويفضّلون الذهاب إلى أمكنة أخرى بحثاً عن النساء. اتقني الرقص، وإذا كنت تعرفين الغناء فإن أجرك سوف يزداد، وتزداد معه أيضاً غيرة الفتيات الأخريات. فلو كنت تملكين أجمل صوت في البرازيل، أنصحك، في كل حال، أن تنسي الأمر وألاّ تحاولي الغناء. وأنصحك بشكل خاص ألا تستعملي الهاتف وإلا أنفقت كل ما تجنينه من مال، وهو قليل في النهاية.

ـ لكنه وعدني بـ ٥٠٠ دولار في الأسبوع!

ـ سترين.

ومما كتبته ماريا في يوميات الأسبوع الثاني لإقامتها في سويسرا، العبارات التالية:

«ذهبت إلى الحانة. التقيت «أستاذ رقص» جاء من بلاد تُدعى المغرب. كان عليَّ أن أتعلّم كل خطوة ممّا يعتبره، هو الذي لم تدس قدماه أرض البرازيل، رقصة السامبا. لم يُتح لي الوقت كي أرتاح من عناء السفر الطويل على متن الطائرة. توجب عليَّ أن أبتسم وأرقص منذ المساء الأول لوصولي. نحن ست فتيات. ولا تعرف إحداهنّ السعادة ولا ماذا تفعل هنا. الزبائن يشربون ويصفّقون ويرسلون القبلات، ويقومون سراً بحركات داعرة، وهذا كل شيء.

دُفع أجري البارحة، وهو عشر ما تمَّ الاتفاق عليه. والباقي هو، بحسب العقد، لتأمين نفقات التذكرة والإقامة. وهذا يتطلّب وفق حسابات فيفيان، العمل مدة عام كامل، أي إنني لا أستطيع خلال هذه الفترة أن أهرب إلى أي مكان.

لكن، هل يستحق الأمر عناء الهرب؟ وصلت إلى هذه البلاد لتوّي، ولا أعرف شيئاً بعد. ما المشكلة في أن أرقص سبع أمسيات في الأسبوع؟ في السابق، كنت أرقص من أجل لذّة الرقص، والآن من أجل المال والشهرة.

ساقاي لا تشعران بالوهن، لكن يصعب عليَّ أن أحتفظ بالابتسامة فوق شفتي.

عليَّ أن أختار: إما أن أكون الضحية وإما أن أكون المرأة المغامرة

التي تبحث عن كنزها. المسألة كلّها تكمن في معرفة المنظار الذي يجب أن أتطلع منه إلى حياتي».

اختارت ماريا أن تكون المرأة المُغامِرة التي تبحث عن كنزها الضائع. تنكّرت لمشاعرها، وتوقّفت عن البكاء طوال الليل، ونسيت من تكون. أدركت أن لديها الإرادة لتتصرّف وكأنها خُلقت للتوّ، وأنها لا تتحسّر بالتالي على غياب من تعرفهم. بوسع قلبها أن ينتظر. أما الآن، فيجدر بها أن تكسب المال وتكتشف معالم البلاد وتعود ظافرة إلى ديارها. ثمَّ إن كل شيء من حولها يذكّرها بالبرازيل وبمدينتها تحديداً: النساء يتكلّمن البرتغالية ولا يتوقّفن عن التذمّر من الرجال، ويتحدّثن بصوتٍ عالٍ، ويعترضن على المواعيد، ويصلن متأخّرات إلى عملهن، ويتحدّين صاحب العمل، ويعتبرن أنفسهن أجمل نساء العالم، ويروين قصصاً عن فرسان الأحلام، وفرسان أحلامهن يقطنون في أماكن بعيدة وهم إما كانوا متزوجين وإما لا يملكون المال ويعتاشون من عمل أولئك النسوة بالذات. كان الجو مختلفاً عمّا تصوّرته ماريا حين رأت الكرّاسات الإعلانية التي أحضرها روجيه، ومطابقاً لوصف فيفيان: كان الجو عائلياً. لا تستطيع الفتيات تقبّل الدعوات ولا الخروج بصحبة الزبائن، لأنهن كن مسجّلات على بطاقات عملهن بصفتهن «راقصات سامبا». وإذا ضُبطت إحداهن وفي حوزتها ورقة صغيرة دوّن عليها أحدهم رقم تلفونه، فإنها تُحرم من العمل لمدة خمسة عشر يوماً. كانت ماريا تتوقّع أن يكون الجو أكثر حيوية وحركة، باعثاً على الانفعالات القوية. خاب أملها وبدأت تستسلم تدريجياً للحزن والضجر.

خلال الأيام الخمسة عشر الأولى لوجودها في سويسرا، لم تترك النزل الذي كانت تقيم فيه إلا نادراً، وخصوصاً حين اكتشفت أن لا أحد في المدينة يعرف اللغة البرازيلية، حتى لو تلفّظت بكل جملة ببطء شديد. وفوجئت أيضاً بأن المدينة التي تقطن فيها تحمل اسمين: «جنيف» بالنسبة إلى سكانها و«جِنبرا» بالنسبة إلى البرازيليات.

وأخيراً، استطاعت أن تقوم خلال الساعات الطويلة التي قضتها في غرفتها الصغيرة الخالية من جهاز تلفزيون، بالخلاصة التالية:

أ ـ لن تستطيع أبداً بلوغ أهدافها إذا لم تعرف كيف تعبّر عما تفكّر فيه. لذا عليها تعلّم اللغة المحلية للبلاد.

ب ـ بما أن جميع رفيقاتها كن يبحثن عن الشيء نفسه، فيجدر بها إذاً أن تتميّز عنهن. لكنها لا تملك بعد تصوّراً ولا منهجاً لكي تحقّق هذا التميّز.

وهذا ما دوّنته ماريا في يومياتها بعد أربعة أسابيع من وصولها إلى جنيف:

«أنا هنا منذ الأزل. لا أعرف اللغة. أقضي نهاراتي في الاستماع إلى الموسيقى عبر جهاز الراديو، والنظر إلى جدران غرفتي والتفكير في البرازيل، منتظرة بفارغ الصبر أن يحين وقت العمل. وعندما أعمل، أنتظر أن يحين وقت العودة إلى النزل. أي أنني أعيش في المستقبل بدل أن أعيش في الحاضر.

ذات يوم، في المستقبل البعيد، سأحصل على تذكرة العودة. سأتمكّن من العودة إلى البرازيل، والاقتران بصاحب محل النسيج، والاستماع إلى التعليقات الخبيثة لصديقاتي اللواتي لم يجازفن قط في حياتهن. ولا يهمني بالتالي إلا الحديث عن فشل الآخرين. لا، لا يمكنني الرجوع. أفضّل أن أرمي بنفسي من الطائرة في المحيط. لكن، بما أن نوافذ الطائرة مغلقة دوماً (وهذا شيء لم أكن أتوقّعه ولا أستطيع للأسف أن أشتمّ الهواء النقي). أفضّل الموت هنا، لكن، قبل أن أموت، أريد أن أصارع من أجل الحياة. وما دمت أستطيع أن أمشي وحدي، فسأذهب إلى حيث أشاء».

ذهبت ماريا صباح اليوم التالي لتتسجل في عداد الراغبين في تعلم اللغة الفرنسية. هناك، تعرّفت إلى أشخاص ينتمون إلى كل المعتقدات والأعمار، وإلى رجال يرتدون بزات فاقعة اللون وتثقل معاصمهم سلاسل ذهبية، ونساء يرتدين باستمرار أحجبة فوق رؤوسهن، وأطفال يكتسبون اللغة بطريقة أسرع مما يكتسبها الكبار. لكن، ألا ينبغي أن يكون الأمر معكوساً ما دام لدى الكبار خبرة أوسع في الحياة؟ كانت فخورة بأنهم جميعاً يعرفون بلادها والكرنفال والسامبا وكرة القدم واللاعب الأشهر في العالم وهو «بيليه». أرادت في البداية أن تكون ودودة وحاولت أن تصحّح الطريقة التي يلفظون بها اسم «بيليه». لكنها أذعنت في نهاية الأمر، لأنهم كانوا يلفظون أيضاً اسمها بشكل سيّىء. وهذا عائد إلى تلك العادة المستهجنة لدى الأجانب التي تقوم على تحريف جميع الأسماء، والاعتقاد بأنهم دائماً على حق!

بعد الظهيرة، ذهبت ماريا تتجول لأول مرة في هذه المدينة ذات الاسميْن، وذلك بهدف إتقان اللغة الفرنسية. تذوّقت شوكولاتة لذيذة وجبنة لم يسبق لها أن تذوّقتها، ورأت فوّارة هائلة وسط البحيرة، والثلج الذي لم يدسه قط أي من سكان مدينتها، والبجع والمطاعم المزوّدة بالمداخن (لم تدخل أيّاً من المطاعم، لكنها كانت ترى النار عبر النافذة، وهذا كان يمنحها شعوراً لذيذاً بالارتياح). عجبت أيضاً حين رأت الملصقات الإعلانية التي لا تُظهر فقط الساعات بل أيضاً المصارف. لكنها لم تستطع أن تفهم لماذا يوجد هذا العدد

الكبير من المصارف قياساً على سكان قليلي العدد. ومع ذلك قررت ألاّ تطرح الأسئلة مجدداً.

استطاعت ماريا أن تكبح جماح طبيعتها الشهوانية والجنسية، وهذا أمر معروف جداً عن البرازيليات. لكن غريزتها استفاقت ذات يوم ووقعت في غرام شاب عربي كان يتابع معها دروس الفرنسية. دامت العلاقة ثلاثة أسابيع. ثمَّ قرّرت ذات مساء أن تترك كل شيء وتذهب إلى الجبل القريب من جنيف. عندما حضرت إلى عملها في اليوم التالي، بعد الظهر، استدعاها روجيه إلى مكتبه.

ما إن فتحت الباب حتى تبلّغت صرفها من العمل دون مقدّمات، والسبب أنها أعطت القدوة السيئة لزميلاتها الأخريات في العمل. كان روجيه غاضباً بشكل هستيري. قال إن البرازيليات خيّبن أمله مرة أخرى، وإنه لا يمكن الوثوق بهن (آه، يا إلهي، ما أفدح هذا الحكم الذي يجري تعميمه على كل الحالات). عبثاً أكّدت له أن غيابها كان ناجماً فقط عن إصابتها بحمى سبّبها فارق الحرارة. لم يقتنع الرجل، وأسف لأنه مضطر للرجوع إلى البرازيل من أجل البحث عن بديلة. ثم أضاف أنه كان أحسن صنيعاً لو أنه نظّم حفلة موسيقية بمشاركة راقصات يوغوسلافيات، وهن أجمل من البرازيليات وأكثر استعداداً للقيام بالأدوار الموكلة إليهن.

لم تكن ماريا بلهاء إطلاقاً على الرغم من صغر سنها، لاسيما وأن عشيقها العربي أوضح لها أن العمل في سويسرا منظّم بشكل صارم، وأن بإمكانها أن تثبت أن المؤسسة التي تعمل فيها كانت تستغلّها وتقتطع قسماً كبيراً من أجرها.

رجعت لتقابل روجيه في مكتبه. تكلّمت هذه المرة لغة فرنسية صحيحة وأدخلت في مفرداتها عبارة «محامٍ»... خرجت مع بعض الشتائم وخمسة آلاف دولار كتعويض؛ وهذا مبلغ لم تحلم به. كل ذلك بفضل هذه الكلمة السحرية «محام». باستطاعتها الآن أن تتفرّغ لصديقها العربي، وتشتري بعض الهدايا، وتلتقط صوراً

للمناظر الثلجية، وتعود إلى المنزل فخورة بهذا النصر الذي طالما حلمت به.

كان أول ما فعلته اتصالها بإحدى جارات أمها. قالت لها إنها سعيدة، وإن لديها مهنة رائعة، وإنه لا ينبغي أن يقلق أحد في البيت بشأنها. كانت لا تزال أمامها مهلة لمغادرة غرفتها في النزل. لذا، ارتأت أن كل ما عليها أن تفعله هو أن تذهب للقاء العربي لتعرب له عن حبّها الصادق، واستعدادها لأن تعتنق دينه وتتزوّجه، حتى لو اضطرت أن ترتدي مثل هذا الحجاب الغريب. الجميع هنا يعرفون أن العرب أثرياء جدّاً، وهذا سبب وجيه لكي توطّد علاقتها به.

لكن العربي غادر. والآن، بما أنها تتكلم الفرنسية ببراعة، وتملك المال للحصول على تذكرة العودة، وبما أن لديها بطاقة عمل تصنّفها بين راقصات السامبا وترخيصاً بالإقامة لا يزال ساري المفعول، وبما أنها تعلم أن بإمكانها، إذا سُدّت جميع المنافذ في وجهها، أن تقترن ببائع النسيج، فقد قرّرت ماريا أن تفعل ما هي قادرة عليه: أن تكسب المال بفضل جمالها.

تذكّرت أنها في البرازيل قرأت كتاباً يروي قصة راعٍ يبحث عن الكنز، وكان الحصول عليه مشروطاً بأن يواجه مصاعب وأخطاراً لا تُحصى. رأت أن هذه القصة تنطبق على حالتها: أدركت في هذه اللحظة أنها طردت من العمل لكي تذهب لمواجهة مصيرها الحقيقي، وهو يتمثّل في أن تصير عارضة أزياء.

استأجرت غرفة صغيرة (دون تلفزيون، لأن عليها أن تحدّ من الإنفاق ما دامت لا تجني مالاً). في اليوم التالي، عزمت على القيام بجولة على الوكالات التي تستخدم العارضات. أبلغوها في كل مكان أن عليها ان تُحضر صوراً لها ملتقطة لدى مصوّر محترف. وهذا، في أي حال، عنصر من العناصر الأساسية للمهنة، لأنَّ كل الأحلام باهظة الثمن. أنفقت قسماً كبيراً من مالها عند مصوّر

يمارس مهنته بامتياز، قليل الكلام ومتشدد في شروطه إلى أبعد الحدود، وكانت لديه خزانة ملابس هائلة في الاستوديو. أُخذت لماريا لقطات شتى، مرتدية الملابس المحتشمة أو الغريبة أو «البيكيني» (لو رأى الشخص الوحيد الذي تعرفه في ريو دي جانيرو أي مايلسون الحارس والمترجم ومدير الأعمال السابق، هذا «البيكيني»، لكان فخوراً بها حتى الموت). طلبت نسخاً إضافية من الصور وأرسلت بعضها إلى عائلتها ضمن رسالة تقول فيها إنها كانت سعيدة في سويسرا. سيعتقد أهلها أنها ثرية وأنها تمتلك خزانة ملابس تحلم بها كل امرأة ثريّة، وأنها أصبحت الفتاة الأشهر في مدينتها. وإذا سارت الأمور كما تشتهي (قرأت كتباً عدة عن «التفكير الإيجابي»، ولا يمكنها أن تشكّك في انتصارها)، فستكون هناك فرقة موسيقية في استقبالها لدى رجوعها إلى المدينة، وسيقوم رئيس البلدية بتدشين ساحة تحمل اسمها.

اشترت هاتفاً خلوياً وانتظرت طوال الأيام التالية أن يتصل بها أحدهم ليعرض عليها عملاً. كانت تتناول الطعام في مطاعم صينية (وهي الأقلّ كلفة) وتدرس مثل مجنونة لتزجية الوقت.

لكن الوقت لا يمر والهاتف لا يرن. تعجّبت من أن لا أحد يقترب منها حين تذهب للتنزه على ضفاف البحيرة، باستثناء تجّار المخدرات الذين يظلون في المكان نفسه، تحت أحد الجسور التي تؤدّي إلى المنتزه القديم بالمدينة الجديدة. أخذت تشكّك في جمالها وجاذبيتها، إلى أن صادفت في أحد المقاهي إحدى زميلاتها السابقات في العمل. قالت لها إن الخطأ ليس فيها بل في السويسريين الذين لا يحبّون إزعاج الآخرين، وفي الأجانب الذي يخشون أن يتم توقيفهم بتهمة «التحرش الجنسي». وهذا مفهوم تمَّ استنباطه لكي تشعر نساء العالم قاطبة أنهن مكروهات.

وفي إحدى الأمسيات حين فقدت ماريا الشجاعة على الخروج من المنزل وعاشت آملة بتلقّي مخابرة هاتفية لا تحدث، كتبت في يومياتها هذه العبارات:

«**اليوم**، مررت بالقرب من مدينة ألعاب. بما أنني لا أستطيع تجاوز الحدّ في إنفاق المال، ففضلت أن أراقب. بقيت طويلاً أمام الجبال الروسية[1]. رأيت أن معظم الناس يدخلون هذه المركبة سعياً وراء الانفعالات. لكن ما إن تسير الآلات حتى يصابوا بالهلع ويتوسّلوا كي تتوقّف.

فما الذي يريدونه؟ إذا كانوا قد اختاروا المغامرة أفلا يجدر بهم أن يكونوا مستعدين للذهاب حتى النهاية؟ أم إنهم يعتقدون أن من الحكمة ألا يمروا بمرتفعات ومنحدرات، وأن من الأفضل البقاء في مركبة تدور مكانها بشكل ثابت؟

في هذه اللحظة بالذات، أشعر بوحدة فظيعة، ولا يمكنني حيالها أن أفكر في الحب. لكن عليَّ الاقتناع بأن هذه المحنة لن تستمر، وأنني سأجد الوظيفة التي تناسبني، وأنني هنا لأنني اخترت أن أواجه قدري بنفسي. الجبال الروسية صورة عن حياتي، لأن الحياة لعبة عنيفة هاذية. الحياة هي أن ترمي بنفسك من مظلة وأن تجازف، أن تسقط وتنهض من كَبْوتك. الحياة هي أن تتسلّق الجبال لتحاكي الرغبة في تسلُّق قمّة النفس، وإن لم تتوصل إلى ذلك، فعليك أن تعيش قانعاً ذليلاً.

ليس أمراً سهلاً أن أكون بعيدة عن عائلتي، أن أتخلّى عن اللغة

---

(١) سلسلة مرتفعات ومنحدرات يتم صعودها بمركبة في مدينة الألعاب.

التي يمكنني أن أعبّر فيها عن جميع انفعالاتي ومشاعري. إلا أنني، ابتداء من اليوم، سأتذكّر مدينة الألعاب كلّما شعرت بالإحباط. لكن، ماذا لو نمت وأفقت فوجدت نفسي فجأة في «الجبال الروسية»، ماذا سيكون شعوري عندئذ؟

عندئذ، سأشعر أنني سجينة، فأخاف من المنحدرات وأرغب في التقيّؤ والنزول من المركبة. لكن، إذا كنت مقتنعة بأن السكك هي قدري وأن الله يدير الآلة، عندئذ سيتحوّل الكابوس إلى حالة من الإثارة، عندئذ لا تعود «الجبال الروسية» إلا ما هي عليه، أي مجرّد تسلية آمنة ويمكن الوثوق بها. وما دامت الرحلة مستمرة، يجدر بي أن أشاهد المنظر المحيط بي وأنا أزعق من شدة الحماس».

كانت ماريا قادرة فعلاً على تصوّر البدائل الممكنة والتعبير عنها بلغة الحكيم العاقل، لكن هذا لا يعني أنها تستطيع تطبيقها في الواقع. أخذت لحظات الإحباط بالازدياد وبقي الهاتف صامتاً. وأخذت ماريا تقضي أوقات فراغها في قراءة المجلات الشعبية لتزيد من قدرتها على استخدام اللغة الفرنسية في ساعات الفراغ. ثم أدركت أنها تنفق الكثير من المال، فقررت الذهاب إلى المكتبة الأقرب. أوضحت لها أمينة المكتبة أنهم لا يعيرون المجلات، لكن بإمكانها أن تقترح عليها عناوين كتب تساعدها على التمرّس باللغة الفرنسية بشكل أفضل.

ـ ليس لديّ الوقت لقراءة الكتب.

ـ ليس لديك الوقت؟ ماذا تفعلين؟

ـ أشياء كثيرة: أتعلّم الفرنسية وأكتب يومياتي و...

ـ وماذا؟

كانت ستقول: «أنتظر أن يرن الهاتف»، لكنها آثرت الصمت.

ـ يا بنيتي: أنت شابة، والحياة أمامك. اقرأي. انسي كل ما يقال لك عن الكتب واقرأي.

ـ قرأت كثيراً.

وفجأة، تذكّرت ماريا ما قاله لها مايلسون يوماً عن «الطاقات الكامنة»، وبدت لها أمينة المكتبة شخصاً حساساً ولطيفاً وقادراً على مساعدتها في حال أخفقت مساعيها. أنبأها حدسها أنها تستطيع

أن تتخذها صديقة لها، وأن عليها العمل لكسب صداقتها.

أضافت ماريا:

ـ لكني أريد أن أقرأ بعد، ساعديني لو سمحت في اختيار الكتب المناسبة.

أحضرت لها المرأة كتاب «الأمير الصغير». تصفّحته ماريا في المساء. تأمّلت في البداية الرسوم التي تمثّل قبعة. كان الكاتب يقول إن هذه القبعة يرى فيها الأطفال أفعى التهمت فيلاً. فكرت ماريا: «لم أكن يوماً طفلة. أرى أن هذا الرسم يشبه فعلاً قبعة». بما أنها لا تملك جهاز تلفزيون في غرفتها، فقد كانت ترافق الأمير الصغير في تجوّله، لكنها تشعر بالحزن كلّما تطرّق الكتاب إلى موضوع الحب. كانت قد حظّرت على نفسها التفكير في الحب، لئلاّ تعرّض نفسها للانتحار. ما خلا المشاهد الرومنطيقية الأليمة بين الأمير والثعلب والوردة، كان الكتاب أخّاذاً. واستطاعت أن تشغل نفسها عن مراقبة شاحن الهاتف الخلويّ، التي كانت من خلالها شديدة الحرص ألا تضيع منها أي فرصة سانحة بسبب إهمالها.

أخذت ماريا تتردّد إلى المكتبة، وتتحدث إلى أمينة المكتبة التي بدت لها وحيدة جداً. كانت تلتمس رأيها وتتناقش معها في أمور الحياة والأدب. وجاء اليوم الذي بدا فيه التعويض المالي الذي كسبته ينفد: بعد أسبوعين لن يكون لديها المال لتشتري تذكرة العودة.

لكن، بما أن الحياة تنتظر دوماً تأزم الأوضاع لكي تُظهر براعتها، فقد رنّ الهاتف أخيراً.

مرّت ثلاثة أشهر على اكتشافها كلمة «محام» وشهران على إنفاقها من التعويض الذي تلقّته مقابل طردها من العمل. بعد انقضاء هذه المدة ها هي تتلقّى اتصالاً من الوكالة التي تستخدم العارضات. سُئلت إذا كانت الآنسة ماريا لا تزال موجودة على هذا الرقم. وكان جوابها «نعم» باردة، سبق أن تمرّنت عليها لئلاّ يلمس السائل في صوتها أي لهفة. علمت أن مسؤولاً عربياً كبيراً عن

الأزياء والموضة في بلاده، قد أحبّ صورها كثيراً، ويرغب في دعوتها للمشاركة في عرض ينوي القيام به. تذكّرت ماريا خيبتها الحديثة العهد مع الفتى العربي الآخر، لكنها فكّرت أيضاً بالمال الذي كانت بأمسّ الحاجة إليه. وجرى تحديد الموعد في أحد المطاعم الفخمة. وجدت ماريا رجلاً أنيقاً بانتظارها، أكثر جاذبية ونضجاً من رفيقها السابق.

سألها: «هل تعرفين من رسم هذه اللوحة؟ إنه خوان ميرو. هل تعرفين من هو خوان ميرو؟».

بقيت ماريا صامتة، وكأنها تركّز اهتمامها فقط على الطعام الذي تتناوله وكان مختلفاً تماماً عمّا تتناوله في المطاعم الصينية. لكنها سجّلت الملاحظة في ذهنها: في الزيارة المقبلة للمكتبة، عليها أن تستعلم عن خوان ميرو.

ثم قال العربي بإصرار: «هذه الطاولة هناك، هي المفضّلة لدى فيديريكو فيلليني. ما رأيك بأفلام فيلليني؟».

أجابت أنها تعبد أفلامه. أراد العربي الدخول في التفاصيل. وإذ أدركت ماريا أن ثقافتها السينمائية لن تيسّر لها الفوز في الامتحان، قرّرت الذهاب إلى صلب الموضوع وقالت: «لا أريد أن أغش. كل ما أعرفه هو الفرق بين الكوكا كولا والبيبسي. والآن ألا تريد أن تتكلم عن عرض الأزياء؟».

ولّدت صراحة الفتاة انطباعاً جيداً لديه:

ـ نتحدّث في الموضوع حين نذهب، بعد انتهاء العشاء، لتناول كأس.

توقّفا عن الكلام، وطفقا يتبادلان النظرات، ويحاول كلّ منهما أن يستكشف أفكار الآخر.

كرّر العربي قائلاً: «أنت جميلة جداً. إذا وافقت على احتساء كأساً معي في الفندق الذي أنزل فيه، فسأعطيك ألف فرنك».

فهمت ماريا على الفور ما يجري. هل كانت هذه غلطة الوكالة التي تستخدم العارضات؟ هل كانت غلطتها هي وكان يجدر بها أن تستعلم أكثر عن موضوع العشاء؟ لا، لم تكن هذه غلطة الوكالة ولا غلطتها ولا غلطة العربي: هكذا تسير الأمور، بكل بساطة. وفجأة أحست أنها بحاجة إلى «السرتا» والبرازيل وذراعي والدتها. تذكّرت مايلسون على الشاطىء وهو يحدّد لها التسعيرة التي تبلغ ثلاثمئة دولار. حينذاك وجدت المبلغ مُغرياً، لا بل أكبر بكثير مما كانت تتوقّعه مقابل قضاء ليلة مع رجل. لكنها أدركت في هذه اللحظة أنها لا تملك أحداً في العالم يمكنها التحدّث إليه. كانت وحيدة في مدينة غريبة وخلفها اثنتان وعشرون سنة عاشتها كما يحلو لها، لكنها مع ذلك لم تكن لتعينها على اختيار الجواب الأفضل.

ـ اسكب لي مزيداً من الخمر لو سمحت.

صبَّ لها العربي الخمر فيما كانت أفكارها تتنقل بسرعة تفوق تنقّل الأمير الصغير بين الكواكب. تذكّرت أنها أتت إلى هنا بحثاً عن المغامرة والمال وعن زوج. كانت تعرف أنها ستتلقّى عروضاً مماثلة. لم تكن بريئة، لا بل كانت معتادة تصرفات الرجال. لكن الوكالات التي تستخدم العارضات والنجاح والزوج الثري والعائلة والأولاد والأحفاد والملابس والعودة الظافرة إلى بلادها الأم... كل ذلك، كانت لا تزال مؤمنة به، ولا تزال تحلم بتخطّي كل المصاعب بفضل ذكائها وسحرها وقوة إرادتها.

واجهها الواقع الأليم لينهال على رأسها كالطود. أجهشت بالبكاء وذُهش العربي لذلك. لم يعرف ماذا عليه أن يفعل لأنه كان خائفاً من الفضيحة ومدفوعاً بغريزة ذكورية لحمايتها في آن. أشار إلى الخادم كي يحضر الحساب بسرعة. لكن ماريا منعته قائلة: «لا تفعل. اسكب لي الخمر بعد، ودعني أبكي قليلاً».

فكّرت ماريا بالصبي الذي سألها قلماً، وبالفتى الذي قبّلها دون

أن تفتح فمها وبفرحة اكتشافها لريو دي جانيرو، وبالرجال الذين استغلوها دون أن يعطوا شيئاً بالمقابل، وبالشغف والحب اللذين فقدتهما أثناء مسيرتها. وبالرغم من الحرية الظاهرة، فإنها رأت أن أيام حياتها تتوالى إلى ما لا نهاية في انتظار المعجزة وبلوغ الحب الحقيقي والمغامرة التي تنتهي بشكل رومنطيقي كتلك التي شاهدت مثلها في السينما أو قرأت عنها في الكتب. تذكّرت ما قاله أحد الأدباء عن أن الوقت لا يغير الإنسان ولا الحكمة أيضاً، بل إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يدفع بالكائن ليتغيّر هو الحب. يا للبلاهة. يبدو أن هذا الكاتب لا يكشف إلا وجهاً واحداً من الميدالية.

لا شكّ أن الحب قادر على تغيير كل شيء في حياة الإنسان خلال فترة زمنية قصيرة. لكن، وهذا هو الوجه الآخر للميدالية، هناك شعور آخر يمكن أن يقود الكائن البشري إلى معارج مختلفة تماماً عن تلك التي كان يسعى إليها، وهي اليأس. أجل، ربما كان الحب قادراً على تغيير حياة الإنسان، لكن اليأس قادر أيضاً على فعل ذلك وبسرعة أكبر. هل عليها أن تغادر مهرولة من المطعم وترجع إلى البرازيل لتصبح أستاذة تعلّم اللغة الفرنسية وتقترن برب عملها السابق؟ أم عليها الذهاب أبعد قليلاً في مساعيها. لا شيء يُذكر، مجرّد ليلة في مدينة لا تعرف فيها أحداً ولا أحد يعرفها. هل ستدفعها ليلة واحدة، ومال يسهل الحصول عليه، للذهاب أبعد ممّا تصوّرت، إلى نقطة اللاعودة؟ ما الذي كان يدور في هذه اللحظة؟ هل أمامها فرصة غير منتظرة أم اختبار تُخضِعها له العذراء مريم؟

جال العربي بنظره متفحّصاً لوحة خوان ميرو، والمقعد حيث تناول فيلليني العشاء، والموظّفة المسؤولة عن حجرة الثياب، والزبائن الذين يدخلون ويخرجون.

ــ ألم تكوني على علم بالموضوع؟

ـ أسكب لي الخمر بعد، لو سمحت. كانت هذه هي الإجابة الوحيدة لماريا الدامعة.

كانت تصلّي لئلاّ يقترب الخادم ويعرف ماذا يجري. وكان الخادم، الذي يراقب المشهد بطرف عينيه، يودّ لو يسدّد الرجل حسابه بسرعة، لأن المطعم مزدحم والزبائن ينتظرون.

وأخيراً، وبعد مضي وقت بدا لها دهراً تكلّمت ماريا:

ـ قلت أنك ستدفع ألف فرنك لقاء كأس؟

تعجّبت هي من نفسها عندما سمعت صوتها.

أجاب العربي:

ـ نعم.

كان نادماً على تقديمه هذا الاقتراح. ثم أضاف: «لكني لا أريد بأي شكل من الاشكال أن...».

ـ سدّد الحساب بسرعة، ولنذهب لتناول تلك الكأس في الفندق الذي تنزل فيه.

من جديد، شعرت أن تصرّفها غريب عنها. حتى هذه اللحظة، كانت فتاة شابة، لطيفة، مهذبة، سعيدة، ولم يسبق لها أن استخدمت هذه اللهجة مع أجنبي. يبدو أن هذه الفتاة الشابة قد ماتت إلى الأبد، وأن حياة جديدة تُشرع أمامها، يبلغ ثمن الكؤوس فيها ألف فرنك فرنسي للكأس الواحدة، أي ما يعادل ٦٠٠ دولار، إذا أردنا تحويلها إلى العملة الأكثر تداولاً في العالم.

حصل كل شيء كما كان متوقّعاً: ذهبت ماريا إلى الفندق برفقة العربي. احتست الشمبانيا حتى بلغت مرحلة السُّكر الكامل. أفرجت ساقيها منتظرة أن يحصل على نشوته الجنسية (لم تفكر في أن تصطنع نشوتها هي أيضاً)، ثم اغتسلت في غرفة الحمام الرخامية، تقاضت أجرها ويسّرت لنفسها العودة إلى غرفتها بسيارة التاكسي.

ارتمت على سريرها واسترسلت في نوم لا أحلام فيه.

وهذا ما دونته ماريا في يومياتها في اليوم التالي:

«أذكر كل شيء إلا اللحظة التي اتّخذت فيها قراري. الغريب في الموضوع هو أنه لم يساورني أي شعور بالذنب. كنت، فيما مضى، أنظر إلى الفتيات اللواتي يضاجعن الرجل مقابل مبلغ يتقاضينه، وكأنهن كائنات لم تترك لهن الحياة أي خيار آخر. أما الآن فأدرك أن هذا ليس صحيحاً. كان بإمكاني أن أقول «نعم» أو «لا». ولم يجبرني أحد على القيام بما كنت لا أرغب فيه.

أجتاز الشوارع وحيدة، أنظر إلى العابرين وأفكّر: هل اختاروا حياتهم بأنفسهم أم أن القدر هو الذي اختارها لهم. أرى عاملة التنظيف التي كانت تحلم بأن تصير عارضة، وموظف المصرف الذي حلم بأن يصبح موسيقياً، وطبيب الأسنان الذي ودّ لو يكرّس حياته للأدب، والفتاة التي كانت تهيم بالعمل في التلفزيون لكنها لم تستطع أن تحصل إلا على وظيفة محاسبة في أحد المخازن الكبرى.

لا أشفق على نفسي ولا أعتبر نفسي ضحية. كان بإمكاني الخروج من المطعم دون أن تمس كرامتي، وبمحفظة نقود فارغة. كان بإمكاني أن ألقّن هذا الرجل درساً في الأخلاق، وأن أسعى لأبرهن له أنه في حضرة أميرة، وأنه يجدر به أن يأسر قلبها بدل أن يشتريها. كان بإمكاني أن أتصرف بأشكال لا تُحصى. لكني، كمعظم الكائنات البشرية، تركت للقدر أن يختار لي الطريق التي ينبغي لي أن أسلكها.

لا شك في أن قدري يمكن أن يبدو لا شرعياً وهامشياً أكثر من أقدار الآخرين. لكن كلنا متساوون في سعينا وراء السعادة: الموظف/الموسيقي، طبيب الأسنان/الأديب، المحاسبة/الممثلة، عاملة التنظيف/العارضة... كلنا متساوون لأن ليس أحد منا سعيداً.

هل هنا كل شيء؟ هل تجري الأمور بهذه السهولة؟ كانت ماريا في مدينة غريبة لا تعرف فيها أحداً. ما بدا لها بالأمس عذاباً منحها اليوم شعوراً عارماً بالحرية: ليست بحاجة لأن تعطي تفسيرات لأيّ يكن.

قررت، وللمرة الأولى منذ سنوات، أن تكرّس يوماً كاملاً للمثول أمام ذاتها. حتى هذه اللحظة، كانت على الدوام تهتمّ بالآخرين: بأمها ورفاق المدرسة وأبيها والموظفين في الوكالة التي تستخدم العارضات وأستاذ اللغة الفرنسية وخادم المطعم وأمينة المكتبة، وبما يفكر فيه المجهولون العابرون في الشارع. والواقع أن لا أحد كان يهتم بها هي الغريبة المسكينة. حتى الشرطة لن تلاحظ غيابها فيما لو اختفت غداً.

هذا يكفي. خرجت في وقت مبكر. تناولت فطورها في المكان المعتاد، وتنزّهت قليلاً حول البحيرة، لتجد نفسها في مواجهة تظاهرة ينظّمها ناس في المنفى القسريّ. قالت لها امرأة تجر كلباً إن المتظاهرين أكراد. فسألتها ماريا، ولم تكن تريد أن تدّعي ذكاء وثقافة لم تكن تملكهما: «من هم الأكراد؟».

ذهشت المرأة لسؤالها ولم تعرف بماذا تجيب. يا للعجب، يتكلّم الناس كما لو أنهم يعرفون كل شيء. لكن إذا تجرأت وسألتَهم، فإنك تدرك أنهم لا يعرفون شيئاً. دخلت ماريا مقهى يوفّر لروّاده كافة الاتصالات، وعرفت عبر الأنترنت أن الأكراد شعب لا يملك

دولة، وأن بلادهم كردستان تتقاسمها اليوم تركيا والعراق. رجعت إلى مكان التظاهرة لعلَّها تجد المرأة صاحبة الكلب الصغير، لكنها غادرت المكان.

«هذا ما أنا عليه، أو بالأحرى هذا ما كنته: شخصاً يتظاهر بأنه يعرف كل شيء، محتبس داخل صمته، ثمّ أتى هذا العربي الذي أغاظني لدرجة أنني امتلكت الشجاعة للقول إن كل ما أعرفه هو الفرق بين الكوكا كولا والبيبسي. فهل صُدم بجوابي؟ هل جعله هذا يغيّر رأيه حيالي؟ إطلاقاً. ربَّما كانت عفويتي قد أعجبته. كنت دائماً خاسرة حين أردت أن أبدو أدهى أو أذكى مما أنا عليه. يكفي إذاً».

تذكّرت المخابرة التي أجرتها معها الوكالة التي تستخدم العارضات. هل كانوا على علمٍ بما يريده العربي؟ ـ إذا كان الأمر صحيحاً ففي هذه الحالة تكون ماريا قد أدّت دور المرأة البريئة المغفّلة ـ أم أنهم كانوا يظنون فعلاً أن العربي يستطيع أن يدعوها للمشاركة في أحد العروض التي ستقام في الجزيرة العربية؟

أياً يكن الأمر، فقد شعرت ماريا أنها أقلّ وحدة في هذه الصبيحة الرمادية في جنيف. كانت الحرارة قريبة من درجة الصفر، والأكراد يتظاهرون وحافلات الترام تصل في الوقت المحدد، والمجوهرات يُعاد رصفها في الواجهات، والمصارف تفتح أبوابها، والمتسوّلون ينامون، والسويسريون يذهبون إلى أعمالهم. كانت تشعر أنها أقلّ وحدة، لأن امرأة غير مرئية من قِبَل العابرين كانت تقف قربها. لم تنتبه ماريا قط إلى وجودها لكنها كانت هنا.

ابتسمت لها ماريا. كانت المرأة تشبه العذراء مريم أم يسوع. بادلتها المرأة الابتسامة وتوسلت إليها أن تظل متيقظة لأن الأمور ليست بالسهولة التي تظنّها. لم تولِ ماريا أهمية لهذه النصيحة، وأجابتها بأنها امرأة ناضجة وتتحمل مسؤولية خياراتها، وبأنها لا تؤمن أن هناك مؤامرة كونية تحاك ضدها. تعلمت أن هناك ناساً

مستعدين لدفع مبلغ ألف فرنك سويسريّ مقابل سهرة معها أو نصف ساعة بين ساقيها، وأن عليها ببساطة أن تقرّر إذا كانت تريد في الأيام المقبلة أن تشتري بهذا المبلغ تذكرة طائرة وتعود إلى ديارها أم أنها تنوي البقاء في جنيف لوقت أطول، يتيح لها أن تجني مالاً تستطيع أن تشتري به مسكناً لأهلها وملابس جميلة وتذاكر للسفر إلى الأماكن التي حلمت بزيارتها في العالم.

قالت لها المرأة غير المرئية بإصرار إن الأشياء ليست بالسهولة التي نتصوّرها. لكن ماريا كانت مسرورة بهذه الصحبة غير المتوقّعة، ورجت المرأة ألا تقطع عليها حبل أفكارها لأنها كانت على وشك اتخاذ قرارات مهمة.

أخذت ماريا تتفحّص المسائل من جديد، وهذه المرة بانتباه أكبر، ولاسيما مسألة رجوعها إلى البرازيل. فكّرت أن صديقات المدرسة اللواتي لم يخرجن قط من البرازيل لن يتوانين عن القول إنها طُردت من سويسرا لأنها لا تملك الموهبة الضرورية التي تجعل منها نجمة عالمية. أما أمها، فستكون حزينة لأنها لم تحصل على الإيراد الذي وُعدت به، حتى لو أكّدت لها ماريا في الرسائل أن الموظفين في البريد يختلسن الأموال التي ترسلها. وسينظر إليها والدها طوال الوقت بهذه السحنة التي تقول: «كنت عارفاً»، وستعود لتعمل في محل النسيج وتقترن برب العمل... كل ذلك بعد أن سافرت في الطائرة وتناولت الجبنة في سويسرا وتعلّمت اللغة الفرنسية ومشت على الثلج.

هذا من جهة.

من جهة أخرى، هناك الكؤوس التي يساوي كلّ منها ألف فرنك. صحيح أن هذا لن يدوم طويلاً، لأن الجمال يتبدّل بسرعة كما تذبل الورود. ولكن، في ظرف سنة، ستكسب من المال ما يمكّنها من التحكّم بقوانين اللعبة. بَيْد أن المشكلة الحقيقة التي تواجهها هي أنها لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، ولا من أين تبدأ. ثمّ

تذكرت، أثناء عملها كراقصة سامبا، أن إحدى الفتيات أشارت إلى مكان يدعى شارع برن.

ذهبت ماريا لاستشارة إحدى صحائف الإعلانات التي تحفل بها جنيف، وتتضمن إعلانات من جهة وخرائط المدينة من جهة أخرى.

سألت أحد الرجال الواقفين هناك إن كان يعرف أين يوجد شارع برن. نظر إليها مرتبكاً، وأراد أن يعرف إذا كانت تسأل عن شارع برن أم عن الطريق الذي تؤدي إلى برن عاصمة سويسرا. أجابت ماريا: «لا، أبحث عن شارع موجود هناك». تفحصها الرجل من رأسها حتى أخمص قدميها، وابتعد دون أن يقول شيئاً، وهو على اقتناع بأن هناك كاميرا خفية تلتقط صورة له لحساب أحد البرامج التلفزيونية التي تتعمد إثارة المقالب المضحكة. مثلت ماريا أمام الخريطة مدة ربع ساعة، لم تكن المدينة كبيرة؛ وعثرت أخيراً على المكان.

احتفظت صديقتها غير المرئية بالصمت طوال الوقت الذي استغرقته ماريا، لتحصر تركيزها وتجد الشارع على خارطة المدينة. حاولت المرأة أن تدخل معها في جدال. قالت لها إن المسألة لا تتعلق بالأخلاق، وبأنها تزج نفسها في طريق لا منفذ لها. أجابتها ماريا أنها إذا كانت قادرة عل إيجاد المال لتغادر سويسرا، فسيكون بمقدورها إذن أن تتخلص من جميع الورطات، وتجد المخرج الملائم. ثم إن أياً من هؤلاء الذين صادفتهم في حياتها لم يحقق ما كان يصبو إليه. هذه هي الحقيقة.

ثم أضافت قائلة إلى الصديقة اللامرئية: «نحن في وادٍ من الدموع. يمكننا أن نحلم بأشياء عديدة، لكن الحياة قاسية لا ترحم، وهي مخزية. هل تريدين أن تقولي لي إنني سأدان؟ لا أحد يعرف، وهذا لن يدوم إلا وقتاً قصيراً».

اختفت المرأة، وعلى شفتيها ابتسامة عذبة لكن حزينة.

مشت ماريا إلى مدينة الألعاب، واشترت بطاقة لتدخل مركبة

الجبال الروسية، وتزعق كما يفعل الجميع، مع أنها تدرك تماماً أن ليس هناك مخاطر، وأن الأمر مجزد تسلية. ثمّ تناولت الغذاء في مطعم ياباني دون أن تعرف ما كانت تتناوله. عرفت فقط أن الفاتورة كانت مرتفعة، وأنها مستعدة من الآن فصاعداً أن تتيح لنفسها كل أنواع الترف. شعرت أنها سعيدة ولا تحتاج إلى مخابرة هاتفية، ولا إلى اتّباع أسلوب التقشف في إنفاق المال.

عند انتهاء النهار، خابرت الوكالة. وقالت إن اللقاء جرى بشكل جيد للغاية، وأنهت المخابرة بتوجيه عبارات الشكر. لو كانوا ناساً جديين لسألوها بخصوص العرض. وإذا كانوا يصطادون النساء، فسيدبرون من أجلها لقاءات جديدة.

اتّخذت قراراً بألا تشتري تلفزيوناً مطلقاً، ولو كانت تملك المال اللازم لذلك، لأنّ عليها أن تفكّر وتستغل كل وقتها في التفكير.

وهذا ما دوّنته ماريا في يومياتها ذاك المساء (مع ملاحظة دوّنتها في الهامش: «لست مقتنعة تماماً»:

«اكتشفت السبب الذي يجعل الرجل يدفع مبلغاً من المال لكي يكون برفقة امرأة: يريد أن يكون سعيداً.

لا يدفع الرجل ألف فرنك ليحصل فقط على النشوة الجنسية، بل لأنه يريد أن يكون سعيداً. أنا أيضاً أريد أن أكون سعيدة، والجميع يريدون ذلك، لكن لا أحد يبلغ السعادة.

ماذا سأخسر إذا قررت أن أتحوّل لبعض الوقت إلى ... يصعب التفكير في هذه الكلمة وكتابتها أيضاً... لكن هيا... ماذا سأخسر إذا قررت يوماً أن أصير عاهرة لبعض الوقت؟

ما الذي يمنعني: الشرف، الكرامة أم احترام الذات؟ لو فكّرت في هذه الفضائل جيداً لوجدت أنني لم أمتلكها قط في حياتي. لم أشأ أن أولد، ولم أوفّق في أن أجعل نفسي محبوبة، واتّخذت دوماً القرارات السيئة. أترك الآن للأقدار أن تقرّر مصيري».

في اليوم التالي، اتصل بها أحدهم من الوكالة مجدّداً وسألها بخصوص الصورة ثم تحزى عن موعد العرض، لأن هناك مبلغاً يجب اقتطاعه للوكالة مقابل كل عرض. أجابت ماريا أنه يُفترض بالعربي أن يتّصل بهم. استنتجت فوراً أنهم لم يكونوا على علم بما جرى.

ذهبت إلى المكتبة وطلبت كتباً عن الجنس. إذا كانت عازمة جدياً على العمل، لسنة فقط كما تعهّدت لنفسها، في ميدان تجهله، فينبغي لها أن تعرف أن أول شيء يجب تعلمه هو كيفية التصرّف: كيف يمكنها أن تمنح اللذة لتحصل على المال مقابل ذلك.

كانت خيبتها كبيرة عندما قالت لها أمينة المكتبة أن الكتب التقنية التي تعالج هذا الموضوع نادرة، لأن المكتبة مؤسسة عامة. أخذت ماريا أحد الكتب، قرأت ملخّصاً عنه، ثم أعادته فوراً: كان الكتاب يتحدّث فقط عن الانتصاب والإيلاج والعجز ووسائل منع الحمل وجميع الأشياء التي تنم عن ذوق سيّىء. ثم اختارت كتاباً لتستعيره: «تأملات سيكولوجية في برودة المرأة الجنسية». وسبب اختيارها أنها لم تكن تستطيع الوصول إلى النشوة الجنسية إلا عبر الاستمناء، رغم أنها كانت تجد لذّة كبرى في أن يمتلكها رجل ويلجها.

بَيْدَ أنها لم تكن تبحث عن اللذة، بل عن العمل. استأذنت أمينة المكتبة بالانصراف، ودخلت محلاً لبيع الملابس الداخلية.

استثمرت أول مبلغ لها في المهنة التي تلوح أمامها في الأفق، واشترت ملابس اعتبرتها مثيرة بما فيه الكفاية لتوقظ جميع أنواع الرغبات. ثم ذهبت إلى المكان الذي عينته على الخارطة. يبدأ شارع برن بالقرب من الكنيسة (لم يكن بعيداً، يا للمصادفة، عن المطعم الياباني الذي تناولت فيه الغداء البارحة). وهو، من جهة، ملاصق للواجهات التي تعرض ساعات بأسعار متدنية؛ ومن جهة أخرى، ملاصق للحانات الليلية، وجميعها مغلقة في هذا الوقت من النهار. رجعت لتتنزه حول البحيرة، واشترت، بلا أي انزعاج، خمس مجلات بورنوغرافية، لكي تزيد معلوماتها. وانتظرت أن يهبط الليل لتتوجه من جديد إلى شارع برن. وهناك نزلت مصادفة في حانة اختارت لنفسها اسماً برازيلياً موحياً: «كوباكابانا».

فكّرت في أنها لم تتخذ قرارها بعد. كان الأمر فقط امتحاناً. لكن لم يسبق لها أن شعرت بأنها حرّة ومرتاحة كما تشعر الآن، منذ وصولها إلى سويسرا.

قال لها صاحب الحانة الذي كان يغسل الأكواب وراء طاولة الشرب دون أن يستعمل أي نبرة تساؤلية في جملته: «تبحثين عن عمل». كان المكان عبارة عن سلسلة من الطاولات المتتابعة وحلبة رقص وبعض المقاعد المريحة المسندة إلى الجدران. «ليس الأمر سهلاً. نحن نحترم القانون. ولكي تقيمي هنا، يجب الحصول على بطاقة عمل على الأقل».

أظهرت ماريا بطاقة عملها.

قال صاحب الحانة وقد تحسّن مزاجه بوضوح:

ـ لديك خبرة؟

لم تعرف بماذا تجيب. لو قالت «نعم» لسألها أين اكتسبتها، ولو قالت «لا»، لرفض أن يدبّر لها عملاً.

ـ أعمل على كتاب.

خرجت الفكرة من العدم، وكأن صوتاً لا مرئياً أتى لنجدتها. لاحظت أن الرجل تظاهر بتصديقها، مع أنه كان يعلم أنها تكذب.

ـ قبل أن تتخذي أي قرار، استخبري عن الموضوع لدى الفتيات. لدينا على الأقل ست برازيليات، وبإمكانهن أن يوضحن لك ما ينتظرك.

أرادت ماريا أن تقول إنها لا تحتاج إلى نصائح أحد، وأنها لم تتخذ أي قرار. لكن الرجل كان قد انتقل إلى الجهة الأخرى من الملهى، وتركها وحيدة دون أن يقدم إليها حتى كوب ماء.

وصلت الفتيات. نادى صاحب الحانة على البرازيليات، وطلب إليهن أن يتحدثن إلى الوافدة الجديدة. لم تُبدِ واحدة منهن استعدادها للطاعة، وأدركت ماريا أنهن يخشين المنافسة. بدأت الموسيقى تعزف في الحانة مرددة بعض الأغاني البرازيلية (هذا أمر طبيعي لأن المكان يدعى «كوباكابانا»). ثم دخلت فتيات ذوات ملامح آسيوية، وأخريات بدون وكأنهن نازلات من الجبال المثلجة المحيطة بجنيف. وأخيراً، وبعد ساعتين من الانتظار والعطش الشديد وتراكم أعقاب السجائر أمامها، أدركت ماريا أنها قامت بالاختيار السيئ فكان السؤال «ماذا أفعل هنا؟» يتردد وكأنه لازمة. بعد أن اغتاظت ماريا من عدم الاكتراث الذي أظهره حيالها رب العمل والفتيات، رأت إحدى البرازيليات تقترب منها وتسألها: «لماذا اخترت هذا المكان؟».

كانت تستطيع أن تتذرع من جديد بالكتاب الذي تعمل عليه، لكنها آثرت أن تقول الحقيقة، كما فعلت عندما سئلت عن الأكراد وخوان ميرو:

ـ بسبب اسمه. لا أعرف أين أبدأ، ولا أعرف إن كنت راغبة في أن أبدأ.

عجبت الفتاة لهذا الكلام الصريح والمباشر. احتست جرعة ويسكي متظاهرة بالاستماع إلى الأغنية البرازيلية التي كانت تبث

في الحانة. ثم قامت ببعض التعليقات عن سأم العيش في هذه البلاد، وتنبأت أن الحركة ستكون خفيفة هذا المساء، لأنه تمّ إلغاء مؤتمر عالمي كان سيقام في جنيف. وعندما لاحظت أخيراً أن ماريا لا ترغب في الرحيل قالت لها: «الأمر بسيط جداً وعليك أن تحترمي ثلاث قواعد: القاعدة الأولى: لا تقعي في غرام أحد الزبائن. القاعدة الثانية: لا تصدّقي الوعود واطلبي سلفاً المبلغ المتوجب دفعه. القاعدة الثالثة: لا تتعاطي المخدرات». ثم أضافت: «ابدأي العمل فوراً. إذا رجعت هذا المساء إلى المنزل دون أن تتدبري أمرك بالحصول على رجل، فلن تكون لديك الشجاعة للرجوع إلى هنا».

كانت ماريا قد أعدّت النفس لاستشارة بسيطة بخصوص عمل مؤقت ومحتمل، ليس أكثر. لكنها تدرك الآن أن هناك شعوراً يدفعها لاتخاذ قرار فجائي وحاسم، وهو اليأس.

ـ حسناً، أباشر اليوم بالعمل.

لم تعترف أنها بدأت البارحة. ذهبت الفتاة لتحدّث صاحب الحانة بما جرى مع الزائرة الجديدة:

سأل صاحب العمل ماريا:

ـ هل لديك ثياب داخلية جميلة؟

لم يسبق لأحد أن وجّه إليها هذا السؤال، لا عشاقها ولا العربي ولا صديقاتها ولا حتى أي أجنبي. لكن يبدو أن الأمور تجري في هذا المكان على هذا النحو، ويتم الدخول مباشرة في صلب الموضوع.

أجابت على سبيل التحدي:

ـ لدي سروال لونه أزرق سماوي وليس لديّ صُدارة.

فردّ عليها بلهجة يشوبها اللوم والعتاب:

ـ ارتدي غداً سروالاً أسود وصدارة وجوارب. استغلي سحر الثياب الداخلية إلى أقصى درجة. هذا يشكّل جزءاً من طقوس المهنة.

لم يشأ ميلان تضييع الوقت، وأراد أن يعلم الموظّفة المبتدئة باقي

الطقوس أيضاً. يجب أن تكون «كوباكابانا» مكاناً مسلياً وليس ماخوراً. يدخل الرجال إلى هنا لاعتقادهم أنهم سيلتقون امرأة ليست في صحبة رجل. إذا اقترب أحد من طاولتها ولم يعترضه أحد في الطريق (لأنه هنا أيضاً يوجد مفهوم «الزبون الحصري» لبعض الفتيات) فإنه سيدعوها، ولا شك، مردداً العبارة التالية: هل تريدين أن تشربي معي كأساً؟

عندئذٍ، يمكن لماريا أن تقابله بالرفض أو بالإيجاب، لأنها حرة في أن تستجيب لمن تريد، مع أنها لا تُنصح بأن تقول: لا، أكثر من مرة في السهرة. إذا وافقت، فبإمكانها أن تطلب كوكتيل فواكه. يجب أن تحتسي الكحول وألاّ تدع الزبون يقرّر بدلاً منها، ثم يدعوها إلى الرقص فتوافق. معظم الزبائن معتادون الأمر باستثناء «الزبائن الحصريين» الذين لم يتوسع ميلان في حديثه عنهم. ليس هناك أي خطر. الشرطة ووزارة الصحة تطلبان فحوصاً شهرية للدم وبشكل دوري للتأكد من أن الفتيات لا يحملن أمراضاً جنسية معدية. كما أن استعمال الواقي الذكري إجباري، رغم عدم وجود وسيلة للتأكد إذا كانت هذه القاعدة متّبعة أم لا. يجب على الفتيات ألا يثرن الفضائح. لقد كان ميلان متزوجاً ورب عائلة وحريصاً على سمعته وسمعة «كوباكابانا».

ثم تابع يشرح لها بعض الطقوس المتبعة: بعد الرقص، يذهبان للجلوس ويدعوها الزبون، وكأن اقتراحه مفاجىء، للذهاب معه إلى أحد الفنادق. التعرفة العادية تبلغ ٣٥٠ فرنكاً، ويحتسب منها ميلان ٥٠ فرنكاً لنفسه ثمن أجرة الطاولة (وهذه الخدعة يستخدمها ميلان احتيالاً على القانون ليتحاشى المسؤولية المباشرة عن التعقيدات القانونية ولكي لا يُتّهم باستغلال الجنس بهدف الربح). حاولت ماريا الاعتراض قائلة: «لكني كسبت ألف فرنك مقابل...». أشار إليها ميلان بالابتعاد وإنهاء الحديث عند هذا الحد. تدخّلت البرازيلية التي كانت تتابع الحوار قائلة: «إنها تمزح».

ثم اتجهت ناحية ماريا وأضافت بصوت عالٍ وبلهجة برتغالية طليقة: ،هذا المكان هو الأغلى في جنيف (هنا المدينة تدعى جنيف وليس جنبرا). لا تكزري هذا الكلام. هو يعرف سعر السوق، ويعرف أن أحداً لا يضاجع مقابل ألف فرنك، إلا إذا كان لديك الحظ والجدارة وقابلْت ،زبائن غير عاديين،.

لم تترك نظرة ميلان أي مكان للشك (عرفت ماريا لاحقاً أنه يوغوسلافي ويعيش في سويسرا منذ ٢٠ عاماً).

ـــ التعرفة هي ٣٥٠ فرنكاً.

كررت ماريا وقد شعرت بالإهانة:

ـ أجل، هذه هي التعرفة.

في بادىء الأمر، سألها عن لون ملابسها الداخلية. والآن يساومها على ثمن جسدها.

لكنها لا تملك الوقت الكافي للتفكير. تابع الرجل عندئذٍ إصدار تعليماته: لا يجدر بها الذهاب إلى أملاك خاصة أو إلى فنادق أقلَ من خمس نجوم.

أما إذا كان الزبون لا يعرف مكاناً يصطحبها إليه، فعليها هي أن تختار والحالة هذه فندقاً بعيداً عن الحانات المجاورة للمكان، وأن تستقل التاكسي لكي تتجنب مخالطة نساء أخريات يعملن في مؤسسات أخرى في شارع برن. لم تصدّق ماريا حرفاً مما قاله. أدركت أن السبب الحقيقي لمحاولته إبعادها عن مخالطة نساء الحانات الأخرى هو أن يفوّت عليها فرصة عمل في ظروف أفضل. لكنها احتفظت لنفسها بأفكارها، لأن النقاش بخصوص التعرفة كان كافياً بالنسبة لها.

،أعود وأكرّر: يجب أن تتصرّفي كما يفعل رجال الشرطة في الأفلام، لا تحتسي الكحول خلال الخدمة. أتركك الآن في المكان، سيضجّ بالروّاد بعد قليل،.

قالت لها البرازيلية باللغة البرتغالية:

ـ اشكريه.

شكرته ماريا، ابتسم الرجل، لكنه لم يكن قد انتهى بعد من توصياته:

ـ هناك نقطة أخرى: يجب ألا تتعدى المهلة بين طلب الشراب واللحظة التي ستخرجين فيها الخمس والأربعين دقيقة. سويسرا هي بلد الساعات والجميع يتعلمون احترام المواعيد، بمن فيهم اليوغوسلافيون والبرازيليون. تذكري أنني أوفر القوت لأطفالي بفضل السمسرة التي أحصل عليك منك.

ستتذكر ذلك.

قدّم لها كوبا من المياه المعدنية الغازية المعطرة بالحامض، ليبدو الأمر وكأنها تحتسي جنى تونك؛ ورجاها أن تتحلى بالصبر.

بدأ الروّاد يتوافدون إلى الحانة. يدخل الرجال وينظرون حولهم ثم يجلسون منفردين. كلّما وجد رجل رفيقة له، تتنهّد ماريا بارتياح. شعرت أنها أفضل حالاً مما كانت عليه في بداية السهرة. وقد عزت ذلك إلى أنها كانت في سويسرا؛ أو إلى أنها كانت عاجلا أم آجلا ستحيا المغامرة وتحظى بالثروة أو الزوج كما حلمت على الدوام؛ أو، وهذا ما تنبهت إليه من فورها، إلى أن هذه المرة كانت الأولى التي تخرج فيها منذ أسابيع مساء، وتذهب إلى مكان تعزف فيه الموسيقى ويمكنها سماع اللغة البرتغالية. كانت تتمتّع برفقة الفتيات اللواتي يحطن بها ويضحكن ويشربن عصير الفواكه ويثرثرن بسعادة.

لم تأت واحدة منهن لتهنئتها، أو لتتمنى لها حظاً سعيداً، لكن الأمر طبيعي: ألم تكن بمثابة غريمٍ وخصمٍ لهن؟ جميعهن يسعين إلى الفوز بتلك الكأس. بدل أن تشعر ماريا بالإحباط، شعرت بالفخر. وبدل أن تنتابها الحيرة، كانت تصارع وتناضل لتثبت وجودها. شعرت أن لديها الحرية الكاملة لتفعل ما تريد: تستطيع،

إن شاءت، أن تفتح الباب وتذهب إلى غير رجعة. لكنها لن تنسى أبداً أنها كانت تملك الشجاعة لتأتي إلى هذا المكان وتفاوض وتتطرق إلى موضوعات لم تجرؤ يوماً على التفكير بها. كانت تقول في نفسها، كل دقيقة، إنها ليست ضحية القدر بل هي تجازف وتتخطّى نفسها، وتعيش أحداثاً ستتذكَرها غداً في صمت قلبها، حين تلوح أيام الشيخوخة الرمادية. ستتذكَرها بحنين جارف مهما يبدُ الأمر منافياً للمعقول.

كانت متيقّنة من أن أحداً لن يقترب منها، وأنه في نهار الغد سيُسدل الستار على هذه المغامرة المثيرة التي لن تجرؤ على تكرارها لاحقاً، ها قد عرفت للتو أن مبلغ ألف فرنك في الليلة الواحدة أمر لن يتكرر مرة ثانية. لذا قد يكون أكثر تعقّلاً أن تشتري تذكرة العودة إلى البرازيل. طفقت تحتسب في ذهنها، بغية تزجية الوقت، ما يمكن أن تكسبه كلٌّ من الفتيات. إذا استطعن أن يفزن بثلاثة زبائن في الليلة، فسوف يكسبن ما يعادل أجر شهرين من معاشها القديم في محل النسيج.

تُرى هل يبلغ الأمر هذا الحد؟ لقد كسبت ماريا ألف فرنك في ليلة. لكن ربما كان الأمر ضربة حظ لمبتدئة في المهنة. في أي حال، فإن عائدات العاهرات أكبر مما تستطيع أن تكسبه من إعطاء دروس باللغة الفرنسية في بلادها. الجهد الوحيد الذي تبذله في المقابل يقوم على البقاء في الحانة لبعض الوقت والرقص وفتح ساقيها ونقطة على السطر. ليس ضرورياً أن تدخل في حوار مباشر مع الزبون.

فكرت أيضاً أن المال حافز جيد. لكن هل هو الحافز الوحيد؟ أم أن الناس الموجودين في هذا المكان من زبائن ونساء يستمتعون بوقتهم؟ هل العالم مختلف إذن عما يصورونه في المدرسة؟ المكان آمن والمهنة كذلك. إذا استعملت واقياً ذكرياً، فلن تعرّض نفسها لأي خطر. ثم إنها لا تعرف أحداً هنا. لا أحد ممن تعرفهم يزور

جنيف. لا أحد ـ وهذا تعلّمته أثناء درس اللغة الفرنسية ـــ إلاّ رجال الأعمال الذين يحبّون التردّد إلى المصارف. أما البرازيليون، فيفضلون ارتياد المخازن الموجودة في ميامي أو في باريس.

٩٠٠ فرنك سويسري في اليوم على مدى خمسة أيام في الأسبوع، تشكّل ثروة بالفعل! والسؤال الذي يطرح نفسه: ماذا تفعل الفتيات هنا ما دمن يستطعن في شهر واحد أن يجنين من المال ما يمكّنهن من أن تشتري كلّ منهن منزلاً لأمّها! لكن، هل يعملن منذ وقت قصير؟ أم أن هذا الأمر ـ وهنا خافت ماريا من السؤال نفسه ـــ يروق لهن؟

ـ هل توافقين على شرب كأس؟

نظرت إلى السائل فوجدت أمامها رجلاً ثلاثينياً يرتدي بزة طيار.

رأت ماريا المشهد أمامها بكاميرا بطيئة وكأنها خرجت من جسدها لتراقب نفسها من الخارج. شعرت أنها ستموت خجلاً لكنها تماسكت وسيطرت على احمرار وجهها مشيرة بحركة موافقة برأسها. ثم ابتسمت وأدركت أن حياتها تغيّرت إلى الأبد، بدءاً من هذه اللحظة.

عصير الفواكه، المحادثة، ماذا تفعلين هنا، الطقس بارد أليس كذلك؟ أحب هذه الموسيقى لكني أفضل فريق آبا، السويسريون أناس باردون، هل أنت برازيلية؟ حدثيني عن بلادك، عن الكرنفال. البرازيليات جميلات، ألسن كذلك؟

تبتسم ماريا وهي تستمع بارتياح إلى كلمات الإطراء، ثم تتظاهر بالخجل وتجهد نفسها لتبدو غامضة غريبة الأطوار. ترقص من جديد لكنها تنتبه إلى نظرات ميلان الذي يحكّ رأسه أحياناً مشيراً إلى الساعة في معصمه. تشتمّ عطر الرجل. تدرك حالاً أن عليها اعتياد الروائح. هذا الرجل رائحته عطرة على الأقل. يرقصان وقد التصق أحدهما بالآخر بشكل حميم. أيضاً كوب من عصير الفواكه. الوقت يمر. ألم يقل ميلان إن اللقاء في الحانة يجب أن

يقتصر فقط على خمس وأربعين دقيقة؟ نظرت إلى ساعتها، سألها عما إذا كانت تنتظر أحداً فتجيبه أن أصدقاءها سيصلون بعد ساعة. يدعوها للخروج. يذهبان إلى الفندق. ٣٥٠ فرنكاً. الحمام بعد الجنس (أعلن الرجل مرتبكاً أنها المرة الأولى التي يشاهد فيها ذلك). لم تكن ماريا هي نفسها. كانت امرأة أخرى في الجسد ذاته. لا تشعر بشيء وتقوم آلياً بطقوس محددة. تمثل. علّمها ميلان كل شيء إلا كيفية الاستئذان من الزبون بالانصراف. تتوجّه إلى الزبون بالشكر. كان هو أيضاً أخرق وكان نعساً.

قاومت رغبتها في العودة إلى الحانة، وأرادت الرجوع إلى المنزل، لكن كان يتوجّب عليها أن تعود وتعطي الخمسين فرنكاً لميلان. عندئذٍ التقت رجلاً جديداً وتناولت عصير فواكه جديد، ووُجّهت إليها أسئلة عن البرازيل، وذهبت إلى الفندق مع الزبون واستحمّت من جديد (هذه المرة دون تعليقات) ثم عادت إلى الحانة. اقتطع رب العمل قسمته، وقال لها إنها تستطيع الذهاب، لأن الحركة خفيفة هذا المساء. لم تستقل التاكسي، بل اجتازت الطريق في شارع برن كلها مشياً على الأقدام. شاهدت الحانات الأخرى وواجهات الساعات والكنيسة في الزاوية (لا تزال مغلقة، دائماً مغلقة...) ولا أحد ينظر إليها بالمقابل، كما هي الحال دائماً.

تمشي في طقس بارد، ولا تشعر ببرودة الطقس. لا تبكي ولا تفكر في المال الذي كسبته. إنها في حالة ذهول. بعض الناس ولدوا ليواجهوا الحياة بمفردهم وهذا ليس سيئاً وليس جيداً. إنها الحياة وماريا هي أحد هؤلاء الناس الذين تهيأوا للمواجهة.

سعت لأن تفكر في ما حصل. بدأت للتو عملها كعاهرة؛ ومع ذلك، تشعر أنها محترفة، وأنها تمارس المهنة منذ وقت طويل، لا بل زاولتها طوال حياتها. شعرت بحب جارف غريب لنفسها. سُرّت لأنها لم تهرب. عليها الآن أن تقرر مواصلة العمل أو التوقّف. إذا قررت

المتابعة فستكون الأفضل بينهن. وهذا ما لم تكنه في أي وقت من حياتها السابقة.

لكن الحياة تعلّمها أن الأقوياء وحدهم يستمرون. ولكي تكون قوية، يجب أن تكون الفضلى. ليس هناك من حلّ آخر.

وهذا ما دوّنته ماريا في يومياتها بعد أسبوع من عملها في الحانة:

«لست جسداً يؤوي روحاً، بل روح تملك جزءاً مرئياً منها هو ما يسمونه «الجسد». طوال هذه الأيام، وبخلاف ما توقّعته، كانت هذه الروح حاضرة. لم تقل لي شيئاً ولم تتوجّه إلي بالانتقاد ولم تشفق عليّ! كانت فقط تراقبني وبكل بساطة.

اليوم، فهمت السبب. السبب أنني لم أعد أفكر في الحب منذ أمد بعيد، لكأنه يهرب مني، لكأني فقدت اعتباري، أو لكأنه لم يعد يشعر أنه مرحَّب به. ومع ذلك، إذا لم أفكر في الحب، فلن أكون شيئاً.

حين رجعت إلى «كوباكابانا» في اليوم التالي، نظر إليّ الآخرون باحترام أكبر. وبحسب ما قيل لي، كانت هناك الكثير من الفتيات اللواتي يأتين لمساء واحد ولا يرجعن أبداً. أما تلك التي تذهب بعيداً في مهنتها، فتصبح حليفة ورفيقة، لأنها باتت تستطيع أن تتفهّم المصاعب والأسباب، أو بالأحرى انعدام الأسباب، التي تجعلنا نختار هذا النوع من الحياة.

تحلم جميع الفتيات برجل يستطيع أن يكتشف فيهن امرأة حقيقية ورفيقة مثيرة وصديقة. لكن جميعهن يعرفن أيضاً، ومن الدقيقة الأولى، أن شيئاً من هذا لن يحدث في أي لقاء.

يجب أن أكتب عن الحب. يجب أن أفكّر وأفكّر. يجب أن أكتب وأكتب عن الحب، وإلا فلا طاقة لروحي على احتمال كل ذلك...».

بالطبع، كانت ماريا مقتنعة في صميمها أن الحب أمر جوهري، لكنها لم تنس النصيحة التي أسديت إليها في المساء الأول لوصولها. لذا، تحاول ألا يكون حديثها عن الحب إلا على صفحات يومياتها. في أي حال، كانت تفتش يائسة عن الوسيلة التي تجعل منها الأفضل، وتؤهلها للحصول على الكثير من المال في القليل من الوقت. كذلك قررت ألا توسع دائرة تفكيرها، وأن تقصر همها على إيجاد التبريرات اللازمة للخط الذي انتهجته في حياتها.

هذه هي النقطة الجوهرية في الموضوع: ماذا تكون هذه «التبريرات اللازمة»؟

فكرت أنها تقوم بهذا العمل لأنها بحاجة إليه. لكن ليس هذا بسبب كافٍ، لأن الجميع يسعون إلى كسب المال، لكنهم لا يختارون مهنة بعيدة عن تطلعات أبناء المجتمع. حسناً، لقد اختارت هذه المهنة لأنها أرادت أن تكتسب تجربة جديدة في حياتها. حقاً؟ العالم مليء بالتجارب الممكنة. هناك مثلاً رياضة التزلّج أو التجذيف في قارب وسط بحيرة جنيف. لكن مثل هذه التجارب لا يستهويها. اختارت إذاً هذا العمل لأنه ليس لديها ما تخسره، ولأن حياتها كانت حلقات متصلة من الحرمان.

لا، إن أياً من هذه الأجوبة لا يرضيها. الأفضل إذن نسيان الحجّة والاكتفاء بما تجده في طريقها. ثمة رغبات كثيرة مشتركة بينها وبين العاهرات والنساء اللواتي التقتهن حتى الآن. وأعظم هذه

الرغبات مجتمعة هي الزواج والعيش بأمان. أما النساء اللواتي لا تحركهن هذه الرغبة، فكن إمّا متزوّجات (ثلث رفيقاتها كن متزوجات) وإما تطلّقن حديثاً. أرادت ماريا أن تفهم نفسها بشكل أفضل. لذا حاولت أن تفهم لماذا اختارت رفيقاتها هذه المهنة.

عندما سألتهن، لم يستطعن تزويدها بشيء جديد. واكتفت ماريا بعرض قائمة بالأجوبة الممكنة عن سبب اختيارهن للدعارة:

أ ـ كن مجبرات على مساعدة أزواجهن وتأمين حاجات العائلة (لكن كيف كن يواجهن غيرة أزواجهن؟) وماذا يحدث لو التقت إحداهن مصادفة بأحد أصدقاء زوجها؟). بيد أن ماريا فضلت ألّا تتعمق في هذه المسألة.

ب ـ كن يرغبن في شراء بيوت لأمهاتهن (تلك حجة مشابهة لحجّتها، نبيلة في الظاهر. وهي الأكثر شيوعاً).

ج ـ يجدر بهن توفير المال لتأمين ثمن تذكرة العودة (هذه كانت الحجة التي تعشقها الكولومبيات والتايلنديات والبيروويات والبرازيليات، حتى لو جنين أضعاف وأضعاف المبلغ المذكور، وأنفقنه خشية أن يتحقّق حلمهن).

د ـ كن يفعلن ذلك من أجل اللذة (وهذا لا يتناسب مع الجو، ويولد انطباعاً سيئاً عنهن، لأن هذه الحجة تتّسم بالخبث والنفاق).

هـ ـ لم ينجحن في إيجاد عمل اخر (وهذه حجة واهية لأن سويسرا تفيض بالوظائف، ويستطعن العمل كمنظّفات أو سائقات أو طباخات).

باختصار، لم تستطع ماريا أن تجد التبريرات الكافية، وقررت أن تقلع عن سعيها لتفسير ما يحدث في العالم المحيط بها.

أدركت أن ميلان، صاحب الحانة، كان على حق: لم يحدث أن منحها أي رجل مجدداً ألف فرنك سويسري مقابل تزجية بضع ساعات معها. كذلك، لم يظهر أي زبون اعتراضاً أو استياء على مبلغ الثلاثمئة وخمسين فرنكاً، وكأنّ الرجال كانوا يعرفون

التعرفة أصلاً. لو حدث وسألها أحد الرجال عن المبلغ، فهذا كان بقصد إهانتها، أو لتجنّب مفاجأة سيّئة.

قالت لها إحدى الفتيات يوماً: «الدعارة مهنة مختلفة عن المهن الأخرى، تكسب فيها المبتدئة أكثر من تلك التي تفوقها خبرة. تصرّفي دوماً وكأنك لا تزالين مبتدئة.

حتى الآن، لم تتعرّف ماريا إلى الزبائن التي يقال إنهم «زبائن غير عاديين». لم يُذكر الموضوع إلا في المساء الأول لعملها في الحانة، ولم يتناوله أحد لاحقاً بحضورها. أخذت ماريا تكتشف تدريجياً بعض الأسرار المتعلقة بالمهنة، ومنها ألا تطرح مثلاً على الزبون أسئلة تتعلق بحياته الخاصة، وأن تبتسم وتتكلم أقلّ قدر ممكن، وألا تضرب موعداً خارج إطار الحانة الليلة. أما النصيحة الأهم، فأسدتها إليها فيليبينية تدعى نيا:

ـ عليك أن تتظاهري بالتأوه عندما يصل الزبون إلى الرعشة الجنسية.

ـ لكن لماذا؟ أفلا يدفعون لإشباع رغباتهم بالذات؟

ـ عودي إلى رشدك. لا يثبت الرجل ذكورته بانتصاب عضوه فقط، بل بقدرته أن يجعل المرأة تبلغ النشوة الجنسية. وإذا أثبت أنه قادر على منح اللذة لعاهرة، فعندئذٍ سيعتبر نفسه أفحل الذكور.

وهكذا مرّت ستة أشهر في «كوباكابانا»، تعلّمت خلالها ماريا كل ما تريد معرفته عن سير العمل هناك. وبما أنَّ هذه الحانة هي الأغلى ثمناً في شارع برن، فقد كان الزبائن ينتمون في معظمهم إلى الكوادر العليا، ولديهم التبريرات الكافية للعودة إلى بيوتهم في وقت متأخّر بحجّة أنهم «يتناولون العشاء في الخارج مع أحد الزبائن»، شرط ألا تتجاوز مواعيدهم الساعة الحادية عشرة.

كانت معظم العاهرات اللواتي يعملن في الحانة تراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين، وكن يبقين كمعدّل وسطي، لفترة سنتين في بيت الدعارة إلى أن يتم استبدالهن بوافدات

جديدات. عندئذٍ يذهبن إلى حانة «نيون» ثم إلى «كزينيوم». كلّما تقدمت بهن السن، انخفضت التعرفة وتقلّصت معها ساعات العمل، كما يتقلّص «جلد المكروب»، فيحططن رحالهن جميعاً تقريباً في حانة «تروبيكال اكستاسي» التي كانت تستقبل النساء اللواتي تعدّين الثلاثين من العمر. وانتقالهن إلى هناك يعني أن همَّهن بات يقتصر على توفير الطعام والمأوى. وهذا ما يمكن توفيره مما يتقاضينه من طالب متعة أو اثنين يومياً. والمبلغ لا يكاد يكفي لشراء زجاجة خمر واحدة.

ضاجعت ماريا الكثير من الرجال. لم تكن تهتم بأعمارهن ولا بالملابس التي يرتدونها، بل كانت موافقتها أو رفضها مرهونين بالرائحة التي تنبعث منهم. لم تكن رائحة السيجارة تزعجها، بل رائحة العطور الرخيصة والزبائن الذين لا يستحمّون، وأولئك الذين تفوح من ملابسهم رائحة الكحول. كانت «كوباكابانا» مكاناً هادئاً، وسويسرا من أفضل البلدان التي يمكن للعاهرات أن يعملن فيها، ما إن يحصلن بالطبع على إذن بالإقامة، والعمل وفقاً للشروط القانونية، ويسدّدن الضرائب المتوجّبة عليهن بدقة. كان ميلان يردّد على مسامعهن أنه لا يريد أن يقرأ أولاده اسمه على صفحات الجرائد المثيرة، وكان بمقدوره أن يظهر تصلّباً يفوق تصلّب الشرطي حين يتعلق الأمر بالوضع القانوني للموظفات العاملات في مؤسسته.

ما إن يتم اجتياز عقبة الليلة الأولى أو الثانية، حتى تصبح مهنة الدعارة، كجميع المهن الأخرى، حيث يتوجّب العمل بحمية، ومواجهة المنافسة، والسعي إلى الاحتفاظ بمعايير الجودة، واحترام المواعيد، والشعور بالتشنّج والتذمّر من قلّة العمل، والراحة أيام الآحاد. كانت معظم العاهرات مؤمنات، ويذهبن إلى القدّاس لتلاوة الصلوات، ويضربن مواعيد مع الله.

أمّا ماريا، فكانت على موعد دائم مع مفكّرة يومياتها لكي لا تفقد روحها. فوجئت حين اكتشفت أن خُمس الزبائن الذين

يترددون إلى الحانة، إنما يجيئون بدافع الرغبة في الكلام ولو قليلاً، وليس فقط في ممارسة الجنس. كان هؤلاء يسدّدون الحساب ثم يذهبون إلى الفندق. ثم أثناء خلع الملابس يعلنون أن ممارسة الجنس ليست ضرورية. كانوا يرغبون في التحدث عن الضغوط التي تمارس عليهم في العمل، عن زوجاتهم اللواتي يخدعْنهم، عن شعورهم بالوحدة لأنهم لا يجدون شخصاً يتحدّثون إليه (وهذا الشعور كانت تعرفه ماريا جيداً).

في البداية، وجدت الأمر غريباً. ثم، ذات يوم، كانت في الفندق برفقة فرنسي تقوم مهنته على استخدام كبار الموظفين الإداريين من أجل ترقيتهم في وظائف أسمى، سمعته يعلّق قائلاً: «هل تعرفين من هو الشخص الأكثر وحشةً في العالم؟ إنه الموظف الإداري الكبير الذي نجح في مهنته، وبات يكسب أجراً مرتفعاً جداً، ويحظى بثقة رؤسائه ومرؤوسيه، وهو الذي يقضي العطلة بين أفراد عائلته ويساعد أولاده في واجباتهم المدرسية. ثم، ذات يوم، يأتي إلى زيارته شخص مثلي حاملاً إليه الاقتراح التالي: «هل ترغب في تغيير وظيفتك وجني ضعف ما تكسبه؟».

هذا الرجل الذي كان يبذل كل شيء ليشعر أنه مرغوب فيه وسعيد، يصبح الشخص الأتعس على هذا الكوكب. لماذا؟ لأنه ليس هناك من يستطيع التحدث إليه. يغويه اقتراحي ولا يستطيع أن يكشف أمره لزملائه، لأن غيرتهم تدفعهم إلى عرقلة المساعي المبذولة لترقيته. ولا يمكنه أن يتحدّث في الأمر مع زوجته التي ساندته لسنوات طوال في وظيفته الناجحة واختارت الأمان ولا تفهم شيئاً في المجازفة. لا يستطيع التحدّث إلى أحد، ويجد نفسه أمام الخيار الأصعب في حياته. هل تستطيعين أن تتصوري ما يشعر به هذا الرجل؟».

لا، لا تعتقد أنه الكائن الأكثر وحشة في العالم. تعرف ماريا جيداً من هو الكائن الأكثر وحشة على وجه الأرض. إنه ماريا

نفسها. ومع ذلك، وافقت على قوله آملة في الحصول على أجر إضافي، وهذا ما حدث في الواقع. وابتداءً من هذا اليوم، أدركت ماريا أن عليها أن تكتشف وسيلة لتحرير زبائنها من الضغط الهائل الذي يرزحون تحت وطأته، وسيلة بإمكانها أن تحسّن نوعية خدماتها، وتؤمّن لها أيضاً مكافأة إضافية.

عندما أدركت ماريا أن تحرير الزبائن من الاحتقان النفسي كان مربحاً كتحريرهم من الاحتقان الجسدي، عادت تتردّد إلى المكتبة. أرادت الحصول على كتب تتطرق إلى المشكلات الزوجية وعلم النفس والسياسة. سُرّت أمينة المكتبة لأن الفتاة، التي كانت تشعر بودّ تجاهها، تخلّت عن اهتمامها بموضوع الجنس، وبدأت تحصر تفكيرها بموضوعات أكثر جدية. كما أخذت ماريا تقرأ الصحف بانتظام. وتتابع ضمن إمكانياتها الأخبار الاقتصادية لأن معظم زبائنها كانوا من كبار الموظفين الإداريين. تحرّت عن كتب تتحدث عن كيفية المساعدة في حل المشاكل النفسية، لاسيّما وأنهم كانوا جميعاً يلتمسون نصائحها. وقرأت مؤلفات شتى عن الانفعالات البشرية، لأنهم كانوا يعانون جميعاً، لسبب أو لآخر. كانت ماريا عاهرة محترمة ومختلفة عن باقي العاهرات. وقد استطاعت خلال ستة أشهر من العمل أن تحظى بزبائن كثيرين وأوفياء، مما أثار حسد رفيقاتها وإعجابهن أيضاً.

أما الجنس، فلم تضف المهنة شيئاً إلى حياتها في هذا المضمار: يقتصر الأمر على إبعاد الساقين؛ يضع الرجال الواقي الذكري؛ تتأوه ماريا قليلاً (استطاعت ماريا بفضل نيا الفيليبينية أن تتأكد من أن التأوهات تستطيع أن تجلب خمسين فرنكاً إضافياً)؛ تستحم ماريا فوراً بعد ممارسة الجنس لعلّ الماء يستطيع أن يغسل الروح قليلاً. ويتم كل هذا دون تبادل للقُبل، لأن القبلة بالنسبة للعاهرة مقدّسة أكثر من أي شيء آخر. علّمتها نيا أنه يجدر بها أن تحتفظ بالقبلات لحبيب حياتها. وكما أيقظت القبلة جميلة الغابات النائمة من سباتها الطويل وأرجعتها إلى عالم قصص الجنيات، كذلك

ستوقظ القبلة ماريا وتعيدها إلى سويسرا، بلاد الشوكولاتة والبقر والساعات.

لم تشعر ماريا بأي نشوة جنسية. لم تمنحها المضاجعة لا اللذة ولا الإثارة. سعَتْ لأن تكون الأفضل، وشاهدت عدة أفلام إباحية علَّها تجد فيها شيئاً نافعاً تتعلمه، واكتشفت مجموعة من الأشياء المهمة، لكن لم تكن لديها الشجاعة كي تمارسها مع زبائنها، لأن هذا كان يتطلّب وقتاً، وكان ميلان يفضّل أن تقابل الفتيات ثلاثة زبائن في الليلة.

بعد مضي ستة أشهر، تمكّنت ماريا من توفير مبلغ ستة آلاف فرنك سويسري لحسابها في أحد المصارف. أخذت تتردّد إلى أفخم المطاعم، واشترت تلفزيوناً (ولم تستعمله قط). كانت تفكّر بالانتقال إلى شقة أكثر اتساعاً. صار بإمكانها اقتناء الكتب، لكنها فضّلت التردد إلى المكتبة، عبّارتها إلى العالم الواقعي الأكثر صلابة وثباتاً. كانت تولي اهتماماً بالغاً الدقائق القليلة التي تقضيها في التحدّث إلى أمينة المكتبة التي بدت سعيدة، لأنها ظنت أن ماريا وجدت الحب أو الوظيفة، مع أنها لم تطرح عليها أي سؤال، لأن السويسريين متحفّظون ومتكتّمون (وهذه أكذوبة، لأنهم في «كوباكابانا» وفي الفراش كانوا متحررين من كبتهم ومرحين أو معقّدين، كسائر البشر).

وهذا ما دوّنته ماريا في يومياتها، بعد ظهيرة أحد الأيام الكئيبة:

«هناك شيء مشترك بين جميع الرجال، صغاراً كانوا أم كباراً، متبجّحين أم خجولين، ودودين أم متحفّظين، وهو أنهم يخافون حين يصلون إلى «كوباكابانا»، يحاول ذوو الخبرة منهم أن يخفوا خوفهم من خلال التحدث بصوتٍ عالٍ. أما الكبوتون، فيسترسلون في الشرب لأنهم لا ينجحون في التظاهر بما لا يضمرون، آملين أن يتخطّوا شعورهم بالنقص. لكن، ما من شك أن جميع الرجال، ما خلا بعض الاستثناءات كالزبائن «غير العاديين» الذين لم يعرّفني ميلان بهم، يخافون.

ممّ يخافون؟ أنا المخلوق الوحيد الذي يُفترض به في الواقع أن يرتجف خوفاً. أنا التي أخرج وأذهب إلى مكان غريب ولا أملك قوة جسدية ولا أحمل سلاحاً. الرجال أشخاص غريبون للغاية. لا أتكلم فقط عن هؤلاء الذين يأتون إلى «كوباكابانا»، لكن عن جميع هؤلاء الذين التقيتهم حتى اليوم. بإمكانهم أن يطربوا ويزعقوا ويتهدّدوا، ومع ذلك فإن امرأة تستطيع أن تجعلهم يموتون ذعراً. هناك دائماً امرأة بإمكانها أن تلقي الرعب في نفوسهم، وتخضعهم لكل نزواتها، حتى وإن كانت أمهم».

فعل الرجال، الذين قابلتهم منذ وصولها إلى جنيف، كلّ ما بوسعهم ليبدوا واثقين من أنفسهم. تصرفوا كأنهم سادة العالم وسادة حياتهم بالذات. لكن ماريا كانت تقرأ في أعينهم الرعب من زوجاتهم والهلع من عدم الانتصاب ومن التشكيك في ذكورتهم حتى أمام عاهرة يدفعون لها ثمن خدماتها. لو اشتروا مثلاً حذاءً من أحد المخازن ولم يعجبهم لاستطاعوا الرجوع مع بطاقة المحاسبة والطلب بأن تُرَدّ إليهم القيمة دون تردّد. لكن، عندما يدفعون لامرأة مبلغاً مقابل مضاجعتها وتعثّرت لديهم عملية الانتصاب، فإنهم لا يرجعون أبداً إلى الحانة نفسها، لئلاّ ينتشر الخبر وتعرف النساء الأخريات، وهذا عار.

«أنا من يجدر به أن يشعر بالعار بدلاً منهم، لكن الحقيقة مخالفة لذلك: هم من يشعرون بالعار!».

وهكذا سعت ماريا لأن تجعلهم يشعرون بالارتياح عندما تكون برفقتهم. وحين تشعر أن أحدهم ثمل أو واهٍ، تتجنّب أن يلجها وتركّز اهتمامها على المداعبات والاستمناء، الأمر الذي كان يريحهم بشكل كامل، مهما يبدُ الوضع غريباً، لأنهم كانوا قادرين أن يستمنوا بمفردهم.

كانت ماريا ترى لزاماً عليها مساعدة زبائنها في التغلّب على شعورهم بالخزي أو العجز. لاسيّما وأن هؤلاء كانوا من الموظّفين الناجحين في ممارسة أعمالهم الوظيفية، وكانوا على اتصال دائم

مع الزبائن والمقاولين وسائر الموظفين بحيث يقضون أوقاتهم في تلقي الشكاوى ومعالجة المستجدات وتوفير الظروف الملائمة لحسن سير العمل. كانوا يأتون إلى الحانة الليلية ليطرحوا عن كاهلهم أعباء يوم مرهق، وقلّما يهمهم أن ينفقوا مبلغ ٣٥٠ فرنكاً سويسرياً. كل ما يهمهم هو أن يقضوا سهرة هادئة كفيلة بأن تعيدهم إلى توازنهم المفقود وتنسيهم كل شيء عداها.

«سهرة هادئة؟ ألا ترين يا ماريا أنك تبالغين؟». ليست سهرة في الحقيقة، بل إنها خمس وأربعون دقيقة. وإذا اقتطعنا من حسابنا الوقت الذي يستغرقه التعزي والمداعبات التي تصطنع الحنان وتبادل بعض العبارات المستهلكة وارتداء الملابس من جديد، فإن هذا الوقت يقتصر على إحدى عشرة دقيقة، فقط لا غير.

إحدى عشرة دقيقة تشكل المحور الذي يدور حوله العالم. فقط إحدى عشرة دقيقة.

ومن أجل هذه الإحدى عشرة دقيقة المقتطعة من يوم كامل (هذا إذ افترضنا أن جميع الرجال يمارسون الجنس مع زوجاتهم يومياً. وهذا أمر غير معقول لا بل مخالف للحقيقة)، يتزوّج الرجال ويلزمون أنفسهم بتحمّل أعباء عيالهم ويتحمّلون بكاء أطفالهم ويرتبكون في تقديم الذرائع لدى رجوعهم إلى المنزل في وقت متأخر، ويطمحون بأبصارهم إلى عشرات بل مئات النساء الأخريات، ويحلمون أن يذهبوا برفقتهن للتنزه على ضفاف بحيرة جنيف، ويشترون لأنفسهم ملابس مترفة بهدف إغوائهن، ولهن ملابس أكثر ترفاً، ويخرجون برفقة العاهرات لمضاجعتهن تعويضاً عن شعورهم بالحرمان. أمِنْ أجل تلك الدقائق المعدودة تنشأ وتزدهر صناعة العطور وأدوات الزينة ودور الأزياء ومستحضرات التجميل والمبتكرات الطبية والرياضية لتنحيف الجسم، وتصدر المجلات وتصور الأفلام الإباحية، ويتنافس الناس على تولّي المناصب الرفيعة؟... وحين يلتقي الرجال الرجال الآخرين لا يتحدثون مطلقاً

عن النساء، بخلاف ما يدّعيه الناس عموماً، بل في شؤون عملهم، وفي المال والرياضة.

ثمة خلل في الحضارة. ليس الخلل ناجماً عن قطع الأشجار في غابات الأمازون أو الثقب في طبقة الأوزون أو اختفاء دببة الباندا والتبغ أو الأغذية المسبّبة للسرطان أو وضع المساجين. يكمن الخلل أساساً، بخلاف ما تدّعيه الصحف، في موضوع العمل الذي تمارسه ماريا بالذات أي الجنس.

لكن ماريا لا تمارسِ هذه المهنة من أجل إنقاذ البشرية، بل لتنمية حسابها المصرفي، ولكي تستطيع أن تواجه ستة أشهر إضافية من الوحدة وتعزّز الخيار الذي راهنت عليه، وترسل بانتظام مبلغاً لأمها (التي كانت مسرورة لعلمها أنها لم تسلّم المال حتى الآن لأن البريد السويسري لا يعمل أفضل من البريد البرازيلي)، وتحصل على كل ما حلمت به ولم تستطع امتلاكه من قبل. انتقلت إلى منزل أكثر رفاهية مزوّد بجهاز تدفئة مركزي (مع أن الوقت كان ضيقاً) ومشرف على كنيسة ومطعم ياباني وسوبر ماركت ومقهى ظريف، أخذت تتردّد إليه لقراءة الصحف. كانت قد تعهّدت لنفسها أن تتحمّل ستة أشهر أخرى رتابة الذهاب إلى «كوباكابانا» و: هل تقبلين دعوتي لتناول كأس؟ هل ترقصين؟ ما رأيك بالبرازيل؟... ثم الذهاب إلى الفندق، الدفع سلفاً، تبادل الحديث، مداعبة المناطق الحساسة في الجسد كما في الروح، وبخاصة الروح، المساهمة في حل المشكلات الحميمة، أن تكون صديقة لمدة ثلاثين دقيقة تُختزل منها إحدى عشرة دقيقة لإبعاد الساقين ثم ضمهما والتأوّه واصطناع اللذة، وشكراً، آمل أن أراك الأسبوع المقبل، أنت حقاً رجل، سأستمع إلى بقية القصة في لقائنا المرة المقبلة، علاوة ممتازة، وأخيراً، تمتّعت كثيراً برفقتك.

المهم عدم الوقوع في الحب: هذا هو الأمر الجوهري، الأكثر

حكمة من جميع النصائح التي أسدتها إليها فتاة الحانة البرازيلية قبل أن تختفي؛ وربما أسدتها لأنها هي نفسها قد وقعت في الحب.

تلقّت ماريا، خلال شهرين من عملها، عدة عروض للزواج، كانت ثلاثة منها جدية: الأولى من مدير لشركة محاسبة، والثانية من الطيار الذي خرجت معه في المساء الأول، والثالثة من صاحب محل متخصص في السكاكين والسلاح الأبيض. وعدها كلّ من الثلاثة بأن «يخرجها» من هنا ويسكنها منزلاً محترماً، ويهبها مستقبلاً وأطفالاً وأحفاداً.

كل هذا من أجل إحدى عشرة دقيقة في اليوم! ليس هذا ممكناً! كانت ماريا تعلم أنها ليست الإنسان الوحيد الذي يشعر بالوحدة. بإمكان الكائن البشري أن يتحمَّل العطش أسبوعاً والجوع أسبوعين، بإمكانه أن يقضي سنوات دون سقف، لكنه لا يستطيع تحمّل الوحدة، لأنها أسوأ أنواع العذاب والألم. كل هؤلاء الرجال الذين يتزاحمون على كسب ودّها، كانوا يتعذّبون مثلها، ويضنيهم هذا الشعور المدمّر، هذا الشعور بأننا لا نعني لأحد شيئاً على وجه هذه الأرض.

لكي تتجنّب ماريا إغواءات الحب، دوّنت كل نبضات قلبها في يومياتها، ودخلت «كوباكابانا» بسلاح واحد هو جسدها وعقلها الذي ازداد حيوية وتبصّراً. نجحت في إقناع نفسها بأنها أتت إلى جنيف، وأنها حطّت رحالها في شارع برن من أجل هدف علوي. كلَّما استعارت كتاباً من المكتبة، بدت لها نظريتها أكثر رسوخاً، وهي أن أحداً لم يكتب كما يجب في هذه الإحدى عشرة دقيقة الأكثر جوهرية في اليوم، وأن قدرها هو، مهما يبدُ الأمر قاسياً، أن تنشر كتاباً تروي فيه حياتها ومغامرتها.

المغامرة: كلمة يُحظَّر استعمالها، ولا أحد يجرؤ على التلفّظ بها. ذلك أن معظم الناس يفضّلون رؤية المغامرة على التلفزيون ضمن أفلام يعاد عرضها. هذا ما كانت تبحث عنه ماريا. المغامرة التي

تتناغم مع الصحارى والأسفار نحو المجهول، والرجال الغامضين الذي يستهلّون الكلام على متن أحد المراكب وسط النهر، والطائرات واستوديوهات السينما، وقبائل الهنود، وجبال الجليد، وأفريقيا.

أعجبتها فكرة الكتاب، وفكّرت أن يكون عنوانه «إحدى عشرة دقيقة». أخذت ماريا تصنّف الزبائن إلى ثلاث فئات: الرجال أصحاب المراجل (تيمناً بعنوان فيلم شاهدته وأعجبها) الذين تفوح منهم رائحة الكحول عند دخولهم الحانة، ويتظاهرون بأنهم لا يولون أحداً اهتمامهم فيما الأنظار جميعها مصوّبة إليهم. كانوا يرقصون قليلاً ثم يدخلون مباشرة في صلب الموضوع: الذهاب إلى الفندق. والفئة الثانية تضم الرجال الجذّابين على طريقة البطل في «Pretty Woman» (وهذا عنوان فيلم آخر)، وهم رجال يريدون أن يجسّدوا منتهى اللطف والأناقة والحنان، معتقدين أنه من دون لطفهم ستكف الأرض عن الدوران. هؤلاء هم لطفاء في البداية، وقليلو الثقة بأنفسهم لدى وصولهم إلى الفندق. أما في النهاية فيصبحون أكثر تصلباً من الذين أسمتهم «Terminator». وهناك أخيراً «العزابون» (أيضاً تيمّناً باسم فيلم) الذين يتعاملون مع جسد المرأة وكأنه سلعة تباع وتُشترى. هؤلاء كانوا الأكثر صدقاً: يرقصون ويتكلمون ولا يتركون علاوة، ويعرفون قيمة ما يشترونه ولا ينجرّون إلى حديث مع امرأة اختاروها. كانوا الوحيدين الذين يعرفون فعلاً، وبطريقة مرهفة للغاية، معنى كلمة «مغامرة».

وهذا ما دونته ماريا في يومياتها في يومٍ تخلّفت فيه عن الذهاب الى العمل بسبب العادة الشهرية:

«لو طلب مني أحدهم أن أروي قصة حياتي، لاعتقد أنني امرأة مستقلة وشجاعة وسعيدة. لا أملك في الحقيقة شيئاً من هذا. لقد حُرمت من أن أتلفّظ بالكلمة الوحيدة التي تستطيع أن تكون بديلاً من الإحدى عشرة دقيقة وهي: الحب.

طوال حياتي فهمت الحب شكلاً من أشكال العبودية المبرّرة. هذا كذب، لأنه حيث يكون الحب تكون الحرية. ومن يمنح ذاته بكليتها يشعر أنه حر ويحبّ بشكل لا حدّ له.

ومن يحب بشكل لا حدّ له يفهم ما معنى الحرية.

لأجل هذا، وبخلاف كل الظنون، فإن كل ما أحياه وأفعله وأكتشفه لا معنى له. آمل أن تمرّ هذه الفترة بسرعة لأتمكن من استعادة البحث عن ذاتي والالتقاء برجل يتفهّمني، ولا يجعلني أتألم.

لكن عن أيّ بلاهة أتحدث؟ في الحب لا أحد يجرح أحداً، وكلّ مسؤول عمّا يعاني منه. ولا يستطيع أن يحمّل الآخر وزر معاناته.

فيما مضى، احتملت الجراح الكثيرة عندما فقدت الرجال الذين أحببتهم. أما اليوم، فأنا مقتنعة بأن لا أحد يفقد أحداً، لأنه لا أحد يمتلك أحداً.

هذه هي التجربة الحقيقية للحرية: أن نحظى بالشيء الأهم في هذا الوجود دون أن نسعى إلى امتلاكه».

مـرت ثلاثة أشهر أخرى. جاء الخريف وجاء معه التاريخ الذي سجّلته ماريا على الروزنامة. لا تزال هناك فترة ٩٠ يوماً تفصلها عن العودة الى البرازيل. مرَّت الأيام سريعة وبطيئة في آن. ارتدى الزمن بُعديْن بنظر ماريا، وهذا وفقاً لحالتها النفسية. لكن في الحالتين كانت مغامرتها تقارب النهاية. لا شك أن بإمكانها أن تتابع المغامرة، لكنها لا تستطيع أن تنسى الابتسامة الحزينة للمرأة غير المرئية التي رافقتها أثناء رحلتها حول البحيرة، وحذّرتها قائلة إن الأشياء ليست بالسهولة التي نتصوّرها. لهذه المهنة إغواءاتها وكانت ماريا تتحضّر لمواجهة التحديات التي تعترض سبيلها. إلاّ أن كل هذه الأشهر التي قضتها فقط مع ذاتها علَّمتها أنه يجب التصميم على إنهاء المغامرة عند هذا الحد. بعد ٩٠ يوماً، تعود ماريا إلى البرازيل، وتشتري مزرعة صغيرة (جنت من المال أكثر مما كانت تتوقّع) وبعض البقرات (البرازيلية لا السويسرية)، وتدعو أباها وأمها للسكن معها، وتستخدم موظفين لتسيير المشروع.

مع أنها كانت تفكر أن الحب هو التجربة الحقيقية للحرية وأن لا أحد يستطيع امتلاك كائن آخر، إلا أنها كانت أيضاً تغذّي سراً رغبتها في الانتقام من زميلاتها السابقات عند رجوعها الظافر إلى البرازيل. وبعد أن تكون قد فرغت من إنشاء المزرعة، ستذهب إلى المدينة وتدخل المصرف حيث يعمل الصبي الذي تركها ليعاشر أفضل صديقة لديها، وتودع مبلغاً كبيراً من المال. عندئذ سيقول لها الصبي: «مرحباً، كيف حالك، ألم تعرفيني؟» لكنها ستتظاهر

بأنها تبذل جهداً كبيراً لتتذكّر وتقول في النهاية إنها لا تتذكّر وإنها قضت سنة كاملة في أو ـ رو ـــ با (ستلفظ الكلمة على مهل ليسمع كل زملائه) أو بالأحرى في سويـــ ـ سرا (هذه الكلمة سيكون لها وقع أكثر اكزوتيكية من كلمة فرنسا، وأكثر إيحاءً بسحر تلك المغامرة)، حيث يوجد أفضل مصارف العالم... من يكون هذا الصبي؟

سيذكّرها بأيام الدراسة، وستقول له: «آه الآن تذكّرت»، وهي تصطنع هيئة من لا يتذكّر.

حسناً، أُنجز الانتقام. والآن يجب العودة إلى العمل. إذا سارت الأمور وفق ما تشتهي، ستكرّس عندئذٍ كل وقتها للاهتمام بما تراه جوهرياً، أي العثور على الحب الكبير والرجل الذي كان ينتظرها طوال هذه السنوات، لكنها لم تحظ بفرصة لقائه.

قرّرت ماريا أن تنسى إلى الأبد مشروعها في تأليف كتاب «إحدى عشرة دقيقة». عليها من الآن فصاعداً أن تحصر تركيزها فقط بالمزرعة ومشروعاتها المستقبلية، وإلا فإنها ستضطر حتماً إلى إرجاء عودتها إلى البرازيل.

ذهبت بعد الظهيرة للقاء صديقتها المفضَّلة والوحيدة أمينة المكتبة. قالت لها إنها مهتمة الآن بتربية المواشي وإدارة مشروع زراعي، ثم طلبت منها أن تحضر لها كتباً عن هذا الموضوع.

اعترفت لها أمينة المكتبة بما يدور في رأسها:

ـ أتعرفين، منذ بضعة أشهر، عندما أتيت إلى هنا لتسأليني كتباً عن الجنس، قلقت بشأنك. هناك الكثير من الفتيات الجميلات اللواتي يغريهن الجني السهل للمال. لكنهنّ ينسين أن الشيخوخة ستداهمهن قبل أن تسنح لهن الفرصة ليلتقين رجل حياتهن.

ـ هل تقصدين الكلام عن الدعارة؟

ـ الكلمة صعبة جداً عليّ.

ـ سبق أن قلت لك إنني أعمل في شركة لتصدير اللحم واستيراده. لكن، لنفرض أن لديّ النية للعمل في هذا الميدان، برأيك هل ستكون العواقب وخيمة لو أنني توقّفت في الوقت المناسب؟ في أي حال، أن يكون المرء شاباً فهذا يعني أنه معرّض لارتكاب أخطاء كثيرة.

ـ جميع الذين يتعاطون المخدرات يقولون الشيء نفسه: المهم أن نتوقف في الوقت المناسب. ولا أحد منهم يتوقف!

ـ كنتِ ولا شك امرأة جميلة جداً. وُلدتِ في بلاد ينعم فيها المواطنون بحياة كريمة، فهل كان هذا كافياً لتكوني سعيدة؟

ـ أستطيع القول إنني فخورة بالطريقة التي تخطيت فيها ما وضع في طريقي من حواجز.

هل ينبغي لأمينة المكتبة أن تتابع قصتها؟ أجل، لأن هذه الفتاة تحتاج إلى من يعينها على مواجهة مصاعب الحياة.

«عشْتُ طفولة سعيدة، درست في أفضل مدارس برن، ثم أتيت للعمل في جنيف حيث التقيت الرجل الذي أحببته وتزوّجت به. فعلت كل ما بوسعي لإسعاده وهو كذلك. ثم مضى الوقت وأُحيل إلى التقاعد. لكنه عندما صار حراً ليفعل بوقته ما يحلو له صارت نظرته كئيبة. ربَّما حدث ذلك لأنه لم يفكر في نفسه طوال حياته الماضية. لم نتشاجر يوماً بشكل جدّي، ولم تكن لدينا قط انفعالات قوية. لم ينحنِ قط، ولم يقلّل من احترامي بين الناس. عشنا حياة طبيعية، طبيعية للغاية، لدرجة أنه عندما أصبح بلا عمل شعر أنه تافه وغير نافع. توفي بالسرطان بعد مضي عام على تقاعده».

كانت تقول الحقيقة الكاملة، لكن كلماتها لا بدّ أنها أثّرت سلباً في الفتاة الواقفة أمامها.

ثم اختتمت كلامها بالقول:

ـ مهما يكن، من الأفضل أن نعيش حياة دون مفاجآت. كان هناك احتمال أن يتوفّى زوجي قبل ذلك الوقت لو كانت حياتنا مختلفة.

خرجت ماريا من المكتبة متأبّطة الكتب، عازمة أمرها على التثقّف في مجال الإدارة الزراعية. كانت حرة بعد الظهر، لذا قررت الذهاب للتنزّه. لاحظت في أعلى المدينة لافتة صفراء رُسمت عليها شمس وتحمل الكتابة التالية: «طريق مار يعقوب». ما هذه الطريق؟

بما أن ماريا اكتسبت العادة بأن تستعلم عن كل ما تجهله، دخلت الحانة لتسأل بشأن اللافتة.

قالت لها الفتاة الواقفة خلف طاولة الشرب:

ـ ليست لديَّ أدنى فكرة.

كان المكان أنيقاً وكان ثمن فنجان القهوة يفوق بثلاث مرات ثمنه في الأمكنة الأخرى. لكن، بما أن ماريا باتت تملك المال وبما أنها موجودة هنا، فقد طلبت فنجان قهوة وقررت أن تكرّس وقتها خلال الساعات المقبلة للانكباب على دراسة إدارة المزارع. فتحت الكتاب بحماس، لكنها لم تستطع أن تركّز على القراءة. وسرعان ما طرحته جانباً لأنه كان مضجراً للغاية. رأت أن من الأفضل التحدّث عن الموضوع مع زبائنها، لأنهم يعرفون دوماً الطريقة المثلى لإدارة الأموال. سدّدت الحساب، ثم شكرت الخادمة، وتركت لها علاوة جيدة (كانت تشعر بالارتياح من هذه العادة لأنها كانت تعتقد أنها إذا أعطت كثيراً فستتلقّى أكثر). اتجهت ناحية الباب دون أن تعي أهمية هذه اللحظة، ففيها سمعت جملة ستغيّر إلى الأبد مجرى حياتها: مشروعاتها ومستقبلها ومزرعتها وفكرتها عن السعادة وروحها الأنثوية ومواقفها الرجولية ومكانها في العالم:

«دقيقة واحدة».

فوجئت لسماع الصوت ونظرت من حولها. كان هذا المكان حانة محترمة لا يشبه بشيء حانة «كوباكابانا»، حيث للرجال الحق في قول هذه الكلمات، حتى لو كانت للنساء الحرية في أن يعترضن قائلات: «أنا ذاهبة ولن تمنعني».

تحضّرت ماريا لأن تتجاهل هذا التطفّل، لكن فضولها منعها. أدارت رأسها باتجاه مصدر الصوت. رأت عندئذٍ مشهداً غريباً: رجلاً في الثلاثين تقريباً (أو ربما كان عليها أن تقول صبياً، «لأن عالمه شاخ قبل الأوان؟) طويل الشعر، راكعاً أرضاً ومن حوله عدة ريشات مبعثرة، منصرفاً إلى رسم رجل جالس على الكرسي أمامه، وقربه كوب من مشروب اليانسون. لم تلحظهما لدى دخولها.

ـ لا تذهبي: انتظري حتى أنتهي من رسم هذا «البورتريه».

أرغب في أن أرسمك أنت أيضاً.

أجابت ماريا وكانت بجوابها تعيد الحلقة المفقودة في هذا العالم إلى مكانها:

ـ هذا لا يهمني.

ـ هناك «ضوء» ينبعث منك. دعيني على الأقل أقوم برسم أوّلي.

عن أي رسم أوّلي يتحدّث؟ عن أي ضوء؟ هل يُعقل أن أحداً بهذه الجدية يصرّ على رسم بورتريه لك؟! أخذت الأفكار تتدافع بحميّة داخل رأسها: ماذا لو كان رساماً شهيراً! عندئذٍ سيُخلّد رسمها إلى الأبد في اللوحة، وستعرض في باريس أو في سلفادور في باهيا! إنها أسطورة حقيقية!

ثم ماذا كان يفعل هذا الرجل وسط كل هذه الفوضى في حانة فخمة جداً ويتردّد إليها، ولا شك، أناس محترمون؟

حدست الخادمة أفكارها فهمست في أذنها: «إنه فنان معروف جداً». كان حدس ماريا في محله إذن. حاولت أن تحتفظ ببرودة أعصابها. قالت لها الخادمة: «يأتي إلى هنا من وقت إلى آخر، ودائماً برفقة زبون مهم. يقول إنه يحب ديكور الحانة وإنه مصدر إلهام له. إنه يرسم الآن لوحة إعلانية تمثّل شخصيات جنيف بأمر من مجلس المدينة.

نظرت ماريا إلى الرجل الذي كان يرسمه. ومن جديد قرأت الفتاة أفكارها، فقالت:

ـ إنه عالم كيمياء. قام باكتشاف مذهل ونال عنه جائزة نوبل.

كرّر الرسام قوله:

ـ لا تذهبي. سوف أنهي الرسم في خمس دقائق. اطلبي ما تريدين وسجّليه على حسابي.

كانت ماريا تشعر وكأنها منوّمة مغنطيسيّاً. ذهبت للجلوس

أمام البار، وطلبت ليكور باليانسون (بما أنها لم تكن معتادة الشرب، فإن أول فكرة خطرت لها كانت أن تقلّد الكيميائي الذي نال جائزة نوبل)، ثم أخذت تراقب الرجل وهو يعمل. فكرت: «لست شخصية من شخصيات جنيف. هو مهتم إذن بشيء آخر. لكنه ليس الرجل الذي يعجبني». كانت تكرّر هذه العبارة بطريقة آلية مذ بدأت تعمل في «كوباكابانا». وكان هذه العبارة خشبة الخلاص والدرع الواقية من الوقوع في أفخاخ القلب.

والآن، بعد أن توضّحت الأمور، قرّرت أن تبقى لأنها لن تخسر شيئاً إذا انتظرت بضع دقائق. لعلّ الخادمة على حق، لعلّ هذا الرجل يفتح أمامها أبواب عالم مجهول حلمت به دوماً؛ ألم تفكّر يوماً بأن تمارس مهنة عرض الأزياء؟

راقبت رشاقته وسرعته في إنجاز عمله. كانت اللوحة التي يرسمها كبيرة جداً لكنها شبه مطوية ولم تستطع رؤية الوجوه الأخرى الموجودة فيها. ماذا لو كان الأمر يشكّل لها فرصة جديدة؟ لم يكن الرجل (قررت أنه كان رجلاً وليس «صبياً») يبدو من النوع الذي يُمهّد من خلال دعوته لتزجية ليلة معها. أنهى عمله بعد خمس دقائق، تماماً كما وعدها، فيما ماريا تحاول إقناع نفسها بأن لا مصلحة لها في اللقاءات التي يمكن أن تعرّض كل مشروعاتها للخطر.

قال الرسام للكيميائي الذي بدا وكأنه خارج من حلم:

ـ شكراً، بإمكانك أن تغادر الآن.

ثم التفت إلى ماريا؛ وقال دون مواربة:

ـ اجلسي هناك في الزاوية واسترخي. النور رائع.

وكما لو أن القدر هيّأ كل شيء، كما لو أنه الأمر الأكثر تلقائية في العالم، كما لو أنها عرفت هذا الرجل طوال حياتها، أو عاشت هذه اللحظة في أحلامها وتدرك ماذا ينبغي لها أن تفعل. أخذت ماريا كوب اليانسون وجزدانها وكتبها ثم اتجهت إلى المكان

الذي أشار إليه الرسام، الطاولة قرب النافذة. جلب الريشات واللوحة، واستحضر مجموعة القوارير التي تحوي مختلف الألوان وعلبة السجائر، ثم جثا أمامها.

ـ احتفظي بهذه الوضعية.

ـ لكنك تطلب الكثير، فحياتي في حركة لا تهدأ.

وجدت ماريا هذه الجملة معبّرة، لكن الرسام لم يولها أي اهتمام. ثم سعت لأن تكون طبيعية لاسيما وأن نظرة الرسام أشعرتها بالراحة.

قالت له وهي تشير إلى الشارع وإلى اللافتة عبر النافذة:

ـ ما هذه الطريق، طريق مار يعقوب؟

ـ طرق للحجّاج. في القرون الوسطى، كان الزوّار يأتون من جميع أنحاء أوروبا ليمرّوا عبر هذه الطريق قاصدين الذهاب إلى «سان جاك دو كومبوستيل» في إسبانيا.

بسط قسماً من اللوحة وجهّز ريشاته. لم تكن ماريا تعرف ماذا عليها أن تفعل.

ـ إذا تبعت هذه الطريق، فهل سأصل إلى إسبانيا؟

ـ يلزمك شهران أو ثلاثة. والآن، هل يمكنك أن تسدي إليّ خدمة؟ ابقي صامتة لأن العمل لن يستغرق أكثر من عشر دقائق، وانزعي هذه الرزمة عن الطاولة.

استجابت، وقد أغاظتها نبرة الرجل الاستبدادية: «ليست رزمة، إنها كتب». عليه أن يعرف هذا الرسام أنه في حضرة امرأة مثقّفة تتردّد إلى المكتبات بدل المخازن. لكنه حمل الكتب بنفسه ووضعها على الأرض بلا تكلّف.

لم تستطع التأثير عليه. في أي حال، لم تكن لديها تلك النيّة. فهذا المكان خارج نطاق عملها، ومن الأفضل أن تحتفظ بسحرها للرجال الذين يستطيعون الإنفاق عليها بسخاء. لمَ الارتباط برسّام؟

هو في الثلاثين من عمره ويرسل شعره على كتفيه، هذا مضحك. هل يملك المال؟ قالت لها فتاة الحانة إنه كان معروفاً، ولم تفهم إن كان المقصود هو أم الكيميائي؟ نظرت إلى ملابسه، لكن هذا التفحّص لم يوفّر لها دليلاً على وضعه المادي. علَّمتها الحياة أن الرجال الذين يرتدون ملابسهم بطريقة لامبالية ـ وهذه كانت حالته ـ يبدون أكثر ثراء من هؤلاء الذين يرتدون البذلة الرسمية وربطة العنق.

«لمَ لا أكف عن التفكير بهذا الرجل؟ ما يهمني هو اللوحة».

ثم إن عشر دقائق ليست ثمناً باهظاً مقابل رسم يستطيع تخليدها. لاحظت أنه يرسمها إلى جانب الكيميائي المتوّج بجائزة نوبل، وتساءلت عما إذا كان سيطلب منها أجراً.

ـ أديري رأسك ناحية النافذة.

أطاعت الأوامر من جديد دون أن تطرح أسئلة. وهذه لم تكن عادتها. نظرت إلى العابرين ولافتة طريق مار يعقوب، وأخذت تتخيّل أن هذه الطريق كانت موجودة لقرون خلت، وأنها استمرت متحدّية التقدّم وتحوّلات العالم وتحوّلات الإنسان. هل كانت بشيراً جيداً؟ يمكن لهذه اللوحة أن تبقى المعبر نفسه، وتعرض في أحد المتاحف بعد خمسمئة عام...

كان الرجل يرسم. وكلَّما تقدّم في عمله، فقدت ماريا حماسها وشعرت أنها تافهة. عندما دخلت الحانة، كانت امرأة واثقة بنفسها، وقادرة على اتّخاذ قرار حسّاس، كأن تترك مهنة تدر عليها مالاً وفيراً، والتخطيط لإدارة مزرعة في بلادها الأم. الآن، تشعر من جديد بعدم الأمان، وهذا شعور لا تستطيع عاهرة أن تجيزه لنفسها.

وأخيراً، أدركت سبب استيائها: للمرة الأولى منذ أشهر عديدة، ينظر إليها أحدهم، ليس بوصفها أداة لذة أو حتى امرأة، بل بطريقة لا يمكن إدراك كنهها: «للمرة الأولى يرى رجل روحي ومخاوفي وضعفي وعجزي عن مواجهة عالم أتظاهر بأنني أتحكّم به، فيما لا أعرف عنه شيئاً».

لكن المضحك في الأمر أن ماريا لا تزال تستعرض أفكارها:

ـ أود لو...

فقال الرجل:

ـ أرجوك. لا تتكلمي. أرى ضوءك.

لم يقل لها أحد ذلك من قبل. كل ما سمعته هو: «أرى نهديك الصلبين»، أرى ساقيك المسكوبتين بروعة»، «أرى جمالك الأكزوتيكي الآتي من البلاد الاستوائية». أو في أفضل الحالات: «أرى أنك تريدين الخروج من هذه الحياة. امنحيني فرصة واشتري لك شقة»... هذه هي التعابير، التي اعتادت سماعها. ولكن... أن يحدثها أحد عن «ضوء» منبعث منها؟.

ثم أضاف الرسام، وقد أدرك أنها لم تفهم شيئاً من كلامه:

ـ أقصد ضوءك الخاص.

ضوء خاص؟ كم أن هذا الرسام ساذج، بعيد عن الحقيقة، لا يعرف أمور الحياة، بالرغم من سنواته الثلاثين. النساء ينضجن بسرعة أكبر من الرجال وهذا أمر لا جدال فيه. صحيح أن ماريا لم تكن تسهر الليالي بطولها لتفكّر في أسرار الحياة، لكنها كانت تعرف شيئاً على الأقل:لا تملك ما يدعوه الرسام «ضوءاً» ولا «بريقاً خاصاً»، على حد علمها. كانت ماريا كسائر البشر تعاني الوحدة بصمت، وتحاول أن تجد مبرّراً لجميع أفعالها، فتتظاهر بأنها قوية عندما تكون ضعيفة، وتصطنع الضعف عندما تكون قوية. تخلّت عن كل تفكير بالشغف لئلّا تخسر عملها. هي الآن قريبة من الهدف الذي خطّطت له. أمامها مشروعات للمستقبل، ووراءها حسرات من الماضي، ولا يستطيع كائن في مثل حالتها أن يمتلك أي «بريق خاص». لعلّ الرسام يردّد هذه العبارة كوسيلة لإجبارها على لزوم الصمت والجمود كبلهاء.

«ضوء خاص»! كان بوسعه إيجاد عبارة أخرى على سبيل المثال: «لديك بروفيل جميل».

كيف ينفذ النور إلى البيت؟ عبر النافذة المشرعة. وكيف يدخل النور قلب الإنسان؟ عبر باب الحب إذا كان مفتوحاً. وبابها ليس مفتوحاً. لا بدَّ أنه رسام سيّىء فعلاً، ولا يفهم شيئاً في الحب.

قال لها:

ــ انتهيت.

لم تغادر ماريا، كانت ترغب في رؤية اللوحة، لكنها خافت أن يبدو طلبها مجافياً للياقة. إلا أن فضولها كان الغالب. سألته أن يريها اللوحة فوافق.

لم يرسم إلا وجهها. وكان الرسم يشبهها. لكن، لو رأت يوماً هذه اللوحة دون أن تعرف صاحبة الرسم لقالت إن المرأة المرسومة فيها شخص أقوى منها بكثير وينبعث منه «ضوء» لا ترى انعكاساً له في المرآة.

ــ اسمي رالف هارت. يمكنني أن أدعوك إلى شرب كأس إذا شئت.

ــ لا، شكراً.

بدأ اللقاء يتخذ منحى متوقّعاً، للأسف: الرجل يحاول أن يغري المرأة.

ثم قالت دون أن تعبأ بجوابه:

ــ لو سمحت، كأسين آخرين من ليكور اليانسون.

هل كان لديها شيء آخر تقوم به أفضل من الجلسة في هذا المقهى؟

ماذا لديها أهمّ مما تفعله الآن؟ أن تقرأ كتاباً مملاً يتحدث عن المزارع؟ أن تتنزّه كما فعلت مئات المرات على ضفاف البحيرة؟ الأفضل أن تتحدّث قليلاً إلى رجل رأى فيها ضوءاً، تماماً في الوقت

الذي كانت تستعد فيه لبدء مرحلة جديدة من حياتها، وإسدال الستار على مرحلة سابقة.

ـ ماذا تفعلين في الحياة؟

هذا هو بالضبط السؤال الذي لم تكن راغبة في سماعه، والذي بسببه خسرت عدداً من اللقاءات، وابتعدت عن كل من يودّ التقرّب منها لسبب ما (وهذا الأمر نادراً ما يحدث في سويسرا، لأن السويسريين متحفّظون بطبعهم). ماذا بإمكانها أن تجيب.

ـ أعمل في حانة ليلية.

هكذا أنزلت عن كتفيها حملاً هائلاً، وشعرت أنها راضية عمّا اكتسبته منذ مجيئها إلى سويسرا: أن تسأل (مثلاً من هم الأكراد؟ ما هي طريق مار يعقوب؟) وأن تجيب (أعمل في حانة ليلية)، دون أن تحفل بما يقوله الآخرون عنها.

ـ أعتقد أنني رأيتك من قبل.

شعرت ماريا أنه يريد الذهاب معها أبعد من ذلك، وراحت تستثمر انتصارها الصغير. رأت الرسام الذي كان يملي عليها الأوامر منذ دقائق قليلة ويبدو واثقاً مما يريده، وقد عاد رجلاً عادياً كالآخرين، قليل الثقة بنفسه أمام امرأة مجهولة.

ـ لم تحملين هذه الكتب؟

أبرزتها له: الزراعة. إدارة المزارع.

ـ هل تعملين في الجنس؟

يرغب في المجازفة. لكن هل سألها ذلك لأنها كانت ترتدي ثياباً كالعاهرات؟ في أي حال، عليها أن تؤجّل الجواب. أيقنت أن الحديث بات مشوّقاً وليس لديها ما تخسره.

ـ لماذا لا يفكر الرجال إلا في هذا؟

أرجع الكتب إلى مكانها، ثم قال:

ـ الجنس والإدارة الزراعية، ميدانان يبعثان حقاً على الملل.

ماذا يقول؟ هل يريد أن يتحدّاها؟ كيف بإمكانه أن يتكلّم بالسوء عن مهنتها؟ حسناً، هو لا يعرف فعلاً في أي ميدان تعمل، ولا بدَّ أنه يعبّر في سؤاله عن فكرة مسبقة، لكنها لم تستطع أن تصمت إزاء جوابه.

ـ حسناً، أعتقد أن هناك أمراً يبعث على الملل أكثر من الجنس والزراعة وهو الرسم. إنه شيء جامد، حركة منقطعة، صورة غير وفية للأصل، علم لا أحد يهتم به، إلا الرسامون طبعاً الذين يعتبرون أنفسهم كائنات عليا نيّرة العقول فيما هم لم يتطوّروا كما فعل سائر البشر.

ـ هل سمعت بخوان ميرو؟

ـ أنا؟ أبداً إلا حين حدّثني عنه رجل عربي في أحد المطاعم، وهذا لم يُحدث أي تغيير في حياتي.

هل بدا جوابها مبالغاً فيه؟ لا تعرف، لا سيما وأن مجيء الخادمة في هذه اللحظة وتقديمها المشروب قطعا عليهما الحوار. بقيا صامتين. فكرت ماريا أن وقت الذهاب قد حان. ولعلَّ رالف هارت يفكّر في الشيء نفسه أيضاً. لكنّ هناك كوبَي شرابٍ مليئين على الطاولة، وهذه ذريعة لكي يبقيا سوية.

ـ لماذا تحملين كتباً عن الزراعة؟

ـ ماذا تعني؟

ـ ذهبت إلى شارع برن عدة مرات ورأيتك في حانة ليلية غالية الثمن. لكنني لم أنتبه لذلك حين كنت أرسمك، لأن الضوء المنبعث منك كان باهراً.

شعرت ماريا بالأرض تدور تحت قدميها. للمرة الأولى في حياتها تشعر بالخجل من مهنتها، رغم أنها لا تملك سبباً وجيهاً لذلك. كانت تعمل لتسدّ حاجتها وحاجة عائلتها. هو من يفترض به أن يخجل لذهابه إلى شارع برن. ها إن الجو الساحر الذي كانت تشعر بأنها ترفّ في أرجائه قد اختفى في لحظة.

ـ اسمع يا سيّد هارت. أنا برازيلية وأعيش في سويسرا منذ تسعة أشهر. تعلّمت أن السويسريين متحفّظون لأنهم يعيشون في بلاد صغيرة حيث الجميع يعرفون بعضهم بعضاً تقريباً. هذا هو السبب الذي من أجله لا أحد يسأل الآخرين عن حياته الخاصة. لذا أرى أن تعليقك ليس في محلّه، ولا ينمّ عن ذوق مرهف. إذا كان هدفك أن تهينني لكي تشعر بارتياح، فإنك تضيّع وقتك سدى. شكراً لليكور اليانسون الرديء الذي سأشربه حتى آخر نقطة. بعدها أنهض وأذهب. لكن، يمكنك أن تغادر فوراً لأنه من غير المستحب أن يجلس رسام مشهور مع عاهرة إلى الطاولة نفسها. هذا ما أنا عليه، هل تعرف، عاهرة، دون أي احساس بالذنب. عاهرة من الرأس حتى القدمين ومن أسفل إلى أعلى. وهنا تكمن فضيلتي: ألا أخدع نفسي وألا أخدعك. لأن الأمر لا يستحق العناء، لأنك لا تستحق أن يكذب المرء من أجلك.

تخيّل لو أن الكيميائي الشهير الجالس هناك في آخر المقهى عرف من أكون؟ (وهنا رفعت صوتها) مجرد عاهرة! هل تعرف؟ هذا يجعلني أشعر بأنني حرة وأنني سأترك هذا البلد اللعين بعد ٩٠ يوماً بالضبط، مكتفية بما جنيته من المال، وأكثر ثقافة مما كنت حين وصلت، وقادرة على معرفة النبيذ الجيد، وأمتعتي مليئة بالصور عن الثلج، وفي ذهني صورة واضحة عن الطبيعة البشرية!.

كانت فتاة الحانة تستمع إليها والارتباك بادٍ على وجهها. وبدا الكيميائي وكأنه لا يوليها انتباهاً. لعلَّ ما دفعها إلى قول ذلك هو المشروب الروحي أو لعله اليقين بأنها ستعود عمّا قريب برازيلية من نوردستا. المهم أنها شعرت بنفسها خفيفة لأنها استطاعت الاعتراف بمهنتها وعدم الاكتراث لردود الفعل التي يمكن أن يثيرها ذلك، لا بنظرات المصدومين الجارحة، ولا بحركاتهم المستنكرة.

ـ هل فهمت يا سيد هارت ما أقوله؟ عاهرة من الأسفل إلى

الأعلى ومن قمة الرأس إلى أخمص القدمين. هذه صفتي وهذه فضيلتي!

لاذ بالصمت وبقي جامداً. شعرت ماريا أنها استعادت ثقتها بنفسها.

ــ أما أنت فرسّام لا يفهم شيئاً في موديلاته. قد يكون الكيميائي الجالس هناك وشبه النائم عاملاً في سكّة الحديد. وقد تكون الشخصيات الأخرى في لوحتك مغايرة لما هي عليه في الحقيقة. وإلا لما ادّعيت إطلاقاً أنك رأيت «ضوءاً خاصاً» لدى امرأة هي، كما رأيت، عا ــ هـ ــ رة.

تلفّظت بالكلمة الأخيرة على مهل وبصوت قوي. استيقظ الكيميائي وأتت الخادمة بالحساب.

تجاهل رالف الملاحظة وقال بتمهّل وبصوت منخفض:

ــ لا أتكلم عن العاهرة الموجودة داخلك بل عن المرأة. هناك ضوء منبعث منك، ضوء الإرادة، ضوء كائن قادر أن يضحّي بأشياء مهمة على حساب أشياء أخرى يعتبرها أكثر أهمية. العينان.. هذا الضوء يظهر في العينين.

شعرت ماريا أنها بلا سلاح، لأنه لم يرفع سقف المواجهة والتحدي. أرادت أن تعتقد أنه يسعى إلى إغوائها. لكن هذا لا يهمها. هذا أمر تجاوزته منذ زمن بعيد، ولا تظن أنه يوجد رجال مثيرون للاهتمام، على الأقل في الأيام التسعين المقبلة.

ثم أضاف:

ــ هل ترين ليكور اليانسون هذا أمامك؟ حسناً، أنت لا ترين إلا ليكور اليانسون. أما أنا، وبما أنه عليَّ الذهاب أبعد من ذلك، فأرى النبتة التي أنتجته والعواصف التي واجهتها هذه النبتة، واليد التي قطفتها وفصلت حبوبها، وسفرها في الباخرة من قارة إلى أخرى، والعطر واللون اللذين كانا لهذه النبتة قبل أن تتفاعل مع الكحول. ولو كنت أريد يوماً أن أرسم هذا المشهد، لرسمت كل

ذلك. لكنك، عندما تشاهدين هذه اللوحة فستجدين فيها كوباً تافهاً من ليكور اليانسون.

كذلك، عندما كنت تنظرين إلى الشارع وتفكّرين في طريق مار يعقوب ـ أعرف أنك فكرت في ذلك ـ كنت أرسم طفولتك ومراهقتك وأحلامك الضائعة ومشروعاتك المستقبلية وإرادتك ـ وهذا ما يحيّرني أكثر من أي شيء آخر. عندما رأيتِ اللوحة...

ـ رأيت هذا الضوء...

ـ ... حتى ولو كانت المرأة هناك مجرّد امرأة تشبهك.

خيَّم على أجواء المكان صوت ثقيل من جديد. نظرت ماريا إلى ساعتها.

ـ عليّ الذهاب، لماذا تقول إن الجنس يبعث على الملل؟

ـ يجدر بك أن تعرفي أكثر مني.

ـ أعرف ذلك لأنني أعمل في هذا الميدان. إنه الروتين نفسه كل يوم. لكن أنت، أنت رجل في الثلاثين...

ـ بل في التاسعة والعشرين.

ـ أنت شاب جذّاب ومشهور، ولا حاجة بك للذهاب إلى شارع برن بحثاً عن رفيقة!

ـ كنت بحاجة لذلك. ضاجعت بضعاً من زميلاتك. لكنني لم أقم بذلك لأنه يتعذّر عليّ الفوز بقلب امرأة. إن مشكلتي مع نفسي.

شعرت ماريا بلدغة من الغيرة وأيضاً بالخوف. عليها الانصراف الآن ومن دون تردد.

قال رالف وهو يلملم أغراضه المبعثرة على الأرض:

ـ كانت تلك محاولتي الأخيرة. الآن تخلّيت عن ذلك.

ـ هل تعاني مشكلة جسدية؟

ـ لا، فقط من فقدان الاهتمام بالجنس.

ليس ذلك ممكناً.

ـ سدّد الحساب ولنخرج في نزهة. أظن أن ناساً كثيرين يعانون المشكلة نفسها، لكن أحداً منهم لا يعترف بذلك. من الجدير التحدّث إلى شخص بهذا الصدق!.

سارا على طريق مار يعقوب باتجاه النهر الذي ينحدر إلى البحيرة. كان النهر يواصل مسيره عبر الجبال لينتهي في منطقة بعيدة في إسبانيا. التقيا العابرين الذين انتهوا من تناول الغداء، وأمهات يدفعن عربات أطفالهن، وسيّاحاً يلتقطون صوراً للفوّارة وسط البحيرة، ونساء مسلمات يرتدين أحجبة، وفتياناً وفتيات يمارسون رياضة الجوكينغ، وجميعهم حجّاج يبحثون عن المدينة الأسطورية: سان جاك دو كومبوستيل، التي ربَّما لم تكن موجودة، أو ربما كانت أسطورة يؤمن بها هؤلاء الذين يودّون، إعطاء معنى لحياتهم. وعلى هذه الطريق التي يعبرها الكثير من الناس لأزمنة خلت، يمشي أيضاً هذا الرجل ذو الشعر الطويل الذي يتأبّط جعبة مليئة بالريشات وقوارير الألوان واللوحات والأقلام، وتمشي إلى جانبه فتاة أكثر فتوّة منه، وهي تتأبط كتباً عن الإدارة الزراعية. إن أحداً منهما لم يفتّش عن السبب الذي دفعهما للقيام بهذا الحج معاً، مع أنه الأمر الأكثر تلقائية في الوجود: الشاب كان يعرف كل شيء عنها؛ أما هي، فلا تعرف شيئاً عنه.

لذا قرّرت، من الآن فصاعداً، أن تطرح عليه أسئلة. ستطرح أسئلة عن كل شيء. في البداية أدّى دور الخجول؛ لكنها باتت قادرة على الحصول على ما تريد من الرجال. أخبرها أخيراً أنه تزوّج مرتين (وهذا رقم قياسي مقارنة بسنواته التسع والعشرين!)، وسافر كثيراً، والتقى الملوك والممثّلين المشهورين، وشارك في احتفالات لا تنسى. ولد في جنيف، وعاش في مدريد وأمستردام ونيويورك وفي مدينة جنوبي فرنسا تدعى تارب وهي لا تقع على أي خط سياحي

معروف، لكنه كان يعبرها لقربها من الجبال، ولطيبة أهلها ومرحهم. اكتُشفت موهبته الفنية عندما كان في العشرين، حين جاء تاجر كبير للوحات الفنية وتناول الغداء مصادفة في مطعم ياباني بجنيف، فأعجبه ديكور المطعم الذي كان هو مصمّمه. جنى مالاً كثيراً. كان شاباً ومتعافياً ويستطيع أن يفعل ما يريد، وأن يذهب حيث يشاء، ويلتقي من يرغب. عرف جميع الملذّات التي يمكن لرجل أن يختبرها، وكان يحب مهنته. لكن، ورغم كل شيء، رغم الشهرة والمال والنساء والأسفار، كان تعيساً، ولا يملك إلا متعة واحدة في حياته، هي الرسم.

ـ هل سبّبت لك النسوة الألم؟

طرحت ماريا هذا السؤال، وسرعان ما أدركت أنه سؤال غبي، لأنه بدا وكأنه خارج من ذاك الكتاب: «كل ما تريد المرأة أن تعرفه لكي تأسر قلب الرجل».

ـ لا، لم يسبّبن لي الألم إطلاقاً. كنت سعيداً جداً في زيجتيَّ. خانتني زوجتي وبادلتها الخيانة بالمثل، كما كل المتزوجين. لكن، بعد مرور فترة من الزمن، لم يعد الجنس يثير اهتمامي. واصلت حبي لزوجتي، وكنت أتوق إلى وجودها معي، ولكن الجنس... لماذا نتحدث عن الجنس؟

ـ لأني، كما قلت بنفسك، عاهرة.

ـ حياتي غير مثيرة للاهتمام. أنا فنان نجح وهو لا يزال صغير السن. وهذا نادر في الفن وبخاصة في الرسم. فنان استطاع أن يرسم كل اللوحات وينال الجوائز الكثيرة رغم الانتقادات المسعورة التي وجّهها إليه النقّاد لأنهم الوحيدون الذين يعرفون ما هو الفن. أنا من الأشخاص الذين يظن الجميع أنهم يملكون الإجابات عن كل شيء. والسبب أنه بقدر ما نلوذ بالصمت، نبدو أذكياء في نظر الآخرين.

واصل سرد قصة حياته: كل أسبوع يُدعى إلى مكان ما. كانت لديه وكيلة أعمال في برشلونة (سأل ماريا إن كانت

تعرف أين هي موجودة فأجابت، نعم، في إسبانيا) تهتم بكل ما يتعلّق بالمال والدعوات والمعارض. والأهم من ذلك أنها لا تجبره على القيام بما لا يرغب فيه. بعد سنوات من العمل معاً، استطاعا التوصّل إلى تسعيرة ثابتة في سوق اللوحات الفنية.

قال، وفي صوته نبرة استياء:

ـ هل قصتي مثيرة للاهتمام؟

ـ أرى أنها ليست قصة سخيفة. وأعتقد أن ناساً كثيرين يرغبون في أن يكونوا مكانك.

والآن، يريد رالف أن يعرف من تكون ماريا.

ـ في داخلي ثلاث نسوة ويمكن لمن ينظر إليَّ أن يرى أي واحدة منهن. هناك الفتاة الصغيرة الساذجة التي تنظر إلى الرجل بإعجاب، وتتظاهر بأنها متأثّرة بقصصه عن السلطة والمجد، ثم المرأة المُغوية التي تقضي دفعة واحدة على جميع الرجال الذين لا يملكون ثقة بأنفسهم، فتسيطر على الأمور وتوفّر لهم الطمأنينة، فينتفي الداعي إلى القلق حيال أي شيء. وأخيراً الأم الحنون التي تبذل النصح للرجال المتعطّشين إلى المعرفة، وتصغي باهتمام بالغ إلى مشكلاتهم، وهي في الحقيقة لا توليهم أدنى اهتمام. أيّ من هؤلاء النساء تريد أن تعرف؟

ـ أنتِ.

عندئذٍ، روت ماريا كل شيء. كانت محتاجة إلى ذلك. إنها المرة الأولى التي تعترف بكل شيء منذ تركت البرازيل. عندما أنهت قصتها، أدركت أنها لم تشعر قط بانفعالات كبيرة، ما عدا الأسبوع الذي قضته في ريو دي جانيرو، والشهر الأول لوجودها في سويسرا. عدا ذلك، كان الأمر مقتصراً على الذهاب من البيت إلى العمل ومن العمل إلى البيت.

عندما أنهت قصتها، كانا جالسين من جديد في إحدى الحانات

الواقعة في الجهة الأخرى من المدينة، بعيداً عن طريق مار يعقوب. كان كل منهما يفكّر فيما خبّأه القدر للآخر.

ثم سألت:

ـ ماذا عليّ أن أقول بعد؟

ـ إلى اللقاء مثلاً.

أجل، لم يكن بعد الظهيرة هذا عادياً. شعرت ماريا أنها قلقة متوتّرة، لأنها فتحت باباً ولا تعرف كيف تغلقه.

ـ متى أستطيع رؤية اللوحة؟

أعطاها رالف بطاقة وكيلة أعماله في برشلونة، وقال:

ـ اتّصلي بها بعد ستة أشهر إذا كنت لا تزالين في أوروبا، وسليها عن لوحة «وجوه جنيف»، وهي تضم شخصيات مشهورة، وأخرى غير معروفة. ستُعرض للمرة الأولى في صالة عرض في برلين، وتقوم، من ثَمَّ، بجولة في أنحاء أوروبا.

تذكّرت ماريا الروزنامة. تذكّرت الأيام التسعين التي بقيت، وتمثّلت الخطر الذي يمكن أن تجرّها إليه أي علاقة طارئة برجل.

فكّرَتْ مليّاً وتساءلت: «ما هو الأهم في الحياة؟ العيش أم التظاهر بأننا عشنا؟ هل أجازف وأقول إن بعد ظهيرة هذا اليوم: حيث أصغى إليَّ أحدهم دون أن يوجّه إليّ انتقاداً جارحاً، هو الوقت الأجمل الذي قضيته؟ أم عليَّ أن أكتفي بصورة المرأة الحازمة الإرادة التي يشعّ وجهها ضوءاً، وأن أرحل دون أن أضيف شيئاً؟»

فيما كانا يمشيان على طريق مار يعقوب، وفيما كانت ماريا تستمع إلى نفسها وهي تروي قصة حياتها، أحسّت بسعادة عارمة. كان بإمكانها أن تكتفي بذلك، بهذه الهدية الكبيرة من الحياة.

قال رالف هارت:

ـ سآتي لرؤيتك.

ـ لا تفعل. سأعود قريباً إلى البرازيل. ليس لدينا شيء آخر نقوله.

ـ سآتي إلى رؤيتك لأتلمّس طريق النجاة.

حين اعترف لها بفقدان اهتمامه بالجنس، أرادت أن تقول له إنها تشعر بالشيء نفسه، لكنها تمالكت أعصابها. كانت قد ذهبت بعيداً في مواقفها المتنكرة، ومن الحكمة أن تصمت.

كان الأمر مؤثّراً: رأت نفسها من جديد أمام صبي صغير، لكنه مختلف عن ذاك الذي عرفته في طفولتها، لم يكن يطلب قلماً، بل قليلاً من المودّة. التفتت إلى ماضيها، ولأول مرة شعرت أنها غفرت لنفسها. لم تكن الغلطة غلطتها بل غلطة الصبي الذي كان يفتقر إلى الثقة بنفسه، والذي تراجع عن موقفه عند أول محاولة. كانا طفلين، والأطفال يتصرّفون على هذا النحو. لا هي ولا الصبي إذن كانا مخطئين. أشعرها هذا بارتياح كبير. أحسَّت أنها أفضل حالاً، ولم تتنكّر لأول فرصة أتيحت لها في الحياة. الجميع يتصرّفون هكذا. وهذا يشكّل جزءاً من مسيرة الكائن البشري الباحث دوماً عن نصفه الآخر المفقود.

لكن الوضع مختلف الآن. مهما تكن الأسباب وجيهة (سأعود إلى البرازيل؛ أعمل في حانة ليلية، لم يتسنَّ الوقت لنا لنتعرف أحدنا إلى الآخر بشكل كافٍ؛ لا أهتم بالجنس؛ لا أريد أن أعرف شيئاً عن الحب؛ عليَّ أن أتعلّم كيف أدير مزرعة؛ لا أفهم شيئاً في الرسم؛ ننتمي إلى عالمين مختلفين...). إنها في مواجهة التحدي الذي فرضته الحياة، وعليها أن تختار لأنها لم تعد طفلة.

آثرت الصمت، ولم تنبس بكلمة، ضغطت على يده كما هي العادة في هذه البلاد ورجعت إلى المنزل. إذا كان هو فعلاً الرجل الذي تحلم به وتريد أن يكون حبيبها، فلن يجعله صمتها يتراجع أو يخاف.

وهذا مقتطف من يوميات ماريا، كتبته في اليوم نفسه الذي التقت فيه رالف هارت:

«اليوم، فيما كنا نمشي على ضفاف البحيرة، على طريق مار يعقوب الغريبة، رمى الرجل الذي كان برفقتي، وهو رسام وحياته مختلفة تماماً عن حياتي، حجراً صغيراً في الماء. رسم الحجر دوائر في الماء كانت تندفع نحو المركز باطّراد إلى أن بلغت الدوائر مصادفة بطة كانت تسبح هناك. فبدلاً من أن تخاف البطة من هذه التموجات غير المتوقعة، أخذت تلهو معها.

وقبل ساعات من ذلك، دخلت أحد المقاهي وسمعت صوتاً. بدا الأمر كما لو أن الله رمى حجراً في هذا المكان. الأمواج الحية لامستني ولامست رجلاً كان يرسم في الزاوية. شعر باهتزاز الحجر وأنا أيضاً. والآن ما العمل؟

يعرف الرسام أين يجد موديله، ويعرف الموسيقي كيف يدوزن آلته. وهنا، في يومياتي، أدرك أن بعض الجمل ليست أنا من يكتبها بل المرأة التي تشعّ بالضوء، والتي تكمن في داخلي، لكنني أرفض النظر إليها.

بإمكاني مواصلة حياتي على هذا النحو. لكن بإمكاني أيضاً، كبطة البحيرة، أن أتمتّع وأفرح بالتموّجات التي دغدغَتْ فجأة صفحة الماء.

لهذا الحجر اسم هو الشغف. بإمكان هذا الاسم أن يصف حلاوة

اللقاء الصاعق بين شخصين، لكنه لا يقف عند هذا الحد. الشغف هو الإثارة التي يحدثها ما هو غير متوقَّع، هو الرغبة في التصرف بورع، واليقين أننا سننجح في تحقيق الحلم الذي طالما راودنا. يرسل الشغف إلينا إشارات لنهتدي بها في حياتنا، ويجب أن نعرف كيف نفك رموز هذه الإشارات.

يغريني التفكير أنني مغرمة بأحد لا أعرفه، ولم يكن اسمه وارداً على لائحة مشاريعي. كل هذه الأشهر التي نجحت خلالها في ترويض نفسي وفي رفض فكرة الحب ذهبت سدىً: ها إني أستسلم لأول شخص أولاني اهتماماً مختلفاً عن الآخرين.

لحسن الحظ، لم أطلب رقم هاتفه ولا أعرف أين يقيم، وباستطاعتي أن أخسره دون أن أشعر بالذنب.

وإذا كان هذا هو الواقع وفقدته فعلاً، فحسبي أنني ربحت يوم سعادة في حياتي، ويوم سعادة في هذا العالم بما هو عليه، أشبه بمعجزة».

رجعت ماريا في ذلك المساء إلى «كوباكابانا». كان الرجل هناك، ينتظرها. كان الزبون الوحيد. تابع ميلان بفضول تصرّفات هذه الفتاة البرازيلية، ورأى أنها قد بدأت تخسر المعركة.

ـ هل تقبلين دعوتي لشرب كأس؟

ـ عليَّ العمل ولا أستطيع أن أخسر وظيفتي.

ـ أنا زبون وأقدم لك اقتراحاً يتعلّق بوظيفتك.

هذا الرجل الذي كان بعد الظهر واثقاً بنفسه تمام الثقة وبارعاً في استخدام الريشة. هذا الرجل الذي كان يلتقي أشخاصاً رفيعي المستوى ولديه وكيلة أعمال في برشلونة ويجني المال الوفير، بدا في هذه اللحظة هشّاً مرتبكاً مُستدرَجاً في مكان لا يليق به. لم يكن في مقهى رومنطيقي على طريق مار يعقوب. من العبث استعادة ذاك الجو الساحر الذي أحسَّت به بعد الظهيرة.

ـ توافقين إذن؟

ـ أوافق، لكن ليس الآن. اليوم لديَّ زبائن ينتظرونني.

سمع ميلان نهاية الجملة، وأدرك أنه أخطأ في تقديره. لم تقع الصغيرة في فخ وعود الحب. لكنه، مع ذلك، تساءل، عند انتهاء السهرة التي لم تكن أجواؤها كثيرة الدفء، لماذا فضّلت الفتاة الخروج مع عجوز ومحاسب سخيف ووكيل تأمين... في أي حال، هذا شأنها. وما دامت تدفع له المبلغ المتوجّب عليها، فليس من شأنه أن يقرّر من عليها أن تضاجع.

وهذا ما كتبته ماريا بعد انتهاء السهرة التي قضتها برفقة العجوز والمحاسب ووكيل التأمين:

«ماذا يريد هذا الرسام مني؟ ألا يدرك أننا من بلدين مختلفين وننتمي إلى ثقافتين مختلفتين؟ هل يظن أنني أعرف عن اللذة أكثر منه، هل يريد أن يتعلّم شيئاً لا يعرفه من قبل.

لماذا لم يقل لي شيئاً آخر غير هذه العبارة: «أنا زبون»؟ كان من السهل عليه أن يقول: «اشتقت إليك»، أو «كان بعد الظهر الذي قضيناه معاً رائعاً»، وكنت أجبته بالطريقة نفسها (فأنا محترفة). يجدر به أن يتفهّم قلقي لأنني امرأة، ولأنني هشة، ولأنني أيضاً شخص مختلف في ذلك المكان.

هو رجل وفنّان، وعليه أن يعرف أن هدف الكائن البشري هو أن يدرك الحب المطلق. الحب ليس في الآخر. إنه موجود داخلنا، ونحن من نوقظه من غفوته. لكننا، ولكي نوقظه، نحتاج إلى الآخر. ليس للكون من معنى إلا حين يكون لدينا أحد يشاطرنا انفعالاتنا.

هل كان سئماً من الجنس؟ أنا أيضاً. ومع ذلك، لا هو ولا أنا نعرف ما هو الجنس. نتخلّى عن أحد الأشياء الأكثر جوهرية في الحياة، ونجعلها تموت فينا. كنت بحاجة لأن ينقذني، وكان محتاجاً لأن أنقذه، لكنه لم يترك لي أي خيار».

كانت ماريا خائفة أدركت أن قدرة السيطرة على مشاعرها قد أخفقت، وأن هذا الضغط وهذا الزلزال وهذا البركان في داخلها، تنذر كلها بانفجار كبير لن تتمكّن معه من ضبط أحاسيسها. من كان هذا الفنان اللعين؟ تُرى هل يكذب بشأن ما قاله لها؟ لم تقضِ برفقته إلا بضع ساعات فقط ولم يلمسها ولم يحاول إغواءها. هل هناك أسوأ ممّا يحصل لها؟

لماذا يدق قلبها ناقوس الخطر؟ لماذا كانت تعتقد أنه يشعر بالشيء نفسه؟ ألم يكن بديهياً أنها مخطئة في كل تقديراتها؟ كان رالف يرغب في أن يلتقي امرأة تستطيع أن تشعل داخله النار المنطفئة أو شبه المنطفئة. لعلّه كان يرغب أن يجعل منها إلهة الجنس العظيمة المشرقة «بضوء خاص» (وفي هذا كان صادقاً) المستعدة لأن تأخذ بيده وتدلّه على طريق العودة إلى الحياة. كان عاجزاً أن يفهم أن ماريا تشعر مثله بفقدان الاهتمام نفسه تجاه الجنس الآخر، وأن لديها مشكلاتها هي بالذات (كل هؤلاء الرجال الذين عرفتهم فشلوا في إيصالها إلى مرحلة النشوة الجنسية خلال الإيلاج)، وأنها تخطط لمشروع العودة إلى بلادها الأم.

لكن لماذا لا تني تفكّر فيه طوال الوقت؟ لماذا تفكر في رجل قد يكون منصرفاً في هذه اللحظة إلى رسم امرأة أخرى يقول لها إن في داخلها «ضوءاً خاصاً، وإنها إلهة الجنس التي طالما انتظرها؟

«أفكر فيه لأنه جعلني أتكلم».

أمر مضحك! هل تخطر على بالها أمينة المكتبة؟ لا. هل تفكر في نيا الفيليبينية، وهي الوحيدة بين نساء «كوباكابانا» التي استطاعت أن تشاطرها مشاعرها؟ لا، لا تفكر بهما، مع أنها كانت ترتاح لرفقتهما.

حاولت أن تصرف انتباهها عن الموضوع، وتفكّر بحرارة الطقس أو بزيارة «السوبر ماركت» التي لم تستطع الذهاب إليها البارحة. ثم قرّرت أن تكتب رسالة طويلة لأبيها، مليئة بالتفاصيل عن الأرض التي تودّ شراءها. وهذا سيفرح قلب والديها. لم تشر إلى تاريخ عودتها لكنها أوحت أنه قريب. ثم نامت واستفاقت ثم نامت من جديد واستفاقت. أدركت أن الكتاب عن الإدارة الزراعية مناسب للسويسريين، لكنه لا يحمل أي فائدة للبرازيليين، لأن سويسرا والبرازيل عالمان مختلفان كثيراً.

بعد الظهيرة، استنتجت أن الزلزال والبركان والضغط، جميعها قد هدأت. استرخت. سبق لها أن عرفت هذا النوع من الشغف المفاجىء الذي سرعان ما يخمد ويتلاشى دائماً في اليوم التالي. لحسن الحظ بقي عالمها كما كان: لديها عائلة تحبها ورجل ينتظرها ويكتب إليها غالباً ليقول لها إن محل النسيج يزدهر. لديها ما يكفي من المال لتسافر هذا المساء إن شاءت وتبتاع قطعة أرض صغيرة. اجتازت الحواجز الأكثر صعوبة، حاجز اللغة والوحدة واليوم الأول في المطعم مع العربي، ونجحت في أن تقنع روحها بعدم التذمر مما يفعله جسدها. كانت تعرف تماماً حلمها وكانت مستعدة لتحقيقه. لا يوجد لرجل مكان في هذا الحلم. على الأقل، لا يوجد فيه رجال لا يتكلّمون لغتها الأم ولا يعيشون في مدينتها الأم.

عندما توقّف الزلزال، عرفت ماريا أنها مذنبة جزئياً، لأنه كان يفترض بها أن تقول له: «أنا وحيدة. أنا أكثر تعاسة منك. البارحة،

رأيت «ضوءاً» في داخلي وكان هذا أول شيء جميل وصادق يقوله لي رجل مذ وصلت إلى هنا».

في هذا الوقت كان جهاز الراديو يبث أغنية قديمة: «حبي يموت قبل أن يبدأ». هكذا كان قدرها، شبيهاً بتلك الأغنية.

وهذا مقطع من يوميات ماريا بعد يومين من هدوء العاصفة وعودة الأمور إلى مجاريها مجدداً:

«تحت تأثير الشغف، نتوقّف عن الطعام والنوم والعمل وتكفّ حمائم السلام عن التحليق فوقنا. ثمة ناس كثيرون يخافون من الشغف، لأنه يدمّر في طريقه كل ما يتعلق بالماضي.

ولا يرغب أحد منّا في رؤية عالمه منهاراً. لذا يحاول الكثيرون السيطرة على الخطر الذي يتهدّد عالمهم ويتوصّلون إلى البقاء صامدين أمام العاصفة وهي في أساسها أشبه بالغبار. هؤلاء هم مهندسو الأشياء التي تخطّاها الزمن.

وهناك من يتصرّفون عكس ذلك، يستسلمون دون تفكير للشغف، آملين أن يجدوا فيه الحل لجميع مشكلاتهم؛ يوكلون إلى الآخر أمر إسعادهم ويحمّلونه أيضاً وزر تعاستهم. هم إما في حالة اغتباط لأنهم يشعرون أن شيئاً رائعاً يحصل لهم، وإما في حالة إحباط لأن هذا الحدث غير المتوقع الذي حلَّ بهم دمّر لديهم كل بارقة من الأمل.

هل ينبغي الاحتماء من الشغف أم الاستسلام له بطريقة عمياء؟ أيّ من هذين الموقفين أقلّ تدميراً للنفس؟

لا أعرف».

وفي اليوم الثالث عاد رالف هارت وكأنه قام من بين الأموات. كاد يصل متأخراً جداً، لأن ماريا كانت تتحدث إلى أحد الزبائن. لكن، ما إن رأته حتى بررت لزبونها بلياقتها المعهودة أنها لا تريد أن ترقص، وأنها تنتظر أحدهم.

عندئذٍ، فقط، أدركت أنها انتظرته طوال هذه الأيام، وأنها تستطيع في هذه اللحظة أن تستسلم لما كتبه لها القدر.

ليس لها أن تشتكي، كانت سعيدة وقادرة أن تجيز لنفسها هذا الشعور لأنها ستغادر يوماً هذه المدينة. وكانت تعرف أن هذا الحب مستحيل، ولا تستطيع أن تؤمل النفس بشيء، لكنها سعيدة.

اقترح عليها رالف شراباً فطلبت ماريا عصير فواكه. تظاهر صاحب الحانة بغسل الأكواب. نظر إلى البرازيلية دون أن يفهم: ما الذي جعلها تغيّر رأيها؟ أمِل ألا تبقى مستغرقة لوقت طويل في احتساء كوب العصير، وارتاح أخيراً عندما جذبت ماريا الرجل إلى حلبة الرقص. كانا يتممّان الطقوس، وليس هناك ما يدعو للقلق.

أحسّت ماريا بيده تطوّق خصرها ووجهه ملتصقاً بوجهها، وكانت الموسيقى الصاخبة، ولله الحمد، تقطع عليهما كل حوار. لم يكن عصير الفواكه كافياً لتستعيد شجاعتها، واقتصرت الكلمات القليلة التي تبادلاها على الشكليات المعهودة. المسألة الآن مسألة وقت: هل سيذهبان إلى أحد الفنادق ويمارسان الحب؟ ليس الأمر صعباً على الإطلاق، لا بل هو إتمام لالتزاماتها المهنية. كما أنه

يساعدها في القضاء على كل أثر للشغف. أخذت تتساءل عن سبب عذابها الفظيع بعد لقائهما الأول.

هذا المساء، ستكون الأم المتفهمة. كان رالف رجلاً يائساً شبيهاً بآلاف الرجال الآخرين. إذا أدت دورها جيداً، إذا توصلت إلى استكمال السيناريو الذي وضعته لنفسها منذ بداية عملها في «كوباكابانا»، فلن يكون لديها ما تقلق بشأنه. لكنها تشعر أن خطراً كبيراً يتهددها بالقرب من هذا الرجل. ها هي الآن تشمّ رائحته، وتحبها، وتكتشف ملمس جسده وتحبه، وتعرف أنها تنتظره. وهذا لا يعجبها إطلاقاً.

في زهاء خمس وأربعين دقيقة أتمّا مراحل الطقوس. توجّه الرجل إلى صاحب الحانة قائلاً: «سأصطحبها لباقي الليل وأدفع عن ثلاثة زبائن».

هزَّ صاحب الحانة كتفيه مفكّراً من جديد أن البرازيلية تعرّض نفسها للوقوع في فخ الحب. أما ماريا، فقد فوجئت بأن رالف هارت يعرف جيداً قوانين الحانة.

- «تعالي نذهب إلى بيتي».

فكّرت ماريا أن هذا القرار هو الأفضل، مع أنه مخالف لتوصيات ميلان. سُرّت لأنها ستقوم بعمل استثنائي. بالإضافة إلى أنها ستكتشف إن كان متزوجاً أم لا، ستتمكن أيضاً من رؤية الطريقة التي يعيش فيها الرسامون المشهورون، وبوسعها أن تنشر ذات يوم مقالاً في الجريدة المحلية عن الموضوع. وهكذا يعرف الجميع أنها عاشرت، خلال إقامتها في أوروبا، جماعة من المفكرين والفنانين.

يا للحجة الواهية!

بعد نصف ساعة وصلا إلى قرية قريبة من جنيف تدعى كولونيي وفيها كنيسة وفرن ومبنى رسمي. كان يسكن فعلاً في منزل بطابقين وليس في شقة. هذا أولاً: أي انه ثري. وثانياً لم

يكن متزوجاً. لأنه لو كان كذلك، لما تجرأ ودعاها إلى بيته، خوفاً من إثارة الشبهات.

إذن هو ثري وأعزب.

دخلا إلى قاعة فيها درج يؤدّي إلى الطابقين، لكنهما تابعا التوجّه إلى غرفتين في آخر الطابق تشرفان على الحديقة، إحداهما تكسو اللوحات جدرانها وهي بمثابة غرفة طعام، والأخرى تحوي بضع أرائك وكراسيّ ورفوف مزدانة بالكتب ومنافض وأكواب متسخة.

«بإمكاني تحضير القهوة».

رفضت ماريا اقتراحه بحركة من رأسها. لا يستطيع أن يستمر في معاملتي بشكل مختلف إلى هذا الحد. سأتحدّى شياطيني ولن أنكث بوعودي. لكن، مهلاً، اليوم أؤدي دور العاهرة أو الصديقة أو الأم المتفهّمة، مع أنني، في داخلي، فتاة تتحرّق شوقاً للعطف والحنان. انتظرْ. فقط عندما ينتهي كل شيء، تستطيع أن تحضّر لي فنجان قهوة.

ـ في آخر تلك الحديقة أودعتُ روحي مع محترفي وهنا، بين كل هذه اللوحات والكتب أودعتُ عقلي مع أفكاري.

تذكّرت ماريا شقتها. لم يكن هناك حديقة ولا كتب، باستثناء تلك التي استعارتها من المكتبة، لأنها ترى أن من غير المجدي إنفاق المال على أشياء نستطيع الحصول عليها مجاناً. ولم تكن هناك لوحات، فقط بوستر عن سيرك شانغهاي البهلواني الذي كانت تحلم أن تشاهد عرضاً من عروضه.

تناول رالف زجاجة ويسكي وقدّمها لماريا.

ـ لا، شكراً.

سكب لنفسه كأساً من دون ثلج واحتساها دفعة واحدة. طفق يتكلّم ببراعة. لكنه وإن حاول أن يعمد إلى أسلوب التلميح في

حديثه، فإن ماريا تعرف أن الرجل يحاول أن يُخفي ارتباكه في تلك اللحظة التي يقف فيها وحيداً إزاءها. لذا أحكمت سيطرتها على الوضع مجدداً.

سكب رالف لنفسه كأساً ثانية، ثم قال وكأنه ينطق بشيء لا أهمية له:

ـ أحتاج إليك.

استراحة. صمت طويل. لم يسعَ رالف أن يقطع حبل الصمت.

ثمَّ، فلنرَ كيف استأنف كلامه:

ـ أحتاج إليك ماريا، هناك ضوء ينبعث منك، حتى لو كنت لا تثقين بي الآن، حتى لو كنت تفكّرين فقط أنني أحاول إغواءك بهذا الكلام. لا تقولي: لماذا اختارني أنا؟ وأي شيء أمتلكه دون سائر النساء؟ ليس لديك أي ميزة خاصة، على الأقل، لا شيء أستطيع تفسيره. ومع ذلك، وهذا سر من أسرار الحياة الكثيرة، لا أستطيع التفكير في شيء آخر.

قالت ماريا وكانت تكذب:

ـ لن أطرح عليك هذا السؤال.

ـ لو بحثت عن سبب لقلت إن المرأة التي تقف أمامي استطاعت أن تواجه متاعب الحياة وتحوّلها إلى عناصر إيجابية وخلّاقة. لكن هذا أيضاً لا يفسّر كل شيء.

لم يعد التملّص ممكناً، كانت تشعر بدقّة الموقف.

ثم أضاف:

ـ وأنا؟ مع كل إبداعي ولوحاتي التي تتنافس صالات العرض عليها في العالم أجمع، وحلمي الذي بات في متناول يدي، وقريتي التي جعلتني ولدها المدلل، وزوجتي اللتين لم تطالبا بتعويض بعد طلاقهما، وصحتي الجيدة، ومظهري الحسن، أي كل ما يطمح رجل إلى امتلاكه... ها أنا أقول لامرأة التقيتها في أحد المطاعم ولم أقضِ

معها سوى فترة بعد الظهيرة، أقول: «أحتاج إليك». لكن هل تعرفين ما هي الوحدة؟

ـ أعرف.

ـ لا، لا تعرفين ما هي الوحدة حين تُتاح للمرء إمكانية اللقاء بالعديد من البشر، وحين يتلقّى كل يوم دعوة لاحتفال أو حفلة كوكتيل أو عرض تمهيدي لمسرحية؛ عندما لا يكفّ الهاتف عن الرنين، وتتّصل به المعجبات اللواتي يرغبن في تناول العشاء معه: نساء جميلات وذكيات ومثقّفات. إلا أن هنالك شيئاً يجعله لا يستجيب لتلك الدعوات التي لا توفّر له المتعة المرجوّة، إذا سعى أن يظهر بمظهر القادر على إغواء النساء... لذا، أفضّل البقاء في البيت وأدخل محترفي لأتلمس الضوء الذي انبعث من وجهك في ذاك اليوم، ولا أتوصل إلى رؤيته إلا عندما أرسم.

قالت ماريا، وهي تشعر أن هذا التلميح عن النساء الأخريات، يُهينها وقد نسيت أنه أنفق مبلغاً من المال لقاء رفقتها:

ـ ما الذي أستطيع أن أمنحك إياه ولا تملكه؟

تجرع كأساً ثالثة من الويسكي. تتبّعته ماريا بفكرها: كان طعم الكحول يحرق حلقها ومعدتها ويمتزج بدمها ويشعرها بالحيوية والشجاعة. كانت سكرى...

أصبحت لهجة رالف أكثر حزماً:

ـ جيد جداً. لا أستطيع أن أشتري حبك. لكنك قلت لي إنك تعرفين كل شيء عن الجنس. علّميني إذاً. أو حدثيني عن البرازيل، عن أيّ شيء. المهم أن أكون قربك.

والآن؟

ـ لا أعرف إلا مدينتين في بلادي: المدينة حيث ولدت، وريو دي جانيرو. أما الجنس، فلا أعتقد أنني أستطيع أن أعلمك شيئاً عنه. أنا في الثالثة والعشرين تقريباً، وأنت تكبرني بستة أعوام. لكني

أعرف أنك عشت حياة حافلة بالأحداث. ألتقي رجالاً يدفعون لي لكي أفعل ما يريدونه، وليس ما أريده.

ـ فعلتُ كل ما يستطيع رجل أن يفعله مع أنثى واحدة واثنتين وثلاث في الوقت نفسه. ولست واثقاً بأنني عرفت الكثير.

خيَّم الصمت من جديد. والآن جاء دور ماريا لتتكلم. ولم يساعدها، لم يساعدها في البحث عن التعابير المناسبة كما ساعدته.

ـ هل تريدني محترفة؟

ـ أريدك كما تشائين.

لا، لا يمكنه أن يجيب هكذا. كان هذا ما ترغب في سماعه. ومن جديد شعرت بأنها وجهاً لوجه أمام العاصفة الهوجاء، وأن الأرض قد مادت تحت قدميها. سيكون مستحيلاً عليها عما قريب أن تفلت من الوقوع في الفخ. وستخسر هذا الرجل قبل أن تحصل عليه.

ـ علّميني يا ماريا. لعلَّ هذا ينقذني وينقذك ويجعلنا نستعيد الحياة. أنت على حق. لا أكبرك إلا بستة أعوام. ومع ذلك عشت ما يعادل عدة حيوات. كانت لدينا تجارب مختلفة تماماً، لكننا كلينا يائسان. والشيء الوحيد الذي يمكنه أن يوفّر لنا الطمأنينة هو أن نكون معاً.

لماذا كان يتفوّه بهذه الكلمات؟ ليس الأمر ممكناً ولو كان حقيقياً. التقيا مرة واحدة. ومع ذلك شعر أحدهما بالحاجة إلى الآخر. ماذا لو استمرت علاقتهما على تلك الحال وأي كارثة ستحصل! كانت ماريا امرأة ذكية، وقد قضت أشهراً في القراءة ومراقبة الجنس البشري. لا شك أن لديها هدفاً في الحياة، لكن لديها أيضاً روح، روح يجدر بها أن تعثر على «الضوء» الكامن في داخلها.

كانت سئمة من أن تكون ما كانته. صحيح أنها تستعد

للعودة إلى البرازيل وتواجه تحدّياً صعباً، لكنها لم تتعلّم كل ما كانت تستطيع أن تكتسبه من خبرتها في جنيف. كان رالف هارت رجلاً تخطّى في حياته حواجز كثيرة. وها هو الآن يسأل هذه الفتاة، هذه العاهرة، هذه الأم المتفهّمة أن تنقذه يا للغرابة!

هناك رجال آخرون تصرّفوا أمامها بنفس الطريقة وتوسلوا إليها أن تنقذهم. كثيرون ممن لم ينجحوا في الانتصاب، أو ممن أرادوا أن يعاملوا كالأطفال، وآخرون كانوا يسألونها أن تكون زوجة لهم، لأن فكرة أن زوجتهم حظيت بعشاق كثر كانت تثيرهم. لم تلتقِ ماريا قط أيّاً من الزبائن «غير العاديين». لكنها اكتشفت وجود هذا المستودع الهائل من التهويمات في الروح البشرية. إلا أن أياً من هؤلاء الرجال لم يسألها مرة قائلاً: «خذيني بعيداً من هنا». على العكس، كانوا يريدون أن يجرّوها هي وراءهم؛ وبعد رحيلهم: تحفل محفظة نقودها بالمال ويفرغ جسدها من طاقته... لكن، ألم يكن ممكناً أن يعلمها هؤلاء الرجال شيئاً؟ ماذا لو أن بعضهم يفتّشون حقاً عن الحب ولا يشكّل الجنس بالنسبة إليهم إلا جزءاً من هذا السعي؟ ترى كيف ترغب في أن تُعامل؟ كيف سيكون أول لقاء؟ وما المفاجأة السعيدة الذي سيتمخض عنها؟ ماذا تريد ماريا أن يحصل فعلاً أثناء ذلك؟

قالت ماريا:

ـ أريد أن تُقدَّم هدية.

لم يفهم رالف هارت. هدية؟ لكنه سدَّد الحساب في التاكسي لأنه كان يعرف الطقوس. ماذا تعني بقولها؟

أدركت ماريا فجأة في هذه الدقيقة ما يجب أن يشعر به رجل أمسكته امرأة من يده واقتادته إلى الصالون.

ثم قالت:

ـ لن نصعد إلى الغرفة.

أطفأت جميع الأنوار، أو معظمها. جلست على السجادة، ورجته أن يفعل مثلها ويجلس قبالتها. لاحظت أن هناك مدفأة في الغرفة.

ـ أشعلْ ناراً.

ـ لكننا في الصيف.

ـ أشعل ناراً. أردْتَ بنفسك أن أكون المرشدة هذا المساء وهذا ما أفعله.

حدجته بنظرة حازمة، آملةً أن يرى من جديد «الضوء» المنبعث من عينيها. يبدو أنه استطاع رؤيته، لأنه خرج في الحال إلى الحديقة، وجمع بعض الأحطاب التي بلَّلها المطر، ثم وضع فوقها بقايا جرائد قديمة. توجّه نحو المطبخ لكي يحضر زجاجة ويسكي، لكن ماريا قطعت عليه طريقه.

ـ هل سألتني ماذا أريد؟

ـ لا.

ـ اعلمْ إذن أن المرأة الواقفة أمامك موجودة أيضاً. فكّرْ بها. سلْها إذا كانت ترغب في الويسكي أو الجنّ أو القهوة. سلْها ماذا تريد.

ـ ماذا تريدين أن تشربي؟

ـ الخمر. وأود لو تشرب معي.

طرح زجاجة الويسكي جانباً، ثم عاد وفي يده زجاجة خمر. في هذه اللحظة، كانت النار تداعب حطب الموقد. أطفأت ماريا آخر المصابيح المضاءة، وتركت لألسنة النار أن تضيء الغرفة. كانت تتصرف كما لو أنها تعرف جيداً أن هذه هي الخطوة الأولى التي يجب القيام بها: الاعتراف بالآخر، إدراك وجوده.

فتحت محفظة يدها، ووجدت فيه قلماً كانت قد ابتاعته من «السوبر ماركت»، بإمكانه أن يفي بالغرض. أي شيء يمكن أن يحدث التأثير المرجو؟

ـ هذا لك. عندما اشتريته فكرت أنني سأحتاج إليه، لأدوّن

ملاحظات عن الإدارة الزراعية. استعملته يومين وكتبت به حتى شعرت بالتعب. إنه يحمل قليلاً من عرقي وتركيزي وإرادتي. والآن، أهديك إياه.

وضعت القلم في يده برفق.

ـ بدل أن أشتري لك شيئاً تحب امتلاكه، أعطيك شيئاً كان لوقت مضى جزءاً من كياني، إنه هدية، وهو يشهد على احترامي للشخص الجالس أمامي، وهو وسيلتي لأثبت له أنني سعيدة بأن أكون إلى جانبه. إنه يملك الآن جزءاً صغيراً من ذاتي أسلّمه إياه بحرية وعفوية.

نهض رالف. اتّجه إلى أحد الرفوف وتناول شيئاً ثم أعطاه لماريا:

ـ هذه حافلة من قطار كهربائي كنت ألهو به عندما كنت طفلاً. لم يكن والدي يسمح لي بأن أعبث به بمفردي، لأنه، كما يدّعي، باهظ الثمن ومستورد من الولايات المتحدة. حينذاك، كنت مرغماً على الخضوع لمزاج أبي ورغبته في أن يوصل حافلات القطار المبعثرة لتنتظم على شكل مستقيم، ويضعه وسط الصالون لألعب به. لكنه كان يقضي أيام الآحاد عموماً في الاستماع إلى الأوبرا. صمد القطار لندرة استعماله، وانقضت طفولتي دون أن يمنحني أي سعادة. وضعت في العلية كل السكك والقاطرات والحافلات، لأنه كان لديّ قطار ليس لي، ولا يمكنني أن ألهو به ساعة أشاء. ليته تحطّم كالألعاب الأخرى التي أهديت لي ولا أذكرها! هذا الشغف بالتدمير يشكّل جزءاً لا يتجزّأ من الطريقة التي يكتشف بها الطفل العالم من حوله. لكن هذا القطار الذي لم يُمس يذكّرني دوماً بمرحلة من طفولتي لم أعشها. والسبب أنه كان ثميناً جداً أو لانشغال أبي بأشياء أخرى، أو لعلّه كان يخشى أن يثبت اهتمامه بي، إن هو عمد إلى تركيب أجزاء القطار.

أخذت ماريا تحدّق إلى نار المدفأة. ثمّة أمر هام يحدث وهو لا يتعلّق بالنبيذ ولا بالديكور المريح، بل هو تبادل الهدايا.

عاد رالف يراقب النار. بقيا صامتين يستمعان إلى الموسيقى التي تحدثها شرارات النار المتطايرة. احتسيا الخمر بصمت، وبات الكلام غير ذي فائدة. كانا هنا معاً، ينظران باتجاه واحد، ولا يلوي أي منهما على شيء.

قالت ماريا:

ـ ثمة قطارات كثيرة لم تُمس في حياتي وأحدها قلبي. أنا أيضاً لم أكن ألهو به إلا حين يركب الآخرون السكك، ولم يكن الوقت ملائماً.

ـ لكنك أحببتِ.

ـ نعم، أحببت. أحببت كثيراً. أحببت لدرجة أنه حين طلب مني حبيبي هدية، خفْتُ وهربت.

ـ لم أفهم.

ـ ليس الأمر مهماً. اكتشفت شيئاً كنت أجهله وها أنا بدوري أطلعك عليه: الهدية هي أن تمنح شيئاً من ذاتك، أن تعطي قبل أن يسألك أحدهم هبة عظيمة. لديك كنزي: القلم الذي كتبت به بعض أحلامي. ولدي كنزك: الحافلة وهي جزء من الطفولة لم تعشه. أحمل معي الآن جزءاً من ماضيك وتحتفظ الآن بشيء من حاضري. هذا جيد فعلاً.

قالت ذلك دون أن يرفّ لها جفن. كانت واثقة تمام الثقة بتصرفها وكأنها تعرف منذ وقت طويل أنها الطريقة الوحيدة المثلى للسلوك. نهضت ببطء وتناولت سترتها المعلقة على المشجب، ثم طبعت قبلة على خده. كان مأخوذاً بالنار، وكأنه تحت تأثير تنويم مغنطيسي، لعلَّه كان يفكر في أبيه، فلم يُظهر أي رغبة في النهوض.

ـ لم أفهم يوماً لماذا احتفظتُ بهذه الحافلة. الآن، بات كل شيء، واضحاً لي: لكي أهديها ذات مساء أُوقدتُ فيه المدفأة. أشعر الآن أن هذا البيت أكثر فرحاً وجذلاً.

قال لها إنه في اليوم التالي سيهدي السكك والحافلات والقاطرة والكرات الصغيرة التي ترسل دخاناً متموجاً، إلى أحد دور الأيتام.

قالت له ماريا:

ـ قد يكون هذا القطار اليوم شيئاً نادراً، أو قد يساوي الكثير من المال. ندمَتْ ماريا على قولها، لأن الأمر لا يتعلق بالمال، بل يمس أصدق المشاعر التي تنبض بها القلوب.

ولكي تمنع نفسها من الاسترسال في أحاديث تافهة، طبعت قبلة أخرى على خده ثم توجهت إلى الباب. كان رالف لا يزال محدّقاً إلى النار. رجَتْه بلطف أن ينهض ليفتح لها الباب.

عندما نهض رالف، شرحت له السبب: هناك معتقد في بلادها يقول إنه يتوجب على البرازيليين، حين يذهبون لزيارة أحدهم، ألا يفتحوا الباب بأنفسهم لدى المغادرة، لأنهم إن فعلوا، فمعنى ذلك أنهم يجازفون بعدم الرجوع إلى هذا المنزل ثانية.

ـ أريد أن أعود.

ـ لم نخلع ملابسنا، ولم أدخل فيك، ولم ألمسك حتى، ومع ذلك فقد مارسنا الحب.

ضحكت ماريا.

عرض عليها مرافقتها من جديد، لكنها رفضت.

ـ سأذهب لرؤيتك غداً في «كوباكابانا».

ـ لا تفعل. انتظر أسبوعاً. الانتظار هو الأصعب، وعليَّ أن أعتاده، أن أعرف أنك معي حتى لو لم تكن بقربي.

خرجت في طقس بارد وقد حلَّ الظلام، كما كانت تفعل دوماً في جنيف. كانت النزهات فيما مضى روتينية، يخيّم عليها جو الحزن، وتقتلها الوحشة، وتتخللها الرغبة في العودة إلى البرازيل. وكانت تنتابها بين الحين والآخر نوبات من الكآبة التي تثيرها في داخلها هذه اللغة التي تعلّمتها حديثاً وحساباتها المالية وضغوطها

ومواعيدها. لكنها اليوم تمشي بخطى واثقة لأنها تسعى إلى لقاء نفسها، لقاء هذه المرأة التي كانت تجلس منذ أربعين دقيقة أمام النار وإلى جانبها رجل، مفعمةً بالسحر والضوء، غنية بتجربتها، عميقة بحكمتها. استشفت ماريا وجه هذه المرأة حين كانت تتنزّه على ضفاف البحيرة، وتساءلت عما إذا كان ينبغي لها أن تكرّس نفسها لحياة جديدة كلياً. رأت ماريا وجهها ثانيةً فوق لوحة مطوية، وشعرت بحضورها الأنثوي الطاغي من جديد. لم تستقل تاكسي إلا بعد انقضاء وقت طويل، عندما أدركت أن هذا الحضور السحري تلاشى، وعادت وحيدة، كما كانت على الدوام.

الأفضل أن تقلع عن التفكير بهذه السهرة لئلاّ تفسد ذكراها، وتترك للقلق أن يأخذ مكان اللحظات الجميلة التي قضتها. إذا كانت ماريا الأخرى موجودة فعلاً، فسترجع حتماً.

وهذا مقطع مما دوّنته ماريا في يومياتها ليلة أهداها رالف حافلة قطاره الكهربائي:

«إن الرغبة العميقة، الرغبة الحقيقية هي أن تقترب من أحدهم. بدءاً من هذه اللحظة، تتجلى ردود الفعل تدريجاً، ويدخل الرجل والمرأة في اللعبة، لكن الجاذبية التي جمعتهما لا تُفسّر. إنها الرغبة في حالتها الخالصة.

وحين تكون الرغبة عند هذه المرحلة من الصفاء، يشعر الرجل والمرأة بشغف للوجود، ويعيشان كل لحظة بورع وتعبُّد ووعي، بانتظار اللحظة المناسبة للاحتفال بالبركة العتيدة.

لا يستعجل الناس الذين يعيشون هذه الحالة ولا يعجّلون الأحداث من خلال تصرفات متهوّرة. يعرفون أن الحتميّ سيتحقّق، وأن الحقيقة تجد دوماً سبيلاً لتظهر وتعبّر عن نفسها. لا يتردّدون ولا يضيعون فرصة واحدة، ويستغلّون كل دقيقة سحرية متاحة، لأن الثواني تصبح ذات قيمة لا حدّ لها».

في الأيام التالية، اكتشفت ماريا أنها من جديد أسيرة الفخ الذي طالما تجنّبته. ومع ذلك، لم تشعر بالحزن ولا بالقلق، بل على العكس كانت تشعر بالحرية إذ ليس لديها ما تخسره.

مهما بدا لها الوضع رومنطيقياً، فقد كانت تعرف أن رالف هارت سيفهم ذات يوم أنها فقط مجزد عاهرة فيما هو فنان محترم، وأنها آتية من بلاد تتخبّط في أزمات متعدّدة، تقع إلى الجهة الأخرى من العالم، فيما هو يعيش في بلاد أشبه بجنّة حيث ينعم المواطن بكامل حقوقه منذ ولادته وحتى مماته. سيفهم أنه تردد إلى أفضل المدارس، وزار أعظم متاحف الكواكب، فيما هي حصّلت بجهد جهيد دروسها الثانوية، وأن حلمه سرعان ما يتلاشى. خبرت ماريا الحياة بما فيه الكفاية لكي تدرك أن الواقع لا يتوافق مع الأحلام. لكن هذه هي فرحتها الكبرى حالياً: أن تقول لهذا الواقع إنها ليست بحاجة إليه، وإن سعادتها لا ترتبط بالأحداث التي تحصل.

«يا إلهي كم أنا رومنطيقية».

أخذت تتساءل عمّا يمكن أن يجعل رالف هارت، سعيداً: هذا الرجل الذي أعاد إليها كرامتها واستشفّ فيها ضوءاً، وهي التي حسبت أنها فقدت ذينك الكرامة والضوء إلى الأبد. لكن الطريقة الوحيدة التي تبادل بها كرمه تجاهها هي أن تعيد له الاهتمام بالجنس الذي كان يعتبره «اختصاص» ماريا. لكن، بما أن الأمور في «كوباكابانا» تجري على المنوال نفسه والرتابة نفسها دون أن

يتغيّر فيها أي شيء، فقد قررت أن تستقي معلوماتها من مصادر أخرى.

ذهبت لرؤية بعض الأفلام الإباحية، ولم تجد فيها ما يثير الاهتمام، باستثناء بعض التنويعات المتعلّقة بعدد الشركاء. لم تقدّم لها الأفلام أي شيء، فصممت، ولأول مرة منذ وصولها إلى جنيف أن تشتري كتباً عن الموضوع، مع أنها كانت غير مطمئنة إلى أن ترى رفوف مكتبتها مزدانة بالكتب التي تفقد قيمتها فور الانتهاء من قراءتها. ذهبت إلى مكتبة اهتدت إليها أثناء تجوالها مع رالف على طريق مار يعقوب، وهناك سألت عن عناوين بعض الكتب التي تتناول الأمور الجنسية.

أجابت صاحبة المكتبة:

ـ هناك عدد هائل من الكتب، إلى درجة يبدو معها وكأنهم لا يهتمون إلا بهذا الموضوع. بالإضافة إلى القسم المختص بهذه الأعمال، هناك، في جميع الروايات التي ترينها أمامك، مشهد عن الجنس على الأقل. وإذا كانت موضوعات الكتب تدور في الظاهر حول قصص الحب المؤثرة أو الأبحاث الجادة عن السلوك البشري، تبقى النتيجة واحدة وهي أن الناس يولون أمور الجنس اهتمامهم الأول!

كانت ماريا تعرف، مع كل الخبرة التي تملكها، أن المرأة مخطئة. يحلو للجميع أن يفكّروا أن العالم بأجمعه منشغل بقضية الجنس. يتّبع الناس الحميات الغذائية، ويرتدون الشعر المستعار، ويقضون الساعات عند مزين الشعر أو في صالات الرياضة، ويرتدون الملابس المثيرة... يفعلون كل هذا لكي يخلقوا شرارة السحر والجمال المرغوبة. وماذا بعد؟ عندما يحين الوقت للانتقال إلى الفعل، يقتصر الأمر على إحدى عشرة دقيقة. هذا كل شيء. لا إبداع ولا أي شيء يمكن أن يقود إلى النخبة. ولا تلبث الشرارة أن تخمد في قليل من الوقت ومعها النار بأكملها.

لكن، لا يبدو النقاش مجدياً مع الفتاة الشقراء التي تعتبر أن

العالم يجد تفسيره في الكتب. طلبت ماريا أن ترى القسم المخصّص للجنس. وهناك وجدت عدة كتب تتحدث عناوينها عن الشاذين جنسياً والسحاقيات والراهبات. كانت هناك قصص صاخبة عن الكنيسة، وأعمال تحوي رسوماً تمثل التقنيات الشرقية في الجنس. كتاب واحد استوقفها وأثار فضولها وكان بعنوان «الجنس المقدس». لعلّه مختلف عن الكتب الأخرى.

اشترته ورجعت إلى البيت. أدارت الراديو على محطة تبث موسيقى تلائم التفكير. تصفّحت الكتاب ولاحظت فيه وضعيات متنوعة لكن وحده بهلوان السيرك المشهور بليّ أعضائه يمكنه القيام بها. وكان النص مضجراً.

إن الخبرة التي اكتسبتها ماريا عن طريق التجربة كانت كافية لتعرف أن الأمر لا يتعلق بالوضعيات التي نمارس بها الحب، وأن التنويعات تأتي في معظم الحالات بطريقة عفوية لا واعية كخطوات الرقص. ومع ذلك حاولت أن تركّز تفكيرها على قراءة الكتاب.

وبعد ساعتين من القراءة، أدركت أمرين، أولهما أن عليها أن تتناول العشاء سريعاً لأن عليها العودة إلى «كوباكابانا»، وثانيهما أن مؤلّف هذا الكتاب لا يعرف شيئاً إطلاقاً عن الموضوع. هناك الكثير من النظريات والمراجع الشرقية والطقوس السخيفة والاقتراحات المضحكة. عرفت أن مؤلّف الكتاب قد مارس التأمل في هيمالايا (يجب أن تستعلم عن هذا المكان)، وتابع دروساً في اليوغا (سمعت عن هذه الرياضة)، وقرأ كثيراً عن الموضوع لأن الكتاب حافل بالاستشهادات، لكنه غفل عن الجوهريّ. ليس الجنس مسألة نظرية وبخوراً نحرقه ونقاط تماس نستكشفها، ولا انحناءات ووضعيات معقّدة. ثمّ، كيف يمكن لفرد (أو بالأحرى لامرأة، لأنها عرفت لاحقاً أن الكاتب امرأة) أن يجرؤ على الكتابة في مسألة لا تعرف ماريا نفسها عنها شيئاً، مع أنها تعمل في هذا

المجال؟ لعلَّ الخطأ في الكتاب كان عائداً إلى التركيز على هيمالايا بالذات أو إلى الرغبة في تعقيد هذا الموضوع الذي يكمن جماله في البساطة وفي الشغف الذي يحرّكه. إذا كانت هذه الكاتبة قادرة على نشر عمل بهذا الغباء، فبوسع ماريا إذن ان تفكّر جدياً في مشروعها وتنشر كتابها الذي أعطته عنوان «إحدى عشرة دقيقة»، لأنها ستكتفي فيه برواية قصتها ببساطة دون خبث ولا رياء.

لكن، ليس لديها الوقت ولا رغبة القيام بذلك. عليها أن تحصر كل همّها في إسعاد رالف، وتعلم كيفية إدارة شؤون المزرعة.

ما كتبته ماريا في يومياتها بعد فترة قليلة من الفراغ من قراءة كتابها المضجر:

«التقيت رجلاً وفُتنت به. سمحت لنفسي أن أقع في الحب لسبب بسيط وهو أنني لا أتوقع شيئاً. أعرف أنني بعد ثلاثة أشهر سأغادر بعيداً، وأن هذا الحب لن يكون إلا مجرد ذكرى، لكني لم أعد أستطيع تحمُّل العيش دون حب. بلغ بي الأمر حداً لا يطاق.

أكتب قصة من أجل رالف هارت. هذا هو اسمه. لا أعرف إذا كان سيرجع الليلة إلى الحانة التي أعمل فيها. لكني، وللمرة الأولى في حياتي، أشعر أن مجيئه لن يغيّر شيئاً. يكفي أن أحبه وأن أكون معه بالفكر وأن تُضفي خطواته وكلماته وحنانه ألواناً على هذه المدينة الرائعة.حين أغادر هذه البلاد، سيكون لها وجه واسم، وسأحمل معي ذكرى نار في مدفأة.

وكل ما عشته هنا من أمور مغايرة، كل المصاعب التي واجهتها ستتلاشى إزاء هذا الشعور الغامر بالطمأنينة.

أودّ لو أصنع من أجله ما صنعه من أجلي. فكّرت كثيراً واكتشفت أنني لم أدخل هذا المقهى مصادفة. ذلك أن اللقاءات الأهم تتم على مستوى الأرواح حتى قبل أن تتقابل الأجساد.

هذه اللقاءات تحدث غالباً حين نشعر أننا جاوزنا الحد، حين نشعر بالحاجة إلى الموت والولادة من جديد على صعيد انفعالاتنا. اللقاءات تنتظرنا، لكننا نعمل في معظم الأحيان على إجهاضها.

عندما نكون يائسين، عندما لا يكون لدينا ما نخسره، أو عندما يشعلنا حماسنا للحياة، عندئذٍ، يعلن المجهول ظهوره المفاجىء ويغيّر مجرى حياتنا.

يعرف الجميع الحب. هذا أمر فطري. يمارسه البعض بطريقة تلقائية. لكن معظم الناس ينبغي لهم أن يتعلّموه من جديد، وأن يتذكّروا كيف نحب. عليهم جميعاً، دون استثناء، أن يحترقوا بنار انفعالاتهم الماضية، وأن يعيشوا من جديد أفراحاً وآلاماً، نكسات ولحظات عافية، حتى يتمكّنوا من اكتشاف الأمل المرجوّ الذي يكمن خلف كل لقاء جديد.

تتعلّم الأجساد إذن أن تتكلم بلغة النفوس: هذا ما يُدعى الجنس. هذا ما يمكن أن أعطيه للإنسان الذي أرجع إليّ نفسي، حتى لو كان يجهل المكانة الهائلة التي يحتلها في حياتي. هذا ما سأله وما سأمنحه إياه، لأنني أريد أن يكون سعيداً.

أحياناً، تكون الحياة بخيلة جداً. قد نقضي أياماً وأسابيع وأشهراً وسنوات دون أن نشعر بشيء. ثمَّ، فجأة، وما إن نفتح الباب، وهذه كانت حال ماريا مع رالف هارت، حتى ينهار جبل الجليد وتنجلي أمامنا الطريق واسعةً في لحظة واحدة. نخال أننا لا نملك شيئاً، ثم لا نلبث أن نشعر أننا نمتلك ما لا طاقة لنا على امتلاكه!

بعد ساعتين من كتابة ماريا ليومياتها، ذهبت إلى «كوباكابانا». وما إن رآها ميلان حتى جاء لموافاتها وسألها: «هل خرجت مع هذا الرسام؟».

لا شك أنه معروف في الحانة. لاحظت ذلك من قبل، تحديداً في تلك الليلة عندما سدّد ثمن التعرفة عن ثلاثة زبائن، دون أن يضطر للاستعلام عن التسعيرة. أجابت ماريا «نعم» بحركة من رأسها، وكأنها تسعى لإضفاء جو من الغموض على اللقاء. لكن ميلان لم يعلّق أهمية على الموضوع، لأنه كان أكثر منها خبرة في شؤون الحياة.

ـ لعلّكِ صرت جاهزة للمرحلة المقبلة. هناك «زبون غير عادي» يطلبك اليوم. قلت له إنك تفتقرين إلى الخبرة وهو يثق بي. ربَّما كان الوقت قد حان للمحاولة.

ـ «زبون غير عادي»؟، لكن أي علاقة للرسام بذلك؟

ـ هو أيضاً «زبون غير عادي».

هل كل ما فعله إذن رالف هارت معها، سبق له أن فعله مع

إحدى زميلاتها؟ عضّت ماريا على شفتها السفلى ولانت بالصمت. لقد قضت أسبوعاً جميلاً، ويستحيل عليها نسيان ما كتبت.

ـ هل عليَّ أن أفعل نفس الشيء الذي فعلته مع الرسام؟

ـ لا أعرف ماذا فعلت معه. لكن، اليوم، إذا دعاك أحد للشرب، لا تقبلي، لأن «الزبائن غير العاديين» يدفعون مسبقاً، ولن تندمي على التعرّف إليهم.

بدأت السهرة كالعادة. جلست التايلنديات معاً، وأظهرت الكولومبيات سحنة غير مكترثة، وكأن لا شيء جديداً أو مثيراً للاهتمام، واصطنعت البرازيليات الثلاث (وهي بينهن) الشرود. كانت هناك أيضاً نمساوية وألمانيتان. أما باقي المجموعة، فكانت مؤلفة من نساء جئن من أوروبا الشرقية، وجميعهن فارعات الطول وجميلات ذوات عيون فاتحة، ويعثرن على أزواج بسرعة أكثر من الأخريات.

دخل رجال روس وسويسريون وألمان، وهم جميعاً يتولّون مناصب رفيعة، وقادرون أن يمتّعوا أنفسهم بالخدمات الأغلى ثمناً التي تقدّمها العاهرات في إحدى المدن الأغلى في العالم. اتجه بعضهم إلى طاولة ماريا، لكنها نظرت إلى ميلان الذي أشار إليها بأن ترفض في كل مرة. كانت سعيدة: لن تضطر إلى فرج ساقيها هذا المساء، ولن تتحمّل الروائح، ولن تستحمّ بعد الممارسة في صالات الاستحمام الشديدة الدفء. كل ما ينبغي لها أن تفعله هو أن توفّر المتعة لرجلٍ سئم من الجنس، وتعلّمه كيفية ممارسة الحب. وإذا أردنا التفكير في ذلك جيداً، فلن تضاهيها امرأة إبداعاً في الدور الذي تقوم به.

ومع ذلك تساءلت ماريا: «لماذا يريد هؤلاء الرجال الذين خبروا كل شيء أن يعودوا إلى نقطة البداية؟». في أي حال، هذه ليست مشكلتها ما دامت تجني الكثير من علاقتها بهم، فهي رهن إشارتهم.

دخل رجل إلى الحانة يبدو أصغر سناً من رالف، جميل، أسود الشعر وذو أسنان رائعة. كان يرتدي بذلة على الطراز الصيني بلا ربطة عنق مع قبّة بسيطة وتحتها قميص ناصعة البياض. اتجه إلى البار. اقترب من ميلان وحوّلا نظريهما تجاه ماريا. ثم اقترب الزبون منها وقال: «هل ترغبين بشرب شيء ما؟».

أومأ ميلان برأسه ودعت ماريا الرجل لكي يجلس إلى طاولتها. طلبت عصير فواكه، وانتظرت دعوته إلى الرقص. عرَّف الرجل عن نفسه قائلاً: «أدعى تيرنس، أعمل في مؤسسة للأسطوانات في إنكلترا. أعرف أنني موجود في مكان حيث يمكن أن أثق بالناس. وأريد أن يظل ذلك سرّاً بيننا».

كانت ماريا تستعد لتحدّثه عن البرازيل عندما قاطعها قائلاً:

ـ قال لي ميلان إنك تعرفين ماذا أريد.

ـ لا أعرف ماذا تريد. لكن أعرف ماذا أفعل.

سدّد الحساب قبل أن تُنجز الطقوس، وأمسكها من ذراعها، ثم صعدا في تاكسي وأعطاها ألف فرنك. أصابها الذهول. تذكّرت العربي الذي اصطحبها إلى ذاك المطعم المزيّن باللوحات الشهيرة. إنها المرة الثانية التي تتلقّى فيها مثل هذا المبلغ، وبدل أن يرضيها ذلك فقد جعلها تشعر بالتوتر.

توقّفت سيارة التاكسي أمام أحد أفخم الفنادق في المدينة. حيَّا الرجل الحارس تحيةً بدا معها أن المكان كان أليفاً لديه. صعدا مباشرة إلى الغرفة وهي شقة فاخرة تشرف على النهر. فتح تيرنس قنينة نبيذ فاخر لا نظير له كما يبدو، وسكب لها كأساً.

راقبته ماريا، فيما كانت تحتسي النبيذ: تُرى ماذا ينتظر رجل مثله، ثري وجميل، من عاهرة؟ لم يكن كثير الكلام إطلاقاً. لذا بقيت صامتة تتساءل عما يمكن أن يرضي «زبوناً غير عادي». شعرت أنه لا يجدر بها أن تتخذ المبادرة أولاً. لكن، ما إن تبدأ

اللعبة، فإنها ستشارك فيها كما يجب، لأن المبلغ كبير ولا يُدفع لها ألف فرنك كل مساء.

قال تيرنس:

ـ لدينا الوقت، كل الوقت الذي نرغب فيه. يمكنك النوم هنا إذا شئت.

عادت تشعر بالاستياء. لم يكن الرجل خائفاً على ما يبدو، وكان يتكلم بصوت هادىء مختلف عن الزبائن الآخرين، ويعرف ماذا يريد. اختار موسيقى رائعة ومناسبة من حيث قوة الصوت وتتلاءم مع أجواء الغرفة الرائعة التي تطل على بحيرة مدينة فائقة الروعة. كانت بذلته أنيقة وحقيبته الموضوعة في الزاوية صغيرة الحجم، وكأنه لا يحتاج إلى المتاع الثقيل الوزن في أسفاره، أو كأنه جاء إلى جنيف ليقضي فيها ليلة واحدة فقط.

قالت ماريا:

ـ لا، أعود لأنام في بيتي.

تغيّرت سحنة الرجل الذي كان أمامها، والتمع في نظرته المهذّبة بريق جليديّ.

قال، وهو يشير إلى كرسي قرب المكتب:

ـ اجلسي هناك.

كان هذا أمراً، أمراً فعلاً، وماريا أطاعت، وهذا أثارها بطريقة غريبة.

ـ اجلسي مستقيمة. هيا. ليكنْ، ظهرك مستقيماً مثل نساء خاصة الناس، وإلا فسوف أعاقبك.

يعاقبني! هذا هو «الزبون غير العادي»!

وبلحظة خاطفة، فهمت ماريا كل شيء. أخرجت الألف فرنك من حقيبتها ووضعتها على المكتب.

قالت وهي تحدّق في عينيه الزرقاوين الجليديتين:

ـ أعرف ماذا تريد ولست مستعدة.

بدا الرجل وكأنه يعود إلى طبيعته، مدركاً أن ما تقوله صحيح.

قال:

ـ احتسي نبيذك. لن أتحدث معك في شيء. تستطيعين البقاء قليلاً أو الذهاب إذا شئت.

شعرت أن الاطمئنان يعود إليها.

ـ لديَّ وظيفة ورب عمل يحميني ويثق بي. أرجوك لا تقل له شيئاً.

تلفَّظت بهذه الكلمات بنبرة تخلو من التوسل، كانت ببساطة تقول الحقيقة، ليس إلا.

عاد تيرنس إلى ما كان عليه، لا لطيفاً ولا قاسياً، فقط رجلاً يعطي انطباعاً، بخلاف الزبائن الآخرين، بأنه يعرف ماذا يريد. بدا وكأنه خارج من رعدة أو من مسرحية لم تبدأ بعد.

لكن، هل عليها أن تغادر بهذه البساطة دون أن تكتشف فعلاً ما تعنيه عبارة «زبون غير عادي»؟

ـ ماذا تريد تحديداً؟

ـ الألم، كما لاحظت، العذاب وأيضاً الكثير من اللذة.

فكَّرت ماريا أن الألم والعذاب لا يتعايشان كثيراً مع اللذة، مع أنها رغبت حتى اليأس أن تعتقد العكس، أنه يمكن أن نجني ثماراً طيبة من التجارب السلبية الكثيرة في هذه الحياة.

أخذها من يدها واقتادها إلى النافذة: كان يُرى في الجهة الأخرى للبحيرة برجُ الكاتدرائية. تذكَّرت ماريا أنها مرَّت بصحبة رالف هارت باتجاه طريق مار يعقوب.

ـ هل ترين هذا النهر، هذه البيوت، هذه الكنيسة؟ منذ أكثر من خمسمئة سنة لا يزال المنظر نفسه تقريباً باستثناء أن المدينة

حينذاك كانت مقفرة تماماً، لأن مرضاً مجهولاً انتشر في جميع أنحاء أوروبا. لم يكن أحد يعرف لماذا يموت هذا الكم الهائل من البشر. كان هذا المرض يُدعى الطاعون الأسود، وهو عقاب أنزله الله بالبشر بسبب خطاياهم. عندئذ، قرر جماعة من الناس أن يفتدوا بأنفسهم البشرية جمعاء، وقاموا بما كانوا يخشونه أكثر من أي شيء آخر وهو تعذيب أنفسهم. أخذوا يذرعون الطرقات وهم يجلدون أنفسهم بالسياط أو بالسلاسل. كانوا يتألمون باسم الله ويحتفلون بألمهم، مكتشفين حينذاك أنهم أكثر سعادة من هؤلاء الذين يصنعون الخبز ويحرثون الأرض ويطعمون الحيوانات. لم يعد الألم عذاباً بل لذة يكفّرون بها عن خطايا البشر. أصبح الألم فرحاً ومعنى للحياة ولذة.

رجع البريق البارد إلى عينيه. أخذ المال الذي وضعته ماريا على المكتب، اقتطع منه مئة وخمسين فرنكاً ووضعها في جزدانها.

ـ لا تهتمي لصاحب العمل. هذه هي حصته. وأعدك بألا أقول شيئاً. بإمكانك الرحيل.

ـ لا!

قالت ماريا ذلك وهي تستعيد من جديد المبلغ بكامله.

لعلَّ ما دفعها إلى التصرف كان هذا النبيذ، العربي في المطعم، المرأة ذات الابتسامة الحزينة، الفكرة بأنها لن ترجع أبداً إلى هذا المكان اللعين، الخوف من الحب الذي كان يتخذ ملامح رجل، الرسائل التي بعثتها لأمها تخبرها فيها عن حياتها الغنية بفرص العمل، الصبي الذي طلب منها قلماً في طفولتها، معاركها مع نفسها والذنب والفضول والمال، السعي لإيجاد حدود لتصرفاتها بالذات، الفرص الضائعة التي أفلتت من يدها... كل ذلك استعرضته في ذاكرتها...وهناك ماريا أخرى موجودة في هذا المكان: لم تعد تقدّم الهدايا بل تقدم نفسها ذبيحة.

ـ لقد زال خوفي ويمكننا الذهاب بعيداً في اللعبة. إذا كان

الأمر ضرورياً عاقبني لأنني امرأة عاصية. كذبت وخنت وتصرّفت بالسوء مع هؤلاء الذين أحبوني وعملوا على حمايتي.

دخلت ماريا في اللعبة. قالت ما ينبغي أن تقوله.

أمرها تيرنس بصوت عالٍ ومثير للدهشة والقلق:

ـ اركعي!

استجابت ماريا لطلبه. لم يعاملها أحد قط بهذه الطريقة، ولا تعرف إن كان ما تفعله جيداً أم سيئاً. أرادت فقط أن تذهب بعيداً، وفكّرت أنها تستحق هذه المعاملة بسبب كل ما فعلته في حياتها. أضحت امرأة مختلفة وكأن امرأة أخرى قد تقمّصت جسدها.

ـ ستُعاقبين لأنك عديمة الفائدة ولأنك لا تعرفين القواعد وتجهلين كل شيء عن الجنس والحياة والحب.

بدا تيرنس وهو يتكلّم وكأنه شخصان: رجل يشرح لها بهدوء قواعد السلوك البشري، ورجل آخر يشعرها أنها أتعس شخص في العالم.

ـ هل تعرفين لماذا أفعل ذلك؟ لأنه ليس من لذة في الدنيا أكبر من أن نقود أحداً إلى ولوج عالم مجهول، وأن نفقده عذريته، ليس عذرية الجسد بل عذرية الروح. هل فهمتِ؟

ـ فهمت.

ـ اليوم، بإمكانك أن تطرحي الأسئلة، لكن، في المرة المقبلة، ما إن يُنزع الستار عن المسرح حتى تبدأ المسرحية ولا أحد يمكنه إيقافها. وإذا توقفت فهذا لأن روحينا لم يتّفقا. تذكّري: إنها مسرحية. يجب أن تكوني الشخص الذي لم تجرؤي يوماً أن تكونيه. وستكتشفين شيئاً فشيئاً أن هذا الشخص هو ذاتك الحقيقية. بانتظار ذلك، حاولي أن تتظاهري باحتمال المعاناة. كوني خلّاقة.

ـ وإذا لم أستطع تحمّل الألم؟

ـ ليس هناك ألم. إنه فقط شعور يتحوّل إلى لذة، إلى سر. قولي لي «لا تعاملني هكذا، أنا أتألم»، لأن هذا يشكّل أيضاً جزءاً من المسرحية. إذاً، ولكي تتحاشي الخطر... اخفضي رأسك، ولا تنظري إليّ.

جثت ماريا على ركبتيها، وخفضت رأسها وهي تنظر إلى الأرض.

ـ لكي نتجنّب أن تسبّب هذه العلاقة أذيّة جسدية خطيرة، سنستعمل اصطلاحين. إذا قال أحدنا «أصفر»، فهذا يعني أنه يجب الحد من العنف، وإذا قال «أحمر»، فهذا يعني أن عليه التوقّف في الحال.

ـ قلت: أحدنا؟

ـ نعم لأننا سنتبادل الأدوار، لا وجود لأحد دون الآخر، ولا أحد بإمكانه أن يُذلّ الآخر، إلا إذا سمح للآخر بإذلاله.

كانت هذه الكلمات مرعبة، آتية من عالم لا تعرفه، عالم حافل بالظلمة والوحل والعفن. ومع ذلك كانت تحدوها رغبة الذهاب بعيداً، كان جسدها يرتجف خوفاً وإثارة.

لامست يد تيرنس رأسها بحنان غير متوقّع.

قال:

ـ انتهت اللعبة.

توسَّل إليها أن تنهض بنبرة لا تخلو من بعض الحنان، وإن خلَتْ من العدائية الجافة التي أظهرها من قبل. لبست ماريا سترتها وهي لا تزال ترتجف. لاحظ تيرنس الحالة التي كانت فيها.

ـ دخّني سيجارة قبل أن ترحلي.

ـ لم يحدث شيء.

ـ ليس هذا ضرورياً. لكن هذا اللقاء سيتابع مساره في روحك. وفي المرة المقبلة عندما نلتقي، ستكونين أكثر استجابة.

ـ هل تساوي هذه السهرة ألف فرنك؟

لم يُجب. أشعل هو أيضاً سيجارة، وكانا قد فرغا من احتساء النبيذ. استمعا إلى الموسيقى، وقد خيَّم عليهما صمت طويل ممتع.

ثم جاء وقت الكلام، وتفاجأت ماريا من كلماتها بالذات:

ـ لا أعرف لماذا كانت لديّ رغبة المشي في الوحل.

ـ بسبب الألف فرنك.

ـ ليس الأمر كذلك.

بدا تيرنس سعيداً بجوابها.

ـ أنا أيضاً طرحتُ على نفسي هذا السؤال. كان الماركيز دو ساد يقول إن التجارب الأهم التي يختبرها المرء في حياته هي تلك التي يبلغ فيها المرء آخر المطاف. وهي التي تعلّمنا لأنها تستنفد منا كامل طاقتنا. إن رب العمل الذي يهين موظفاً، أو الرجل الذي يهين زوجته، هما على درجة عالية من الجبن، أو يسعيان للانتقام من الحياة. إن مثل هؤلاء الناس لم يجرؤوا يوماً على النظر إلى أعماق أنفسهم. لم يسعوا ليعرفوا من أين تأتي الرغبة في التحرّر من الوحش الكامن في داخلهم، ولا ليدركوا أن الجنس والألم والحب تمثّل للإنسان تجارب قصوى. وحده الذي يعرف إقامة الحدود يعرف معنى الحياة. ليست البقية إلّا مضيعة للوقت وتكراراً للمسار نفسه: نشيخ ونموت دون أن نعرف ماذا كنا نفعل على هذه البسيطة.

من جديد الطريق، من جديد البرد، ومن جديد الرغبة في المشي. كان هذا الرجل مخطئاً. ليس ضرورياً أن نعرف شياطيننا لكي نلتقي الله. صادفت في طريقها جماعة من التلامذة الخارجين من إحدى الحانات. كانت السعادة تخيّم عليهم، على الرغم من آثار السُكر البادية على وجوههم الجميلة المفعمة بالحيوية والنشاط. عمّا قريب سينهون دروسهم، ويبدأ ما يرون أنه «الحياة الحقيقية»: العمل، الزواج، الأطفال، الرتابة، المرارة، الشيخوخة، الشعور الهائل بالخسارة، الحرمان، المرض، العجز، التبعية، الوحدة، وأخيراً الموت.

لكن، ما بالها؟ هي أيضاً كانت تنشد الطمأنينة لكي تحيا «حياتها الحقيقية». والوقت الذي قضته في سويسرا لتمارس مهنة لم تفكر يوماً في اختيارها، كان مرحلة صعبة من تلك المراحل التي يواجهها الجميع عاجلاً أم آجلاً. ذهبت إلى «كوباكابانا»، وخرجت برفقة الرجال من أجل المال، وأدّت أدوار الفتاة البريئة الساذجة أو المرأة المغوية أو الأم المتفهمة، وفقاً لأمزجة الزبائن. لم يكن ما فعلته إلا دوراً أدّته على أعلى درجة من الاحتراف طمعاً بالعلاوة، وعلى أدنى درجة من الاهتمام خشية أن تعتاده. قضت تسعة أشهر في مراقبة العالم من حولها. وقبيل عودتها إلى ديارها، اكتشفت أنها قادرة على الحب دون أن تطلب أي شيء بالمقابل، وعلى العذاب دون سبب. كما لو أن القدر رماها في لجّة حياة قذرة، غريبة الأطوار، لكي تكتشف أسرارها المضيئة والمظلمة.

وهذا ما كتبته ماريا في يومياتها ليلة لقائها بتيرنس:

«أستشهد بالماركيز دوساد الذي لم أقرأ له سطراً واحداً، لكني سمعت بعض التعليقات التقليدية عن السادية، والتي تقول إننا لا نعرف أنفسنا حقاً إلا حين نتجاوز حدودنا بالذات. هذا أكيد. لكن ذلك الأمر يحتاج أيضاً إلى مراجعة، لأنه ليس ضرورياً أن نعرف كل شيء عن ذواتنا. لم يخلق الكائن البشري فقط لكي يفتش عن المعرفة، بل لكي يحرث الأرض أيضاً، وينتظر المطر، ويزرع القمح، ويجني الغلال، ويعجن الخبز.

في داخلي امرأتان: إحداهما تسعى إلى بلوغ السعادة والشغف والمغامرات التي يستطيع الوجود أن يوفّرها لها، والثانية عبدة الرتابة والحياة العائلية والأفعال الصغيرة التي يمكن التخطيط لها وتنفيذها. أنا أحمل في حنايا جسدي على السواء ربة المنزل والعاهرة، وكلٌ منهما تصارع الأخرى.

إن لقاء المرأة بذاتها لعبة تنطوي على الكثير من المخاطر. عندما ألتقي بذاتي نصير طاقتين، عالمينْ يتصادمان. أما إذا كان اللقاء يفتقر إلى الانسجام المتوازن، فإنّه يتحوّل إلى انفجار مدمّر للذات البشرية الواحدة».

من جديد صالون رالف هارت والنار في المدفأة والخمر، وكلاهما جالسان على الأرض. كل ما أحسَّت به ماريا البارحة أثناء لقائها بنداك الإنكليزي، مدير مؤسسة الاسطوانات، كان مجرد حلم، أو كابوس. وهذا يتعلق بحالتها النفسية. كانت تبحث في هذه اللحظة عن سبب وجودها، أو بالأحرى عن هذه التضحية المجنونة بالنفس التي نمنح من خلالها قلوبنا دون أن نطلب شيئاً بالمقابل.

أينعت ماريا، وهي في انتظار هذه اللحظة. اكتشفت أخيراً أن الحب الحقيقي لا علاقة له بما نتصوّره عادة، أي بسلسلة الأحداث التي تثيرها طاقة الحب: بداية الحب، الالتزام، الزواج، الأطفال، نهاية الانتظار، الشيخوخة معاً، نهاية الانتظار، تقاعد الزوج في حينه، الأمراض والشعور بأن الأوان قد فات وأن الزوجين تخلّيا عن تحقيق أحلامهما المشتركة، وباتا ينتظران قدرهما المحتوم.

نظرت ماريا إلى الرجل الذي قرّرت أن تهبه ذاتها دون أن تبوح له بما كانت تشعر تجاهه، لأنها لم تكتشف الأسلوب الملائم للتعبير عن مشاعرها وانفعالاتها. بدا رالف مرتاحاً، وكأنه يعيش فترة ساحرة في حياته. كان يبتسم وهو يحدّث ماريا عن الرحلة التي قام بها مؤخّراً إلى ميونيخ، ليقابل مدير أحد المتاحف الكبرى.

ـ سألني المدير إذا كانت اللوحة عن وجوه جنيف قد أنجزت. قلت له إنني تعرّفت إلى أحد الأشخاص الذين أرغب في أن أرسمهم، امرأة مليئة بالضوء... لكن، لا أريد التحدّث عن نفسي. أريد أن أقبّلك، أشتهيك، أرغب فيك.

الرغبة، الرغبة؟ الرغبة! إنها النقطة المحوريّة في هذه السهرة، وكان هذا أمراً تعرفه ماريا تمام المعرفة!

نوقظ الرغبة مثلاً حين لا نستجيب لدواعي الرغبة في الحال، حين نرجىء هذه الاستجابة.

ـ اشتهيني إذن. هذا ما نفعله الآن. أنت على بعد مترٍ مني، سعيت إلى حانة ليلية وأنفقت ما فيه الكفاية لتحصل على مبتغاك، وتعرف أن لديك الحق أن تلمسني لكنك لا تجرؤ. انظر إليّ. انظر إليّ. تخيّل أنني لا أريد أن تنظر إليّ. تخيّل ماذا أخفي تحت ملابسي.

كانت ترتدي فستاناً أسود بسيطاً، ولا تفهم السبب الذي يدفع الفتيات الأخريات في حانة «كوباكابانا» لأن يبذلن كل ما في وسعهن ليبدون مثيرات من خلال ارتداء الألبسة المثيرة والألوان الغامقة. كان الأمر في نظرها مختلفاً: أن تثير رجلاً يعني أن ترتدي ملابس تبدو فيها مشابهة لأي امرأة يلتقيها في المكتب أو القطار أو عند صديقة زوجته.

نظر إليها رالف. أحست ماريا أن نظراته تعرّيها، وراق لها أن يشتهيها بهذه الطريقة، دون أن يلمسها، كأنهما في مطعم أو في رتل من المنتظرين أمام قاعة السينما.

قالت ماريا:

ـ تخيّلْ أننا في محطة، أنتظر القطار قربك، وأنت لا تعرفني. لكن عينيّ تلتقيان عينيك مصادفة، وأنا لا أشيح بهما عنك، لا تعرف ما أحاول قوله لك لأنك رغم ذكائك، رغم أنك قادر على رؤية «الضوء» الكامن في الآخرين، لست حسّاساً بما فيه الكفاية لترى ما يمكن أن ينجلي عن هذا الضوء.

لم تنسَ المسرح. أرادت أن تمحو بأقصى سرعة ممكنة وجه المدير الفني الإنكليزي، لكنه كان هنا، يرصد تخيّلاتها.

ـ أنظر إليك في عينيك مباشرة وأتساءل: هل رأيته من قبل

في مكان ما؟ أو لعلّني شاردة الذهن أو أخشى أن أبدو سمجة. لعلّك تعرفني من قبل لكني أود أن تتجاهلني لثوانٍ معدودات، وستكتشف أننا تعارفنا منذ زمن أو أن هناك سوء فهم يعتري علاقتنا. لعلّني ذهبت إلى المحطة فقط لأن لديّ رغبة هي الأبسط في العالم: الالتقاء برجل، أو لأنني هاربة من حب يعذبني، أو أسعى إلى الانتقام من خيانة حديثة العهد، وذهبت إلى هناك بحثاً عن رجل مجهول. لعلّني ذهبت لأنني أرغب في أن أكون عاهرتك لليلة فقط، لأقطع معك رتابة حياتي، ولأنني عاهرة تبحث عن عمل.

خيَّم عليهما صمت عميق. كانت ماريا تبدو شاردة تستعيد في ذهنها ذكرى الرجل الإنكليزي في الفندق، والإهانة. رنَّت في رأسها كلمات: «الأصفر»، «الأحمر»، «الألم وكثير من اللذة». كل ذلك أثَّر في روحها بشكل ملحوظ.

لاحظ رالف شرودها، وحاول أن يعيدها من جديد إلى المحطة:

ـ في هذا اللقاء، هل ترغبين فيَّ أنت أيضاً؟

ـ لا أعرف، لا نتكلم، وأنت لا تعرف.

عادت ماريا إلى شرودها قليلاً. في أي حال، ساعدتها فكرة «المسرح» هذه كثيراً، لأن الشخصية الحقيقية تظهر جلية، وتغيب كل الشخصيات المزيفة التي تسكننا.

ـ لا أشيح بنظري عنك، ولا تعرف ماذا عليك أن تفعل. هل عليك الاقتراب؟ هل سأصدك؟ هل سأدعو شرطياً، أم أدعوك لتناول فنجان من القهوة؟

قال رالف، وكانت نبرة صوته مختلفة، وكأنهما التقيا فعلاً للمرة الأولى:

ـــ رجعت لتوي من ميونيخ...

ثم أضاف:

ـ وأنوي أن أرسم سلسلة من اللوحات عن الجنس، عن الأقنعة

العديدة التي يختبىء خلفها الناس لكي يتجنّبوا القيام بتجربة لقاء حقيقي.

لا بدَّ أنه يعرف «المسرح». قال ميلان إنه كان هو أيضاً «زبوناً غير عادي». دوّت صفّارة الخطر، لكن ماريا كانت بحاجة إلى الوقت لكي تفكر.

ـ قال لي مدير المتحف: «علامَ تعتمد في إعداد عملك الفني؟» وأجبته: «على نساء يشعرن بأن لديهن الحرية بأن يمارسن الجنس من أجل المال». فأجاب: «ليس هذا ممكناً، فهؤلاء النسوة عاهرات» وأجبته: «أجل، هن عاهرات وأريد أن أعرف ما هي قصتهن. أقوم بإعداد لوحات فنية تنسجم كلياً مع ذوق العائلات التي تتردد إلى متحفك. المسألة مسألة ثقافة كما تعرف، وتقوم على أن نعرض بشكل ممتع ما يشقّ علينا تقبّله». فقال المدير بإصرار: «لكن الجنس لم يعد محرّماً. الجنس مسألة مطروحة على الدوام، بحيث يصعب علينا أن نقوم بعمل ذي قيمة عن هذا الموضوع».فأجبته: «هل تعرف من أين تأتي الرغبة الجنسية؟» فقال المدير: «من الغريزة». فقلت له: «أجل، من الغريزة، وجميع الناس يعرفون هذا. لكن كيف بالإمكان أن نقيم عرضاً جميلاً وناجحاً إذا استندنا فقط إلى العلم؟ أريد في معرضي أن أصوّر الطريقة التي نفسّر فيها هذا الانجذاب الجسدي، كما يفعل الفيلسوف مثلاً». طلب مني المدير أن أعطيه مثلاً عن ذلك. قلت له «افرض أنني صعدت في القطار عائداً إلى المنزل وأن امرأة رمقتني بنظرة إعجاب. عندئذٍ سأتحدث إليها وأقول لها إنني لا أعرفها وإننا أحرار في أن نفعل كل ما حلمنا به، وأن يعيش كل منا «فانتاسماته». ونفترق، من ثَمَّ، ويذهب كلٌّ منا في طريقه، أنا إلى زوجتي، وهي إلى زوجها، ولن يحصل بيننا لقاء آخر».

سألقاكِ إذن في هذه المحطة!

ـ قصتك مثيرة جداً للاهتمام، لدرجة أنها تلغي كل دوافع الرغبة لديَّ.

ضحك رالف موافقاً على ما قالته. لم يعد هناك نبيذ، فذهب إلى المطبخ ليحضر زجاجة أخرى. نظرت ماريا إلى النار، وهي تعرف مسبقاً ماذا ستكون الخطوة المقبلة، مستمتعةً بالحفاوة التي تلقاها، ناسيةً أمر الإنكليزي، ومستسلمة من جديد للحظة التي تحياها.

سكب رالف كأسيْن من النبيذ.

ـ أريد فقط أن أسألك، بدافع الفضول: كيف ستُنهي قصتك مع مدير المتحف؟

ـ أستشهد بفيلسوف إغريقي، لأنني سأكون في حضرة إنسان مثقف. يعتبر أفلاطون أن الرجال والنساء في بداية الخليقة، كانوا مختلفين عمّا هم اليوم. كانت هناك فقط كائنات خنثوية ذات جسد وعنق ورأس بوجهيْن وكل وجه ينظر في اتجاه مختلف، وكأنهما مخلوقان ملتصقان أحدهما بالآخر. كانت هذه المخلوقات تملك عضوين جنسيين مختلفين وأربع أرجل وأربع أذرع.

لكن الآلهة الإغريق بدأت تشتعل في نفوسهم الغيرة حين رأوا أن مخلوقاً بأربع أذرع أعظم قدرة على العمل، وأن وجهين متقابلين كانا دائماً متيقظين، وأن الآلهة لا يستطيعون بالتالي مهاجمته والقضاء عليه غدراً، وأن أربعة أرجل لا تلزم صاحبها ببذل الكثير من الجهد في الوقوف أو المشي الطويل. والأخطر من ذلك كله، أن هذا المخلوق لديه عضوان جنسيان ولا يحتاج إلى أحد من أجل التناسل. عندئذٍ قال زوس وهو الزعيم الأعلى للأولمب: «لديَّ خطة لأنتزع القوة من هذه الكائنات الفانية». فما كان منه إلا أن أنزل الصاعقة فانشقت المخلوقات شطرين رجلاً وامرأة، مما جعل نسل الأرض يزداد كثيراً، لكن هذا الانشطار بين ذكر وأنثى أضعف ساكني الأرض، وأثار فيهم البلبلة والضلال. صار لزاماً عليهم أن يبحثوا عن نصفهم المفقود ويعانقوه من جديد ليستعيدوا بهذا

العناق قوتهم السابقة ومهاراتهم المفقودة، ليصبحوا أقدر على مواجهة المتاعب والمشقات واتقاء سهام الغادرين. هذا العناق الذي يستطيع من خلاله الجسدان أن يجتمعا من جديد لكي يصيرا واحداً، هو ما ندعوه الجنس.

ـ هل هذه القصة حقيقية؟

ـ أجل، بحسب أفلاطون.

نظرت إليه ماريا مسحورة، وامّحت من ذهنها تجربة البارحة نهائياً، فُتِنت به عندما كان يروي هذه القصة الغريبة بحماس وبعينين تلتمعان ليس فقط رغبة بل فرحاً. رأت أمامها رجلاً يشع وجهه بذاك الضوء الذي كان قد استشفه فيها.

ـ هل أستطيع أن أطلب منك إيضاحاً؟

أجابها رالف أنها تستطيع أن تستوضح عمّا تشاء.

ـ لماذا، عندما شقّت الآلهة هذه المخلوقات ذات الأرجل الأربع شطرين، اعتبر البعض أن العناق ليس إلا أمراً كالأمور الأخرى، وأنه بدلاً من أن يزيد طاقة البشر، فإنه ينتزعها، هل بإمكانك أن تقول لي السبب؟

ـ أتقصدين الكلام عن الدعارة؟

ـ هذا بالضبط ما قصدته. هل تستطيع أن تقول لي متى لم يعد الجنس مقدّساً.

ـ سأحاول معرفة ذلك إن شئتِ. لم أفكر في الموضوع من قبل، وأعتقد أن أحداً لم يفكر فيه.

سألت ماريا بإلحاح بالغ:

ـ هل فكّرت مرةً أن النساء العاهرات قادرات على الحب؟

ـ نعم. فكرت في الأمر عندما كنا جالسيْن أمام الطاولة في المقهى، فرأيت ذاك الضوء المنبعث من وجهك. وحين دعوتك إلى

شرب كأس، اخترت أن أصدق كل شيء، بما فيه إمكانية أن تعيديني إلى العالم الذي فارقته منذ وقت طويل.

أحسّ أن العودة إلى الوراء باتت متعذّرة. إنها العشيقة، وعليها أن تهرع للنجدة حالاً، فتقبّله وتضمه بين ذراعيها، وترجوه ألا يذهب.

لكنها قالت:

ـ لنعد إلى قصة المحطة أو بالأحرى لنعد إلى اليوم الذي جئنا فيه للمرة الأولى إلى هذا الصالون، حين اعترفت بوجودي وقدّمت لي هدية. كانت هذه محاولتك الأولى لدخول كياني، ولم تكن تعرف المكانة التي تحتلها في نفسي. لكن، وكما تروي قصتك، فإن الكائنات البشرية مشطورة نصفين، وهي تسعى دوماً خلف العناق الذي يجمعها. هذه غريزتنا، لكن هذا أيضاً السبب الذي نحتمل لأجله كل الصعوبات التي تعترض طريقنا خلال هذا السعي.

وأردفت ماريا قائلة:

ـ أريد أن تنظر إلي، وأريد في الوقت نفسه ألاّ تجعلني ألاحظ ذلك. الرغبة الأولى مهمّة لأنها محتجبة ومحرّمة ولا تدخل في الحسبان. لا تعرف إن كنت موجوداً أمام نصفك المفقود، ولا هو أيضاً يعرف ذلك. لكن شيئاً ما يجذب أحدكما الى الآخر ويجب الاعتراف به.

ثم قالت ماريا في نفسها: «من أين آتي بكل هذه الأفكار؟ أمِن أعماق قلبي، لأنني رغبت دوماً في أن يكون الأمر كذلك؟ أم من أحلامي، من حلمي بالذات كامرأة؟

أخفضت قليلاً حمالة فستانها لكي تكشف عن جزء، جزء صغير من أحد نهديها «الرغبة ليست ما تراه بل ما تتخيّله».

رأى رالف أمامه أمرأة سمراء ترتدي فستاناً غامق اللون كشعرها، جالسةً على أرض الصالون، مفعمةً بالرغبات الغريبة، كالرغبة مثلاً التي حدتها إلى إشعال النار في المدفأة صيفاً. أجل، أراد أن يتخيّل ما

يخفيه هذا الثوب، أن يتخيّل حجم نهديها. كان يعرف أن الصدارة التي ترتديها ليست ضرورية، لكنّها من مستلزمات المهنة. لم يكن نهداها كبيرين ولا صغيرين، بل كانا فتيين، ونظرتها لم تكن لتبوح بشيء. ماذا كانت تفعل هنا؟ لماذا يقيم هذه العلاقة الخطرة الغريبة ما دام لا يجد أي صعوبة في العثور على المرأة التي يشتهيها؟ كان ثرياً وفتياً وشهيراً وحسن المظهر وشغوفاً بعمله. أحب المرأتين اللتين تزوج بهما وأحبتاه. كان لديه كل ما يمكن لإنسان أن يتمنّاه. كان حرياً به أن يهتف عالياً ويقول: «كم أنا سعيد».

لكنه لم يكن سعيداً. رأى من حوله الكثير من الناس يتهافتون من أجل كسرة خبز وسقف ووظيفة تسمح لهم بالعيش الكريم، فيما هو يملك كل شيء، وهذا يزيده تعاسة. إلا أنّه، من فترة ليست بعيدة، استيقظ لمرتين أو ثلاث ونظر إلى الشمس، أو إلى المطر، وشعر أنه سعيد، فقط لكونه حياً يرزق، سعيد بكل بساطة، دون أن يرغب في شيء، دون أن ينجز أي مشروع، ودون أن يطلب شيئاً بالمقابل. ما خلا هذه الأيام النادرة، فقد استهلك نفسه في الأحلام والحرمان والعمل والرغبة في تخطّي الذات والأسفار، أكثر ممّا يقوى على احتماله. كان متأكداً من أنه قضى حياته وهو يحاول إثبات شيء ما، لمن تحديداً؟ وما هو هذا الشيء؟ لا يعرف.

ظلَّ ينظر إلى المرأة الجميلة الواقفة أمامه، والتي ترتدي الأسود الخَفِر، المرأة التي التقاها مصادفة مع أنه رآها من قبل في حانة ليلية، فأدرك أنها صعبة المراس. كانت تسأله إن كان يرغب فيها، وهو يرغب فيها كثيراً، أكثر مما تستطيع أن تتصور. لكنه لا يرغب في نهديها أو جسدها بل في رفقتها. كان يكفيه أن يضمها بين ذراعيه، وهو يتأمل النار بصمت، أو يشرب النبيذ، أو يدخّن سيجارة أو اثنتين. هذه الحياة سلسلة من الأمور البسيطة، وقد تعب من كل هذه السنوات التي سلخها وهو يبحث عن شيء لا يعرف كنهه.

بَيْدَ أنه، إن لمسها ضاع كل شيء. رغم «الضوء» المنبعث منها، لم يكن متأكداً من رغبتها الفعلية في قربه. هل عليه أن يدفع لها، أن يشتري رغبتها؟ أجل، وسيستمر في الإنفاق عليها إلى أن يتمكّن من غزو قلبها والجلوس معها على حافة البحيرة والكلام عن الحب؛ إلى أن يسمع منها الشيء نفسه بالمقابل.

الأفضل إذن عدم المجازفة، وعدم استعجال الأمور، والصمت.

توقّف رالف هارت عن تعذيب نفسه، وعاد ليركّز من جديد على اللعبة التي اخترعاها لتوهما. كانت المرأة الجالسة في مواجهته على صواب. النبيذ والنار والسيجارة والرفقة لا تكفي، وينبغي البحث عن نوع آخر من النشوة، عن نار أخرى.

كانت ترتدي فستاناً بحمّالات، وتكشف عن أحد نهديها. باستطاعته أن يرى بشرتها التي تميل إلى السمرة أكثر منها إلى البياض، وشعر أنه يشتهيها كثيراً.

لاحظت ماريا بريقاً ينبعث من عيني رالف. تعرف أنها مرغوبة، وهذا أثارها أكثر من أي شيء آخر. لا علاقة لما يحدث بالوصفات التقليدية عن الحب: أريد أن أمارس الحب معك، أريد أن أتزوّج، أن نصلَ إلى النشوة، أن أنجب طفلاً، أريد التزامات تجاهي. لا، لم يكن الأمر كذلك. كانت الرغبة شعوراً حراً، اهتزازاً في الفضاء، إرادة تغني الحياة. وهذه الإرادة بإمكانها أن تقلب الجبال وتجعل ماريا تمضي قدماً و... تجعل عضوها رطباً.

كانت الرغبة مصدر كل شيء، مذ غادرت أرض بلادها لتكتشف عالماً جديداً، وتتعلّم اللغة الفرنسية، وتتخطّى أحكامها المسبقة، وتحلم بإنشاء مزرعة، وتقع في الغرام دون أن تطلب شيئاً بالمقابل، وتتمرأى في عيني رجل، فترى انعكاس ذاتها الحقيقية. أخفضت الحمّالة الأخرى لفستانها ببطءٍ مدروس، ثم أنزلت الفستان عن جسدها. خلعت صدارتها، ولبثت مكانها عارية الصدر تتحرّق شوقاً لأن يرتمي فوقها ويضم صدره إلى صدرها، ويتعهّد لها بالحب

الأبدي. تساءلت: هل كان حساساً بما يكفي لكي يستسلم للرغبة بذاتها، وهي لذة الجنس الحقيقية؟

هدأت الضجة من حولها. اختفت المدفأة ومعها اللوحات والكتب. لم يعد هناك إلا الرعدة التي لا مكان فيها إلّا لدواعي اللذة التي تلغي كل ما عداها.

لم يحرّك الرجل ساكناً. في البداية، قرأت شيئاً من الخجل في عينيه، لكن هذا لم يدم طويلاً. كان ينظر إليها ويمرّر لسانه فوق جسدها ويتداخلان ويندى جسدهما عرقاً، ويتبادلان القبل، ويمزجان الحنان بالعنف، ويصرخان ويتأوهان حتى يبلغا معاً مرحلة النشوة...

كل هذا حصل في خياله. في الواقع، كانا صامتين لا يحرّكان ساكناً. وهذا السكون زاد من إثارة ماريا، لأنه أتاح لها الحرية في أن تتخيّل ما تشاء. طلبت إليه أن يلمسها برفق، ثم أفرجت ساقيها، واستمنت أمامه، وهي تتلفّظ، دون تمييز، بكلمات رقيقة ومبتذلة. بلغت مرحلة النشوة عدة مرات، وكادت توقظ الجيران بصرخاتها، لا بل ودّت لو أقلقت بال العالم، وتركته في حالة استنفار. أمامها الرجل الذي تحلم به، الذي يمنحها اللذة والفرح، الذي تستطيع معه أن تكون نفسها، فتعترف له بمشكلاتها مع جسدها، وتقول له كم تودّ لو تبقى معه طوال الليل والأسبوع و... الحياة.

بدأ العرق يتصبّب من جبينيهما. كان ذلك بسبب النار المشتعلة في المدفأة. هذا ما فكّر به كلاهما في الوقت نفسه، دون أن يتفوّها به. كانا يشعران أنهما يذهبان بعيداً متجاوزين الحدود، مطلقين العنان لخياليهما، ويعيشان معاً لحظات أبدية من الهناء. لكن، ينبغي لهما أن يتوقّفا، لأن خطوة واحدة إلى الأمام تفقدهما كل شيء، وتعيدهما إلى نقطة البداية، ويختفي معها كل هذا السحر في مواجهة الواقع الأليم.

وببطء شديد أيضاً، لأن النهاية هي دوماً أصعب من البداية، ارتدت صدارتها وغطّت نهديها. عاد العالم إلى مكانه، وعادت الخيالات المبهمة من حولها إلى الظهور من جديد. ارتدت فستانها، ثم ابتسمت ولامست وجهه بعذوبة. أخذها من ذراعها، ثم جذبها ناحيته، وضمّها إلى صدره لتبقى رهينة بين ذراعيه.

رغبت في أن تقول له إنها تحبه. لكنها لم تفعل، لأن هذا قادر على إفساد كل شيء، وعلى إخافة الرجل الذي تحبّه. كما خشيت عليه من أن يقول لها إنه يحبها هو أيضاً. لم تكن ماريا تريد ذلك: إن حرية حبها تتمثّل في ألا تطلب شيئاً من حبيبها، وألا تحفل بما ينتظرها.

قالت:

ـ من يقدر على الإصغاء إلى مشاعره بآذان مرهفة، يعرف أنه في مقدورنا بلوغ النشوة دون أن يلمس أحدنا الآخر. ذلك أن الكلمات والنظرات تحوي في حناياها كل أسرار الرقصة. لكن القطار وصل، وكلٌّ يذهب في طريقه. كنت آمل أن أرافقك في هذه الرحلة حتى ... حتى أي مكان؟

ـ أجاب رالف: حتى الرجوع من جنيف.

ـ من يتملّى الإنسان الذي طالما حلم به، يعرف أن الطاقة الجنسية الكامنة في ذاته سابقة على الممارسة الجنسية. اللذة الكبرى ليست في الجنس بل في الشغف الذي نمارس به الجنس. وعندما يبلغ هذا الشغف عمق الذات البشرية، تأتي الممارسة الجنسية بمثابة الستار الذي يُسدل على الرقصة، ولا يمكن أن يكون عنصراً من عناصرها الأساسية.

ـ تتكلمين عن الحب كمحترفة.

أرادت ماريا أن تتحدّث عن الحب، لأن هذا الحديث كان وسيلتها في الدفاع عن نفسها وتسليم نفسها في آن، دون أن تشعر بالحرج.

ـ يمارس العاشق الحب طوال الوقت، حتى عندما لا يمارسه.

وحين تتلاقى الأجساد فهذا يعني أن الشراب قد بلغ حافة الكأس. بإمكانهما أن يبقيا معاً لساعات ولأيام طويلة. بإمكانهما أن يبدآ الرقصة اليوم وينهياها غداً، أو يستمرا فيها مستسلمين للذة لا تنتهي. لا علاقة لذلك بالإحدى عشرة دقيقة...

ـ ماذا؟

ـ أحبك.

ـ أنا أيضاً أحبكِ.

ـ اعذرني، لم أعد أعرف ماذا أقول.

ـ ولا أنا أيضاً.

نهضَتْ. طبعت على خده قبلة وخرجت.

وهذا ما دوّنته ماريا في يومياتها صباح اليوم التالي:

«البارحة مساءً، عندما نظر إليّ رالف هارت، شعرت أنه شرّع في داخلي باباً وتسلّل كالسارق. لكنه حين رحل، لم يأخذ شيئاً. بل على العكس، ترك وراءه عطراً كالورد، لم يكن سارقاً، بل خطيباً كان يزورني...

يسعى كل كائن بشري إلى تحقيق رغبته الدفينة، وهذا يشكّل جزءاً من الكنز المختبىء داخل نفسه. قد يكون الانفعال الذي تثيره الرغبة منفّراً للآخر، وقد يقربنا من الكائن المحبوب، هذا الانفعال الذي هزّ كياني واستجاب لحاجتي النفسية، وهو جامح بحيث يستطيع أن يعطّر الأجواء المحيطة بي.

كل يوم أسعى لاكتشاف الحقيقة التي أريد أن أحياها، أحاول أن أكون عملية، فعّالة، محترفة. لكن أود لو أتمكّن من أن أتخذ الرغبة رفيقتي الدائمة. بَيْدَ أنني لست ملزمة بالسعي لأخفّفَ من وطأة الوحدة التي أعيشها، بل لأن الرغبة حلوة. أجل، حلوة جداً».

هناك ٣٨ امرأة يعملن بانتظام في حانة «كوباكابانا» (باستثناء الفيليبينية نيا، لم تكن لماريا صديقة بينهن). كان المعدّل الوسطي لعملهن في الحانة يراوح بين ستة أشهر كحد أدنى وثلاث سنوات كحد أقصى. كن يغادرن العمل إما لأنهن تلقّين عرضاً سريعاً بالزواج، أو دعوة ليصبحن عشيقات مكرّسات لأحد الزبائن، وإما لأنهن ما عُدن يثرن اهتمام الزبائن. عندئذٍ، كان ميلان يطلب إليهن بلطف أن يبحثن عن مكان آخر يعملن فيه.

من الأهمية بمكان أن تحترم كل واحدة منهن الأخرى، وألا يعمدن إلى إغواء الزبائن الذين اعتادوا معاشرة فتاة محددة. ليس لأن قلّة الاحترام هذه غير مستحبّة، بل لأن الأمور يمكن أن تتخذ منحى خطيراً. في الأسبوع السابق، أخرجت فتاة كولومبية من محفظة يدها شفرة حلاقة ووضعتها فوق الكأس التي كانت تتناولها فتاة يوغوسلافية، ثمّ حذّرتها بصوت هادىء أنها ستعمد إلى تشطيب وجهها بشفرة الحلاقة إن هي استمرت في قبولها دعوة أحد مديري المصارف، وهو زبون دائم عندها. أجابتها اليوغوسلافية أن الرجل حر، وأنه اختارها، ولا يمكنها بالتالي أن ترفض.

هذا المساء، دخل الرجل المذكور. ألقى التحية على الكولومبية، ثم اتجه إلى الطاولة حيث تجلس الفتاة الأخرى. تناولا المشروب ورقصا. (كانت ماريا تراقبهما وترى أن اليوغوسلافية تستفز بشكل واضح زميلتها. كانت نظرتها الخاطفة تقول: «هل رأيت، لم يخترك أنت بل اختارني أنا».

لكن هذه النظرة الخاطفة كانت تعني أيضاً أشياء كثيرة مبطّنة: اختارني لأنني أجمل منك، ولأنني ذهبت معه الأسبوع الماضي وأعجبتْه مضاجعته لي، ولأنني أكثر فتوة منك. لاذت الكولومبية بالصمت. وعندما رجعت الفتاة الصربية بعد ساعتين، جلست الكولومبية قربها، ثم أخرجت شفرة الحلاقة وشطبت بها وجهها عند الأذن، لكي تترك جرحاً يذكّرها بهذه الليلة، فلا تعيد الكرّة. اشتبكت الفتاتان وسالت الدماء وخرج الزبائن مذعورين.

عندما وصلت الشرطة، أعلنت اليوغوسلافية أن وجهها شطب مصادفة، إذ سقط قدح زجاجي من أحد الرفوف وأصابها (ليست هناك رفوف في «كوباكابانا»!). كانت هذه قاعدة الصمت التي يتوجّب اتباعها في الحانة، وهذه القاعدة تسمّيها العاهرات الإيطاليات «أوميرتا». إذ إن كل المشكلات، ابتداءً بتلك الناتجة عن غيرةٍ وانتهاءً بحوادث الموت، يُبتّ بشأنها، وتجد حلولاً لها في شارع برن، لكن دون تدخل السلطة القضائية، لأن شارع برن يمتلك قانونه الخاص به.

كان رجال الشرطة يعرفون «الأوميرتا»، ويعرفون أن المرأة كانت تكذب لكنهم لم يصرّوا على المضيّ في التحقيق، لأنّ هذا سيجعل المكلّف السويسري مسؤولاً عن الأعباء المالية الباهظة التي يستوجبها التوقيف والمحاكمة. وجّه إليهم ميلان شكره بالنظر إلى سرعة تدخلهم، قائلاً إن كل ما حصل مجرد سوء فهم أو مؤامرة يدبّرها أحد المنافسين له.

عندما خرج رجال الشرطة، طلب ميلان إلى الفتاتين مغادرة المكان وعدم الرجوع للعمل في حانته. قال لهما إن «كوباكابانا» مؤسسة عائلية في آخر الأمر (وهذا تعريف لم تستطع ماريا فهم معناه)، وإنه كان حريصاً كل الحرص على سمعته وعلى الدفاع عنها (وهذا يحيّرها أيضاً). لا وجود إذن لخصومات أو مشاجرات، فالقاعدة الأولى هي احترام الزبون، والقاعدة الثانية هي التكتم

المطلق (تمثّلاً بقانون سرية المصارف في سويسرا)، لاسيّما وأنه يمكن الوثوق بالزبائن الذين ينتقيهم ميلان بعناية، كما يتم اختيار زبائن المصرف ليس فقط تبعاً لحسابهم الجاري، بل أيضاً لأخلاقهم الحسنة وعاداتهم المستقيمة.

على الرغم من براعة ميلان في اختيار زبائنه، فإن الأمر لا يخلو أحياناً من التباس في المواقف أو سوء فهم. كذلك قد يرفض أحياناً أحد الزبائن تسديد ما يتوجّب عليه أو قد يوجّه تهديداً لإحدى الفتيات أو يعتدي عليها. منذ أن أنشأ ميلان «كوباكابانا» وهو يختار زبائنه وفقاً لمعايير خاصة به، ويشقّ على الفتيات تحديدها أو معرفتها. كن يلاحظن أن ميلان كان يبدو مجافياً لكثير من الرجال الأنيقين ويحاول إبعادهم عن الحانة بعبارات شتى، فيما يستقبل بحرارة زبائن غير خليقين، ويرتدون بذلات رياضية، ويدعوهم إلى تناول كأس من الشمبانيا.

لم يكن صاحب «الكوباكابانا» ليحكم على الناس من خلال المظاهر، وهذا كان يجنّبه الوقوع في أخطاء كثيرة.

لا بدَّ من كل علاقة تجارية ناجحة أن تُبنى على رضى الطرفين. كانت أكثرية الزبائن الذين يأتون إلى الحانة متزوّجين أو يشغلون وظائف مهمة في الشركات. وكانت بعض النسوة اللواتي يعملن هناك متزوجات ولديهن أطفال، ويشاركن في حضور اجتماعات مجالس الأهالي في المدرسة، وهن واثقات أن عملهن لا يورطهن بشيء على الصعيد الاجتماعي، لأنّ رب العائلة الذي يتردّد إلى الحانة سيكون هو أيضاً متورطاً ومجبراً على لزوم جانب الصمت. وهذا أيضاً وجه آخر لنظام «الأوميرتا» الذي يعمل به هناك.

أما العلاقة بين الفتيات، فكانت تقتصر على الزمالة فقط دون الصداقة، فلا تستفيض إحداهن في الكلام عن حياتها الشخصية. وخلال الأحاديث القليلة التي أجرتها ماريا مع زميلاتها، اكتشفت أنهن لم يعانين من أي شعور بالمرارة أو الذنب أو الحزن، بل يعانين

فقط من الخضوع والاستسلام. لكنها كانت تلمح في أعينهن نظرة تحدٍّ غريبة وكأنهن كن فخورات بأنفسهن، ويواجهن العالم باستقلالية وثقة. ما إن تقضي الوافدة الجديدة أسبوعاً في «كوباكابانا»، حتى تُعدّ محترفة وتتلقّى التعليمات التي يجب عليها اتّباعها، وهي: احترام العلاقات الزوجية (لا يمكن للعاهرة أن تشكّل تهديداً لاستقرار الأسرة)، عدم الموافقة على المواعيد خارج دوام العمل، الإصغاء إلى اعترافات الزبائن دون أن تتدخل فيما لا يعنيها، التأوّه لحظة بلوغ الرجال النشوة، إلقاء التحية على رجال الشرطة في الشارع، حيازة بطاقة عمل كاملة، إجراء فحوص طبية منظمة، وأخيراً عدم الخوض في النواحي الأخلاقية أو القانونية للمهنة. لقد اختارت العاهرات طريقهن بأنفسهن، ونقطة على السطر.

قبل أن يزدحم المكان بالزبائن وتبلغ أجواء السهرة مداها، كانت ماريا تُشاهد دوماً وفي يدها كتاب تقرأه. باتت معروفة بصفتها «مثقّفة» الفريق. في البداية، رغبت الفتيات في أن يعرفن نوعية الكتب التي تقرأها. لكن، بما أن هذه الكتب لا تروي قصص حب، بل تتناول فقط موضوعات جادّة وغير مهمة لهن، كالاقتصاد وعلم النفس وإدارة المزارع، آثرت الفتيات أن يتركنها بسلام، تتابع أبحاثها وتدوّن ملاحظاتها.

كان لدى ماريا الكثير من الزبائن الدائمين، وكانت تذهب إلى «كوباكابانا» كل يوم حتى في الأمسيات التي تكون فيها الحركة خفيفة. لذا، اكتسبت ثقة ميلان، وأثارت غيرة رفيقاتها اللواتي أخذن يشيّعن فيما بينهن أن هذه البرازيلية طموحة ومدّعية ولا هم لها إلا كسب المال. في أي حال، لم يكنَّ مخطئات بخصوص النقطة الأخيرة. ومع ذلك، رغبت ماريا في أن تسألهن أوَلا ينسحب الأمر عليهن أيضاً؟ ألا يعملن هنا للهدف نفسه؟

لكن الثرثرة لا تقتل، بل هي ضريبة النجاح. ومن الأفضل لماريا أن تتجاهلهن وتحصر اهتمامها في هدفين: العودة إلى البرازيل في الوقت المحدّد، وإنشاء مزرعة.

كان رالف هارت يشغل أيضاً تفكيرها من الصباح حتى المساء. أحست لأول مرة في حياتها أنها قادرة على الاستمتاع بغياب الحبيب. لكنها كانت نادمة قليلاً، لأنها أفصحت له عن مشاعرها في المرة السابقة، وقالت له إنها تحبه. وفي هذا أظهرت تهوّراً لأنها تجازف بأن تخسر كل شيء. لكن ما الذي ستخسره ما دامت لا تطلب شيئاً بالمقابل؟ تذكّرت خفقان قلبها وانفعالها العارم عندما أشار ميلان إلى رالف على أنه «زبون غير عادي». شعرت عندئذٍ بالغيرة وبأنها خُدعت في الصميم.

صحيح أن الحياة علّمت ماريا أن من غير المجدي الاعتقاد بأنه في الإمكان امتلاك الآخر، ويخدع نفسه من يعتقد ذلك. لكن الغيرة أمر طبيعي. ومهما استرسلنا في قراءة النظريات التي تدحض الغيرة أو تقول بأنها دليل هشاشة وضعف، فإننا لا نستطيع أبداً التوصّل إلى لجم هذا الشعور أو التغلّب عليه.

الحب الأكبر هو الحب القادر على إظهار هشاشته وضعفه. في أي حال، إذا كان حبها حقيقياً (وليس فقط وسيلة للتسلية وخداع النفس وتزجية الوقت الذي يتمطّى إلى ما لا نهاية في هذه المدينة)، فإن الحرية ستتغلّب في النهاية على الغيرة والألم الذي تسببه هذه الغيرة. ذلك أن الألم يشكّل عنصراً من عناصر الحياة. ومن يزاول الرياضة يعرف ذلك جيداً؛ لأنه، إذا أراد بلوغ أهدافه، فيجب عليه أن يكون مستعداً لتحمّل جرعة يومية من الألم والشعور بالضيق. فالانزعاج الذي يحسّه في البداية وتثبيط العزيمة ليسا إلّا مرحلة مؤقتة، ليحصل فيما بعد على الرضى والراحة، ويصبح الألم جزءاً لا يتجزّأ من مسار تطوّره، لأنّ الرياضي، من دون الألم، لا يشعر أن التمرين قد أعطى النتيجة المرجوة.

لكن الخطورة تكمن في التوقّف عند الألم دون غيره وإبداء الخشية منه وإطلاق التسميات المختلفة عليه. وقد تحرزت ماريا، ولله الحمد، من هذه الهواجس. ومع ذلك، لا تزال التساؤلات المزعجة

تقضّ مضجعها. تُرى أين هو رالف؟ لماذا لا يأتي لاصطحابي؟ هل وجدني غبية عندما تخيلت قصة المحطّة؟ هل خسرته إلى الأبد، لأني اعترفت له بحبي؟ لكنها أرادت ألا تتحوّل هذه المشاعر الجميلة إلى عذاب، فابتدعت وسيلة لتتجنّب ذلك. حين تستعيد ذكرى علاقتها الإيجابية برالف، النار في المدفأة والنبيذ، والتحدّث إليه، والرغبة اللذيذة التي تعتريها لمجرد التفكير في موعد رجوعه، كان يتضاءل في عينيها ما تفعله، وتبتسم للسماء، وتشكرها على أنها حية ترزق، وأنها لا تنتظر شيئاً من الرجل الذي تحبّه.

وحين كانت أفكارها تعذّبها وتخشى أن تفتقده وتستاء من البلاهات التي تفوّهت بها عندما كانا معاً، كانت تقول لنفسها: «ما بالك؟ هل تريدين التفكير بذلك؟ حسناً، كما تريدين، نزولاً عند رغبتك. أما أنا فسأكرس وقتي لأمور أهم». عندئذٍ تقرّر أن تواصل القراءة، أو تتجول في الشارع، وهي تولي انتباهها لكل ما يحيط بها: الألوان، الناس، الأصوات، بخاصة الأصوات: وقع الأقدام، ضجيج السيارات، حفيف الصفحات وهي تقلّبها، شذرات الأحاديث. وعندئذٍ تمّحي الأفكار السلبية من ذهنها. وإذا ما عادت إلى الظهور، تعيد ماريا ما فعلته إلى أن تبتعد الذكريات المُعذّبة، بلطف ولوقت طويل.

كان يعذّبها مثلاً أن تتخيّل أنها لن ترى رالف مجدّداً. لكن ماريا استطاعت، بقليل من التمرس وكثير من الصبر، أن تحوّل هذه الفكرة وتجعلها «ايجابية»! حين ترحل، سيكون لجنيف وجه، وجه هذا الرجل بشعره الطويل وتسريحته القديمة، بابتسامته الطفولية وصوته الثخين. وإذا سألها أحد، بعد سنوات لاحقة، عن المكان الذي تعرّفت إليه في شبابها، فسوف تجيب: «جميل وقادر على أن يحب ويكون محبوباً».

وهذا ما دوّنته ماريا في يومياتها ذات يوم كانت فيه الحركة خفيفة في الحانة:

«عاشرت الكثير من الناس الذين يأتون إلى هنا وخلصت إلى النتيجة التالية، وهي أن الجنس يصير كأي نوع من أنواع المخدرات، وسيلة للهروب من الواقع ونسيان المصاعب والاسترخاء. لكن الجنس، شأنه شأن المخدّرات كلها، ممارسة مؤذية ومدمّرة.

إذا رغب أحد في أن يصير مدمناً سواء من خلال الجنس أم من خلال أي وسيلة أخرى، فهو حر، لأن عواقب أفعاله ستكون مرتبطة بالخيارات التي سيتخذها. لكن إذا رغب أحد في أن يسير قدماً في الحياة ويرتقي، فعليه أن يدرك الفرق بين ما هو «جيد» وما هو «أفضل».

الجنس، بخلاف ما يظن الزبائن الذين عاشرتهم، لا يمكن ممارسته في أي وقت. يوجد في كلّ منا منبّه داخلي، وحين يريد شخصان أن يمارسا الحب، فمن الضروري أن تشير عقاربهما إلى الساعة نفسها في الوقت نفسه. وهذا لا يحدث كل يوم، لأن من يحب لا يشعر أن الحال ستؤدي به إلى الفعل الجنسي، وأن من دونه لا يمكن أن تستقيم أحوالنا. إن الشخصين المتحابين يجب عليهما أن ينظّما عقارب الساعة بصبر وثبات من خلال إطلاق العنان لخيالهما في استنباط التسليات الطريفة وابتكار التمثيليات الصغيرة التي

من شأنها أن تؤجّج الرغبة. وعليهما أيضاً أن يفهما أن الجنس هو أكثر من لقاء. إنه اتحاد جسدي عن طريق الأعضاء التناسلية.

وهكذا يرتدي كل شيء طابع الأهمية. إن الكائن الذي يعيش حبه بشغف، يشعر أنه كمن يبلغ النشوة الجنسية طوال الوقت ولا ينقصه الجنس. إذا حدث وأقام اتصالاً جنسياً، فهذا لأن هنالك فيضاً داخله، لأن الإناء امتلأ وبات يفيض بما فيه، ولأنه يتقبل نداء الحياة. لأنه، في هذه اللحظة، هذه اللحظة بالذات، لم يعد قادراً على احتواء هذا الفيض.

بعدما فرغت ماريا من كتابة هذه الكلمات بوقت قصير، توجّهت إلى الحانة. وفيما كانت تتهيّأ لقضاء سهرة جديدة تؤدّي فيها دور «الأم الحنون» أو «الفتاة الصغيرة الساذجة»، فُتح باب «كوباكابانا» ودخل تيرنس.

بدا ميلان خلف البار مرتاحاً: لم تخيّبه الفتاة في المرة السابقة إذن. حين رأت ماريا تيرنس تذكّرت حالاً هذه الكلمات التي تعني الكثير والتي بقي معناها بالنسبة إليها غامضاً: «الألم، العذاب والكثير من اللذة».

ـ أتيت من لندن خصيصاً لرؤيتك. فكرت فيك كثيراً.

ابتسمت محاولة ألا تكون ابتسامتها مشجّعة. هذه المرة أيضاً، لم يكن وفياً للطقوس، ولم يدعُها لتناول كأس ولا للرقص، بل جلس بكل بساطة.

ـ عندما يحثّ الأستاذ تلميذه على اكتشاف أمرٍ ما، يجد أنه يشارك التلميذ أيضاً في هذا الاكتشاف.

أجابت ماريا:

ـ أعرف ماذا تقصد.

كانت ماريا تفكر في رالف وتشعر أن التفكير فيه يغيظها، فيما هي تواجه أحد الزبائن، وينبغي لها احترامه وفعل كل ما بوسعها لإرضائه.

ـ هل تريدين الذهاب أبعد من المرة السابقة؟

فكّرت ماريا: ألف فرنك، عالم مستتر يدعوها لاكتشافه، صاحب الحانة ينظر إليها، تستطيع التوقّف في عملها ساعة تشاء، التاريخ المحدّد للعودة إلى البرازيل، رجل في حياتها ولا يعلن عن مبادرة نحوها...

سألت ماريا:

ـ هل أنت على عجلة من أمرك؟

أجاب نفياً. لكن ماذا تريد هذه الفتاة؟

ـ أريد أن أشرب كوب العصير، وأنهي رقصتي، وأبدي احتراماً لطقوس مهنتي. بدا متردداً قليلاً. لكن أن يهيمن الإنسان أو أن يُهيمَن عليه، ألا يشكّلان كلاهما جزءاً من التمثيلية؟ سدّد تيرنس الحساب، رقصا ثم نادى سائق تاكسي. أنقدها الألف فرنك، وهما يجتازان المدينة. نزلا في الفندق نفسه كما في المرة السابقة، وحيّا تيرنس الحارس الإيطالي، كما في ذلك المساء حين تعارفا، ثم دخلا الغرفة نفسها التي تطل على النهر.

أشعل تيرنس عود ثقاب، وعندئذٍ لاحظت ماريا أن شموعاً لا تحصى تملأ الغرفة.

قال تيرنس، وهو يضيء الشموع:

ـ ماذا تريدين أن تعرفي؟ لماذا أنا هكذا؟ لماذا، إن لم أكن مخطئاً، أعجبتك السهرة التي قضيناها معاً حتى الجنون؟ هل تريدين أن تعرفي لماذا أنت أيضاً هكذا؟

ـ هناك عادة شائعة في البرازيل تقول بأنه لا ينبغي إضاءة أكثر من ثلاث شمعات بعود الثقاب نفسه. أنت لا تعمل بحسب هذه العادة.

تجاهل تيرنس الملاحظة.

ـ أنتِ مثلي. لا تأتين إلى هنا من أجل الألف فرنك بل لأنّ لديك شعوراً بالذنب مثلي وبالتبعية وفقدان الثقة بالنفس، ولأن لديك

عقداً كثيرة. وهذا ليس سيئاً ولا جيداً، هذه هي الطبيعة البشرية.

أمسك بيده آلة التحكّم عن بعد، وأدار جهاز التلفزيون وبدّل بضع محطات ثم توقّف عند محطة تبث نشرة أخبار، وتعرض صوراً لبعض اللاجئين الهاربين.

ـ هل ترين هذه الصور؟ هل سبق لك أن رأيت البرامج التي يعرض فيها الناس مشكلاتهم الشخصية أمام الجميع؟ هل ذهبت مرةً إلى كشك الصحف وقرأت العناوين الكبرى؟ الجميع يغتبطون لمشاهد الألم والعذاب. ننظر إليها بروح السادية. نحن مازوشيون فقط عندما نستنتج أننا لا نحتاج إلى معرفة كل هذا الألم لنكون سعداء. ومع ذلك، نشاهد مأساة غيرنا بتلذذ، وأحياناً نتعذّب إثر ذلك.

سكب كأسين من الشمبانيا. أطفأ جهاز التلفزيون، واستأنف إضاءة الشموع دون أن يحفل بالمعتقد الذي حدّثته عنه ماريا.

ـ أعود وأكرّر: إنه الشرط الإنساني، مذ أن طُردنا من الجنة، نتألّم أو نجعل الآخرين يتألمون. نراقب عذاب الآخرين ولا نستطيع أن نفعل شيئاً.

سمعا الرعود تقصف. يبدو أن هناك عاصفة هوجاء تقترب.

قالت ماريا:

ـ لا أقوى على احتمال ذلك. يبدو لي مضحكاً أن أفكر أنك سيدي وأنني عبدتك. لا نحتاج لأي «مسرح» لنعرف معنى العذاب. فالحياة نفسها تمنحنا فرصاً لا تحصى للتعرف إليه.

أُضيئت جميع الشموع. أخذ تيرنس شمعة ووضعها في وسط الطاولة. سكب من جديد الشمبانيا وقدّمها مع الكافيار. احتست ماريا كأسها، وهي تفكر في الألف فرنك في محفظة يدها، في المجهول الذي ينتظرها، وهو يسحرها ويخيفها في الوقت نفسه؛ لن تسنح لها فرصة أفضل للتغلّب على مخاوفها. لن تكون السهرة مع هذا الرجل شبيهة بسابقاتها، ولن تتمكّن من إخضاعه.

ـ اجلسي.

قالها بنبرة امتزجت فيها عذوبة الكلام بقسوته. أذعنت ماريا لطلبه. وعندئذٍ، سرت في أوصالها موجة من الحرارة. كانت تألف هذا الأمر، وأحست أنها أكثر اطمئناناً: «إنه المسرح، يجب أن أدخل في اللعبة».

كانت تشعر بالارتياح عندما يتوجّه إليها بصيغة الأمر. يجب ألا تفكّر، أن تطيع فقط. طلبت المزيد من الشمبانيا، لكنه أحضر زجاجة فودكا، والفودكا يسري مفعولها بسرعة أكبر؛ وتحرز بسهولة ما هو مكبوت، وتتلاءم أكثر مع الكافيار.

فضّ خاتم الزجاجة. شربت ماريا وحدها في الحقيقة. كان الرعد يقصف باستمرار، وكل شيء يساهم في تهيئة الجو الملائم وكأن السموات والأرض أبتا إلا أن تضفيا على جو اللقاء طابع العنف الذي تختزنه في حناياها.

أخرج تيرنس من الخزانة صندوقاً صغيراً ووضعه على السرير.

ـ لا تتحركي!

أطاعت ماريا. فتح الصندوق، وأخرج منه زوجيْن من الأصفاد المعدنية الملبَّسة بالكروم.

ـ اجلسي منفرجة الساقين.

أطاعت وهي متلذّذة بعجزها، خاضعة لأنه يشتهيها، رأته ينظر بين ساقيها؛ يستطيع أن يرى سروالها الأسود وجواربها وفخذيها، ويراقب شعيرات عانتها وعضوها.

ـ قفي!

قفزت عن الكرسي فوجدت صعوبة في الإبقاء على توازن جسدها، وعرفت أنها كانت ثملة أكثر مما تصورت.

ـ لا تنظري إليّ. ابقي رأسك منخفضاً احتراماً لسيدك.

قبل أن تنفّذ الأوامر، لمحت سوطاً رفيعاً جداً يخرج من الصندوق ويهتزّ في الهواء مصفّقاً، كأن روحاً تسكن في داخله.

تجرّعت كأساً وكأسين وثلاثة من الفودكا. لم يعد هذا مسرحاً بل واقعاً ماثلاً أمامها، وهذا فوق طاقتها. أحسّت أنها مجرد شيء، أداة بسيطة، وأن هذا الخضوع منحها الشعور بالحرية الكاملة، إنه أمر لا يُصدَّق. لم تعد العشيقة، لم تعد المرأة التي تعلّم وتؤاسي وتستمع إلى الاعترافات وتثير الشهوة. لم تكن إلا فتاة برازيلية من الريف أمام السلطة المطلقة للرجل.

ـ اخلعي ملابسك.

كان هذا أمراً جافاً لا رغبة لها فيه، ومع ذلك هو إيروتيكي إلى أبعد حد. أبقت رأسها منخفضاً باستمرار كعلامة على الاحترام والخضوع اللامتناهي. خلعت فستانها فانزلق حتى لامس الأرض.

ـ أرأيت أنك تتصرّفين بشكل سيّىء؟

ومن جديد اهتزّ السوط مصفّقاً.

ـ عليك أن تُعاقبي. كيف تجرؤ فتاة في مثل سنّك على معارضتي. عليك أن تركعي أمامي!

تهيّأت للركوع، لكن السوط منعها من ذلك وأخذت الضربات تنهال على جسدها وعلى مؤخرتها، تشعرها بالحريق لكنها تترك أثراً على جسدها.

ـ لم أقل لك أن تركعي. هل قلت ذلك؟

ـ لا!

وانهال السوط من جديد على مؤخّرتها.

ـ قولي لا سيدي.

ومن جديد الضربات. ومن جديد الحريق. لثانية أو أقلّ، فكرت أنها قادرة على إنهاء كل شيء حالاً، وقادرة أيضاً على الذهاب حتى النهاية: ليس من أجل المال، بل بسبب ما قاله تيرنس في المرة

السابقة: لا يعرف الكائن البشري نفسه حقاً إلا حين يبلغ حدوده القصوى.

كانت هذه ما تسمى «المغامرة». في هذه اللحظة، لم تعد ماريا الفتاة الشابة التي تصبو إلى تحقيق أهدافها في الحياة، التي تكسب المال من جسدها، التي تعرفت إلى رجل يحكي لها قصصاً مثيرة أمام مدفأة. كانت لا أحد، وهذا أقصى ما حلمت به، أن تكون لا أحد.

ـ اخلعي ملابسك، وامشي أمامي لأستطيع أن أراك ملياً.

أطاعت منخفضة الرأس دون أن تنبس بكلمة. كان الرجل يتفحّصها بأعصاب باردة، وهو لا يزال مرتدياً ثيابه. لم يعد الكائن الذي التقته في الحانة الليلية. كان أوليس[1] الآتي من لندن، أو تيزيوس[2] النازل من السماء، الخطّاف الذي يجتاح المدينة الأكثر أماناً في العالم، والقلب الأكثر قسوة وتوحشاً على وجه الأرض. خلعت «كيلوتها وسوتيانها». وأحست أنها محمية وإن كانت لا تمتلك وسيلة للدفاع عن نفسها. كان السوط يصفّق في الهواء دون أن يبلغ جسدها.

ـ احتفظي برأسك منخفضاً! أنت هنا لكي تُذلّي وتخضعي لكل رغباتي، مفهوم؟

ـ أجل سيدي.

أمسك معصميها وغلّهما بالأصفاد.

ـ سترين العقاب الذي سأنزله بك! إلى أن تعرفي كيف تتصرفين بطريقة لائقة.

---

(١) أوليس: من أبطال اليونان الأسطوريين في حرب طروادة.

(٢) تيزيوس: ملك أثينا الأسطوري، الذي قتل مينوتور وخرج من تلافيف المتاهة المظلمة بفضل خيط سلّمته أريانا طرفه، وأمسكت بطرفه الثاني. عشق أريانا، ثم هجرها ليتزوّج بأختها فيدر.

وبيده المبسوطة صفعها على مؤخرتها.

هذه المرة صرخت ماريا، لأنها شعرت فعلاً بالألم.

ـ تعترضين، أليس كذلك؟ حسناً، سترينِ ما سأفعله بك.

وقبل أن تأتي بحركة، جاء بكمامة جلدية وأطبق على فمها. لم يمنعها من الكلام تماماً. كان لا يزال بإمكانها أن تقول «أصفر»، «أحمر». لكن هذه الكمامة تسمح لهذا الرجل بأن يفعل بها ما يشاء، ولم تكن هناك وسيلة للهروب. كانت عارية، مكممة، مغلولة اليدين، والفودكا تسري في شرايينها ممزوجة بدمائها.

ضربة جديدة على المؤخّرة.

ـ اذرعي الغرفة من جهة إلى جهة!

أخذت ماريا تمشي وهي تطيع الأوامر التي يوجّهها لها: «توقفي»، «استديري يمنياً»، «اجلسي»، «أفرجي ساقيك». من وقت لآخر، ومن دون سبب، كانت تتلقّى ضربة، وتشعر بالألم، وبأنها في عالم آخر حيث اختفى كل شيء من حولها. كان هذا شعوراً شبه ديني: الانحناء المطلق، الطاعة، فقدان الإحساس بالأنا والرغبة والإرادة. كان العرق يتصبّب من جسدها، وكانت تشعر أنها مهتاجة من جديد، ولا تفهم ماذا يدور حولها.

ـ اركعي من جديد.

بما أنها ظلّت منخفضة الرأس دليلاً على الطاعة والتواضع، لم تكن ماريا قادرة على رؤية ما يحدث بالضبط. كل ما استطاعت معرفته أنها كانت في عالم آخر وفي كوكب آخر، وأن هذا الرجل يلهث وراءها تعباً من الضرب بالسوط وضربها على المؤخرة، فيما كانت تشعر أنها تزداد قوة، وأنها مفعمة بالطاقة والحيوية. الآن، لم تعد تشعر بالعار ولا بالانزعاج، من أن تُظهِر أن اللعبة أعجبتها. أخذت تتأوه وتطلب إليه أن يلمس عضوها، لكن الرجل بدل أن يستجيب لطلبها، أمسكها ورماها على السرير.

رماها بعنف، لكن ليس ذلك العنف الذي يسبب ألماً، وأبعد ساقيها وأوثقهما إلى جهتي السرير. كانت يداها مغلولتين بالأصفاد وموضوعتين وراء ظهرها وساقاها مبعدتين موثقتين، والكمامة فوق فمها. متى سيلجها؟ ألا يرى أنها مستعدة وأنها تريد أن تطيعه، أن تكون عبدة له، كلباً أو شيئاً يمتلكه، وأنها ستفعل ما يريد، كل ما يريد.

ـ هل ترغبين في أن أجعلك تتمتّعين؟

وضع مقبض السوط على عضوها ومرّره من أسفل إلى أعلى. وفي اللحظة التي لامس فيها بظرها، فقدت كل سيطرة. لم تعد تعرف كم من الوقت قضيا هنا، ولا كم من المرات ضربها. وفجأة، كانت هذه هي النشوة، النشوة التي لم يستطع عشرات، لا بل مئات الرجال إيقاظها طوال هذه الأشهر. كان هناك ضوء ينفجر في داخلها، وشعرت ماريا أنها تلج فجوة سوداء في أعمق أعماق روحها، حيث الألم والخوف يمتزجان باللذة المطلقة، ويحملانها بعيداً أبعد من كل الحدود التي عرفتها. كانت تتأوّه وتطلق صرخة مخنوقة بسبب الكمامة وتنتفض فوق السرير وتشعر أن الأصفاد تدمي معصميها، وأن السير المقدود من جلد يجرّح قدميها. كانت تنتفض وتتحرك كما لم تتحرك من قبل، بالضبط لأنها لا تستطيع أن تتحرك. وتصرخ كما لم تصرخ من قبل؛ بالضبط لأن لديها كمامة على فمها، ولأن أحداً لا يستطيع سماعها. كان هذا هو الألم واللذة معاً، ومقبض السوط يضغط على بظرها باطّراد. وتدفّقت النشوة من كل كيانها، من فمها وعضوها وعينيها وجميع مسامّ جلدها...

دخلت حالة من الرعدة. عندما خرجت منها تدريجياً، كان السوط اختفى من بين ساقيها وشعرها مبلّلاً، والعرق يتصبّب من مسامها. انتزعت يدان ناعمتان الأصفاد، وحرّرت قدميها من السير الجلدي.

بقيت هناك ممدّدة، مشوّشة الذهن، غير قادرة على النظر إلى الرجل لأنها كانت تخجل من نفسها، من صرخاتها ومن نشوتها، داعب شعرها وكان يلهث هو أيضاً، لكن اللذة كانت حصراً من أجلها. لم يشعر هو بأي نشوة.

كان جسدها العاري يلتصق بهذا الرجل الذي لا يزال في كامل ثيابه، المرهق لفرط ما أصدر من الأوامر وأطلق من الصرخات، وجهد نفسه للسيطرة على الوضع الآن. لم تعد تعرف ما ينبغي لها أن تقوله أو تفعله، لكنها شعرت أنها في أمان: دعاها الرجل لكي يساعدها على بلوغ جانب خفي لم تعرفه فيها. كان حاميها وسيدها.

أخذت تبكي، وانتظر بصبر وأناة إلى أن هدأت.

قالت وهي تذرف دموعها: ماذا فعلت بي؟

ـــ ما أردتِ أن أفعله.

نظرت إليه وشعرت أنها محتاجة إليه حتى حدود اليأس.

ـ لم أرغمك على شيء، ولم أجبرك ولم أسمعك تقولين «أصفر». كانت القدرة التي تحرّكني نابعة من القدرة التي منحتني إياها أنت. لم يكن هناك ضغط ولا ابتزاز، إنها استجابة لرغبتك. حتى لو كنتِ العبدة وكنت أنا السيد، كنت أدفعك لتبلغي حريتك أنت بالذات.

رأت الأصفاد والقدر الجلدية التي وضعت في القدمين. لا، كانت الإهانة أقوى وأكثر حدّة من الألم. ومع ذلك، كان تيرنس على حق لأنها تشعر أنها حرة تماماً، وأنها مفعمة بالطاقة والحيوية. لكنها فوجئت حين رأت أن الرجل قربها كان منهكاً.

ـ هل تمتّعتِ؟

ـ لا. السيد هنا ليرغم العبد ويخضعه. لذّة العبد فرحة السيد.

لم يعد لكل ذلك معنى. كان هذا عالماً من الفانتاسمات التي لم

تكن موجودة في الكتب ولا علاقة لها بالحياة الواقعية. كانت ماريا مفعمة بالضوء فيما بدا الرجل ضعيفاً مفرغاً.

ـ بإمكانك الرحيل ساعة تشائين.

ـ لا أريد الرحيل. أريد أن أفهم.

نهضت بكامل عريها البهي، وسكبت كأسين من النبيذ. ثم أشعلت سيجارتين، أعطته واحدة واحتفظت لنفسها بالأخرى. كان الأدوار مقلوبة: السيدة تخدم العبد، وتكافئه على اللذة التي منحها إياها.

ـ سأرتدي ثيابي ثم أرحل. لكن قبل أن أفعل ذلك أريد أن نتكلم قليلاً.

ـ ليس هناك ما يُقال. هذه كانت رغبتك وكنت رائعة. أنا متعب وعليّ الذهاب غداً إلى لندن.

تمدّد وأغمض عينيه. لم تكن ماريا تعرف إذا كان يتظاهر بالنوم أم لا، لكن لا بأس في ذلك. دخّنت سيجارتها بلذّة، واحتست ببطء كأس النبيذ أمام النافذة ووجهها ملتصق بالزجاج، تراقب البحيرة وترغب في أن يراها أحد هكذا، عارية، مفعمة، مشبعة، واثقة بنفسها.

ارتدت ثيابها، وخرجت دون أن تودّعه، ودون أن تدعوه ليفتح الباب بنفسه. لم تعد لهذه العادة أهمية، وهي ليست أكيدة أنها ترغب في العودة.

سمع تيرنس الباب يُغلق. انتظر لبضع دقائق ليرى ما إذا كانت ماريا سترجع مختلقة ذريعة ما، ثم نهض وأشعل سيجارة.

أخذ يفكّر بأن هذه الفتاة تملك أسلوباً خاصاً بها. تحمّلت السوط وهو أسلوب التعذيب الأكثر شيوعاً والأقدم والأقلّ إيلاماً. تذكّر حين قام لأول مرة باختبار هذه العلاقة الغامضة بين

كائنين يرغبان في الاقتراب أحدهما من الآخر، لكنهما لا يتوصّلان إلى ذلك إلا إذا أخضعا أحدهما للآخر للتعذيب بالتناوب.

في الخارج، كان هناك الملايين من البشر الذين يمارسون كل يوم، وعلى غير علمٍ منهم، فن المازوشية السادية، يتلذّذون بتعذيب أنفسهم وتعذيب الآخرين. يذهبون إلى العمل ويعودون إلى بيوتهم متذمّرين من كل شيء. الرجل يعتدي على المرأة، والمرأة تعتدي على الرجل. ويشعر الجميع بأنهم تعساء، لكنهم يتلذّذون بتعاستهم، يلتصقون بها بطريقة لا تنفصم عراها؛ لكنهم لا يدركون أنه يكفي أن يقوموا بحركة أو عبارة ليتحرّروا من الاضطهاد. عرف تيرنس ذلك مع زوجته، وهي مغنّية إنكليزية شهيرة. عرف عذاب الغيرة التي أرّقته. كان يتشاجر مع زوجته طوال الوقت، ويقضي نهاراته تحت تأثير المهدّئات، ولياليه ثملاً يعاقر الخمرة. كانت زوجته تحبّه ولا تفهم تصرّفاته. وكان يحبّها ولا يفهم معنى تصرفه بالذات. لكن بدا الأمر وكأن الآلام التي ينزلها أحدهما بالآخر ضرورية لاستمرار علاقتهما، وجوهرية في حياتهما معاً.

ذات يوم، نسي أحد المؤلّفين الموسيقيين، وهو رجل كان يبدو لتيرنس طبيعياً للغاية أكثر مما يمكن أن يكونه فنان، نسي كتاباً في الاستوديو: «فينوس المرتدية الفرو»، وكاتبه يدعى ليوبولد فون ساخر ـ مازوخ. تصفّح تيرنس الكتاب، وكلّما تقدم في قراءته، فهم ذاته بشكل أفضل:

«خلعت المرأة الجميلة ملابسها، وأمسكت سوطاً طويلاً له مقبض صغير ولفّته حول معصمها، قالت لعشيقها: «طلبت إليّ أن أجلدك، وهذا ما سأفعله». فهمس عشيقها قائلاً: «اجلديني، أتوسّل إليك».

كانت زوجة تيرنس في الجهة الأخرى من الحاجز الزجاجي في الاستوديو، منصرفة تماماً للتمرّن على الغناء من أجل الحفلة المقبلة. طلبت من التقنيين أن يقطعوا الميكرفون الذي يسمح بسماع كل

شيء، ونُفّذت أوامرها. اعتقد بيرنس أنها فعلت ذلك لتضرب موعداً مع عازف البيانو دون أن يسمعها أحد. ثم انتبه لتصرفه وشكوكه المريرة بسبب الغيرة المجنونة التي تثيرها فيه زوجته؛ لكنه كان قد اعتاد العذاب، ولم يعد يستطيع العيش من دونه.

تذكّر كلام المرأة في الرواية التي كانت بين يديه، عندما خلعت ملابسها وقالت: «سأجلدك» فأجابها العشيق: «اجلديني، أتوسل إليك».

كان تيرنس رجلاً جميلاً ويتمتّع بنفوذ كبير في مؤسسة اسطواناته، فما حاجته إذن ليعيش حياة كهذه؟

لكنه يحبّ العذاب، ويستحقّه، لأن الحياة كريمة معه، ولم يكن جديراً بكل هذه النِعَم، من مال واحترام وشهرة. وقد وصل في مهنته إلى مستوى رفيع، ويشعر أن كل شيء متوقف على إحراز النجاح المتواصل. وهذا ما كان يقلقه أيضاً، لأنه سبق له أن رأى ناساً كثيرين في قمّة الشهرة يسقطون من عليائهم.

قرأ الكتاب حتى آخر جملة، ثم أخذ يتوسع في أبحاثه ويقرأ كل ما يتصل بالعلاقة الغامضة التي تربط الألم باللذة. عثرت زوجته على أفلام الفيديو التي استأجرها، والكتب التي خبّأها، وسألته ما معنى هذا كله، وهل كان مريضاً. أكّد تيرنس لها أنها أبحاث يقوم بها وتساعده في إنجاز عمل جديد. واقترح عليها دون أن يبدو عليه أدنى اهتمام: «لن نخسر شيئاً إذا حاولنا».

حاولا، بخجل كبير في البداية، ملتجئين فقط إلى الكتب الوجيزة الموجودة في متجر الخلاعيات. ثم أخذا يطوّران تقنياتهما شيئاً فشيئاً، وتوصّلا إلى بلوغ حدود خطرة في المسألة؛ لكنهما كانا يشعران أن زواجهما يزداد متانة، وأنهما شريكان في سر محرّم وملعون.

توسعا في تجربتهما لتشمل فنوناً أخرى: أطلقا موضة جديدة: ملابس جلدية مكتسبة بالمسامير الحديدية. كانت زوجته ترتدي

جزمة جلدية وتحمل رباط الجوارب. وتدخل حلبة المسرح وفي يدها السوط فتفتن الجمهور حتى الهذيان. احتلت اسطوانتها الجديدة المرتبة الأولى في «الهيت ـ باراد» بإنكلترا، وأحرزت نجاحاً منقطع النظير في جميع أنحاء أوروبا. فوجىء تيرنس بردود فعل الشباب، واكتشف أنهم يتقبلون بسهولة غير متوقّعة شطحاته الشخصية. بدا له أنّ العنف الذي يكبتونه في داخلهم كان يعبّر عن نفسه بهذه الطريقة، بحدّة، ولكن لا تصل إلى حدود الأذى والخطورة.

أصبح السوط رمز الفريق. وطُبع على الأقمصة، وجرى استخدامه في الوشوم والملصقات الصغيرة وبطاقات البريد. كان تيرنس يمتاز بنشأة ثقافية وفكرية مختلفة، ممّا دفعه إلى التعمق في هذه المسألة باطّراد، وذلك بهدف أن يفهم نفسه أكثر.

وبخلاف ما قاله للعاهرة، لم يكن لذلك علاقة بالنادمين على خطاياهم، طالبي المغفرة الذين أرادوا التضحية وتعذيب أنفسهم في سبيل إبعاد الطاعون الأسود. منذ أول الأزمنة والإنسان يعرف أن ترويض الألم هو جواز المرور إلى الحريّة.

كان هناك اعتقاد سائد في مصر وروما وبلاد فارس، فحواه أن الإنسان يجب أن يضحّي بنفسه من أجل إنقاذ بلاده والعالم. وكان إمبراطور الصين، ما إن تحدث كارثة طبيعية، حتى يُعاقِب لأنه يمثّل الألوهية على الأرض. وكان المحاربون الأشدّاء والأكثر بسالة في إسبارطة واليونان القديمة يُجلَدون مرة في السنة، من الصباح حتى المساء، إكراماً للإلهة أرتيميس، فيما كانت الحشود المجتمعة تشجّعهم بهتافاتها وصرخاتها على تحمّل الألم بكرامة، لأن هذا الألم يُعدّهم بشكل أفضل لمواجهة الحروب الآتية. وعند انتهاء النهار، كان الكهنة يتفحصون الآثار التي تركتها الجراح على ظهورهم، ويقرأون في خطوطها مستقبل المدينة.

كان «آباء الصحراء»، وهم ينتمون إلى رهبنة قديمة في القرن الرابع عشر يقع ديرها في منطقة قريبة من الاسكندرية، يلجأون

إلى جلد أنفسهم، لكي يدحروا الشياطين، أو يبرهنوا تفوّق الروح على الجسد في السعي الروحي. كما أنّ تاريخ القدّيسين حافل بالأمثلة على ذلك. كانت القديسة روز تركض في حقل من الشوك والقديس دومينيك لوريكاتوس يجلد نفسه كل مساء قبل النوم. وكان الشهداء يستسلمون طوعاً للموت البطيء على خشبة الصليب أو للحيوانات المفترسة كي تلتهمهم. كانوا جميعاً على يقين بأن تجاوز الألم يقودهم إلى حالة الانخطاف والنشوة الروحية.

ثمة دراسات راهنة غير مثبتة علمياً، تؤكّد أن نوعاً من الفطر ذي المزايا المسببة للهلوسة ينمو على الجراح، ويثير بالتالي الرؤى. وكانت اللذة التي يتركها تعذيب النفس عارمة لدرجة أن هذه الممارسة لم تقتصر فقط على الأديرة، بل تعدّتها لتنتشر في العالم أجمع.

في العام ١٧١٨، صدر كتاب عنوانه «مبحث في جلد الذات»، وهو يتحدّث عن كيفية اكتشاف اللذة عبر الألم، دون التسبّب بأذى جسدي. وفي نهاية القرن الثامن عشر، كانت هناك أمكنة كثيرة في جميع أنحاء أوروبا يتردّد إليها الناس، سعياً وراء اكتشاف المتعة عبر الألم. ووفقاً لبعض الأرشيفات، فقد ظهرت لدى بعض الملوك والملكات عادة تقضي بجعل خدّامهم يضربونهم. ثم اكتشفوا أنه يمكن أن نشعر باللذة ليس فقط من خلال تلقّي الألم بل من خلال ممارسته على الآخرين، مع أن تلك الممارسة كانت أكثر إرهاقاً وأقل توفيراً للمتعة.

كان تيرنس يدخّن سيجارته وهو يشعر برضى لدى تفكيره أن الجزء الأكبر من البشرية كان عاجزاً عن فهم أفكاره. وهذا أفضل، لأنه بذلك يستطيع أن يكون فخوراً بانتمائه إلى نادٍ مغلق لا يمكن إلا للنخبة وحدها دخوله. تذكّر كيف أن عذابه في الزواج تحوّل إلى انبهار دائم. كانت زوجته تعرف الهدف من زياراته إلى جنيف، ولم تكن منزعجة، بل على العكس كانت سعيدة

بأن يحصل زوجها، في هذا العالم المريض، على المكافأة المرجوّة بعد أسبوع من العمل المضني.

فكّر أن الفتاة التي خرجت لتوّها من غرفته قد فهمت كل شيء، وأن روحيهما متقاربان. شعر بحضورها الطاغي، رغم أنه ليس مستعداً للوقوع في الحب لأنه مغرم بزوجته. لكن راق له التفكير أن يمارس حريته على أكمل وجه وأن يحلم بعلاقة جديدة.

بقيت التجربة الأصعب: أن يجعل «فينوس ذات الفرو» ملكة، سيدة قادرة على إذلاله ومعاقبته دون رحمة. وإذا نجحت في الاختبار، فسيكون جاهزاً ليفتح لها قلبه، ويسمح لها بالدخول إليه.

ما دونته ماريا في يومياتها وهي لا تزال تحت تأثير الفودكا واللذة:

«عندما لم يعد لديَّ ما أفقده، نلت كل شيء، عندما توقّفت عن أن أكون ما كنته، وجدت نفسي. عندما عرفت الذل والخضوع التام، صرت حرة. لا أعرف إن كنت مريضة، إن كان كلّ هذا حلماً أو شيئاً يحدث مرة واحدة. أعرف أنني أستطيع العيش من دونه، لكن أحب أن ألتقيه ثانية، وأعيد التجربة وأمضي أبعد وأبعد فيها.

كنت خائفة قليلاً من الألم، إلا أنه كان أقلّ قوة من المذلّة، لم يكن إلا ذريعةً. عندما بلغت رعشتي الجنسية الأولى منذ أشهر، وبعد كل هؤلاء الرجال الذين عاشرتهم وكل ما فعلوه بجسدي، أحسست ـ ويا للعجب! ـ أنني أقرب إلى نفسي. تذكّرت ما قاله بخصوص الطاعون الأسود، عندما كان جلّادو أنفسهم يمنحون عذاباتهم من أجل خلاص البشرية، ويجدون فيها لذة. لم أكن أريد إنقاذ البشرية ولا هو ولا نفسي. كنت حاضرة فقط أمام ذاتي وبقوة.

الجنس هو فن السيطرة على فقدان السيطرة».

ليس الأمر مسرحية: كانت ماريا ورالف في المحطة فعلاً بناء على طلب من ماريا التي أرادت الذهاب إلى هناك. سمحت لنفسها بهذه النزوة، لا ضير في ذلك لتناول صنف من البيتزا استعذبت مذاقه. ليت رالف وصل قبل يوم فقط، عندما كانت تشعر أنها امرأة تسعى إلى الحب والرغبة ونار المدفأة والنبيذ! لكن الحياة قررت بشكل مختلف واتخذت مساراً آخر. لم تعد اليوم بحاجة لأن تركز اهتمامها على الأصوات وعلى اللحظة الحاضرة لتنسى العذاب الذي يتسببه الحنين إلى رالف. والسبب أن رالف لم يخطر على بالها للحظة واحدة لاكتشافها أشياء أخرى تثير اهتمامها أكثر.

ما العمل إذن مع هذا الرجل الجالس قربها يلتهم البيتزا؟ لعلّه لا يحبها وينتظر بفارغ الصبر أن يذهب بها إلى بيته؟ عندما دخل إلى «كوباكابانا» ودعاها لتناول كأس، فكّرت أن تقول له إن الأمر قد انتهى، وإنه يستطيع أن يبحث عن فتاة أخرى. لكنها شعرت برغبة عارمة للتحدّث مع أحدهم عن سهرتها السابقة.

حاولت أن تتحدث عن الموضوع مع بعض العاهرات اللواتي كن يعاشرن زبائن غير عاديين، لكن جميعهن غيّرن الموضوع. ومن بين كل الرجال الذين تعرفهم، كان رالف هارت الوحيد الذي بإمكانه أن يفهمها، لاسيّما وأن ميلان كان يصنّفه من الزبائن غير العاديين. نظر إليها رالف بعينين تلتمعان شوقاً، وهذا صعّب الأمور عليها، ورأت أن من الأفضل عدم التحدث في ذلك.

ـ ماذا تعرف عن «الألم والعذاب والكثير من اللذة»؟

مرةً أخرى، لم تستطع السيطرة على نفسها، وتفوّهت بما كانت تريد أن تكتمه قبل قليل.

توقّف رالف عن تناول الطعام.

ـ أعرف كل شيء وهذا لا يثير اهتمامي.

كان الجواب خاطفاً وكانت ماريا مصدومة. الجميع يعرفون كل شيء عن الموضوع، ما عداها: «يا إلهي أي عالم هذا الذي أعيش فيه؟»

تابع رالف كلامه:

ـ صارعت شياطيني وظلماتي وذهبت حتى النهاية. اختبرت كل شيء ليس فقط في هذا الميدان، بل في ميادين أخرى كثيرة. ومع ذلك، حين تواجهنا في المرة السابقة، وجدت حدودي عبر اللذة، وليس عبر الألم.

غصت في أعماق نفسي، وأدركت أنني لا أزال أصبو للحصول على أكبر قدر ممكن من الأشياء الحلوة في الحياة، وهي كثيرة.

كان راغباً في أن يقول لها: «وأنت أحد هذه الأشياء الجميلة التي أصبو إليها. لذا، أتوسل إليك ألا تسيري في هذه الطريق»، لكنه لم يملك الشجاعة على قول ذلك. عندما وصلا إلى الساحة، نادى سائق تاكسي، وطلب إليه أن يقلّهما إلى ضفة البحيرة، حيث مشيا سوية يوم تعارفا للمرة الأولى، وبدا لماريا أن أبدية تفصلها عن ذلك اللقاء. فوجئت ماريا بشعورها لكنها حافظت على هدوئها. كانت غريزتها تقول لها إنه لا يزال أمامها الكثير لتخسره، رغم أن روحها ما برحت منتشية بما حدث البارحة.

لم تخرج من ذهولها إلا عندما وصلا إلى ضفة البحيرة. كان الوقت لا يزال صيفاً، لكن الطقس يميل إلى البرودة فور حلول الظلام.

سألته عندما نزلا من السيارة:

ـ ماذا نفعل هنا؟ الهواء بارد، سأصاب بالزكام.

ـ فكّرت بكلماتك كثيراً: العذاب واللّذة. اخلعي حذاءك.

تذكّرتْ أن أحد زبائنها طلب إليها الشيء نفسه، وأنه كان مستثاراً فقط لمجرد النظر إلى قدميها. ألن تدَعَها «المغامرة» في سلام إذن؟

ـ سأصاب بالبرد.

أصرّ رالف على قوله:

ـــ افعلي ما أقوله لك. لن تصابي بالبرد إذاً بقيت وقتاً قصيراً هنا. ثقي بي كما أنا أثق بك.

أدركت ماريا أنه كان يريد مساعدتها. لعلّ تجربته في الحياة أوسع بكثير مما عرفته. لعلّه شرب كثيراً من مياه بالغة المرارة، وأراد تجنيبها الخطر الذي تعرّض له من قبل. لكنها لم تكن ترغب في أن يساعدها أحد. كانت راضية بعالمها الجديد حيث العذاب لم يعد مشكلة. ومع ذلك، فكّرت في البرازيل وتخلّت عن حلمها في لقاء شريك تواجه معه عالماً بهذا الاختلاف. وبما أن البرازيل صارت أهم شيء في حياتها، فقد خلعت حذاءها. مشت على الأرض المغطاة بحجارة صغيرة فتمزّقت جواربها. لا أهمية لذلك، تستطيع أن تشتري بدلاً منها.

ـ اخلعي سترتك.

بإمكانها أن ترفض، لكنها منذ البارحة اعتادت أن تقول بفرح، «نعم» لكل شيء. خلعت سترتها، لم يتأثّر جسدها بالبرد في الحال، ولكن تدريجياً أخذ البرد يزعجها.

ـ فلنمشِ ولنتحدّث.

ـ هنا مستحيل، الأرض مكسوّة بالحجارة.

ـ لكن هذا ما أردته بالضبط، أن تتحسسي هذه الحجارة، وأن

تسبب لك الألم، وأن تدمي قدميك. جرّبت دون شك العذاب المقرون باللذة، كما جربته أنا، وأريد أن أنتزع هذا الشعور من روحك.

رغبت ماريا في أن تقول له: غير مجدٍ ما تفعله لأن الأمر أعجبني. لكنها أخذت تمشي ببطء بسبب البرد والحجارة الحادّة الزوايا التي كانت تجرح راحَتَي قدميها.

ـ ذهبت إلى اليابان لأعرض لوحاتي، حين كنت متورّطاً بكليتي في ما تسمّينه العذاب، الإهانة والكثير من اللذة. كنت أعتقد أن هذه الطريق لا رجوع منها، وأنني أتوغل فيها أكثر فأكثر، وأنه لم يتبقَّ لي من رغبة أخرى في هذه الحياة سوى أن أعاقَب، وأنا أعاقِب.

كلُّنا بشر، وجميعنا يرافقنا الإحساس بالذنب منذ ولادتنا، ونخاف عندما نشعر أن السعادة باتت في متناول أيدينا. ويداهمنا الموت ونحن لا نزال نرغب في أن نعاقِب الآخرين، لأننا نشعر أننا عاجزون باستمرار، مظلومون، تعساء. أليس تكفير المرء عن خطاياه، وقدرته على معاقبة الخطأة، أمراً لذيذاً؟ أجل، هذا رائع.

كانت ماريا تمشي، وكان الألم والبرد يفوّتان عليها فرصة الانتباه الذي توليه لكلمات رالف، رغم كل جهودها في تخطّي هذا العذاب.

ـ اليوم، لاحظت الآثار على معصميك...

يقصد آثار الأصفاد. مع أنها ارتدت عدة أساور لكي تخفيها عن الأنظار. لكن عيني رالف المتنبهتين دوماً لا يخفى عليهما شيء.

ـ وأقول لك أخيراً إنك إذا كنت مقتنعة بأن ما اختبرته مؤخّراً يدفعك للذهاب في هذه الطريق، فأنا لا أمنعك. لكن اعلمي أن لا علاقة لهذا بالحياة الواقعية...

ـ قلت: هذه الطريق؟

ـ أقصد، طريق الألم واللذة. السادية والمازوشية. سمّي ذلك ما

شئت. إذا كنت مقتنعة أن هذه هي طريقك، فلن أمنعك؛ لكني سأتعذب حين أتذكّر اشتهاءك، ولقائي بك، والنزهة على طريق مار يعقوب، و«الضوء» المنبعث منك. سأحتفظ بالقلم الذي أهديتني إياه في مكان خاص، وسأذكرك كلما أشعلت النار في المدفأة، لكني لن أعود إلى رؤيتك ثانية.

أحسَّت ماريا بالخوف. حان الوقت لتتراجع، لتقول الحقيقة وتتوقّف عن التظاهر بأنها مُلمّة أكثر منه في هذا الموضوع.

ـ التجربة التي قمتُ بها مؤخّراً ـ البارحة لكي أكون صريحة معك تماماً ـ لم أقم بها من قبل. ما يخيفني أن أجد نفسي على شفير الفساد والانحلال.

صار الكلام صعباً. كانت أسنانها تصطك وقدماها ترتجفان.

واصل رالف كلامه، وكأنه لا يصغي إلى ما تقوله:

ـ أقمت معرضي في منطقة تُدعى «كومانا». ذات يوم جاء حطّاب لزيارة المعرض؛ لم تعجبه لوحاتي، لكنه استطاع أن يدرك عبر الرسوم ما كنت أعيشه وأحسّه. في اليوم التالي، جاء لزيارتي في الفندق، وسألني إذا كنت سعيداً. قال لي إذا كنت سعيداً، فعليّ أن أواصل السعي بحثاً عمّا أحبه. وإذا كنت تعيساً فعليّ مرافقته وقضاء بضعة أيام معه. أرغمني على المشي فوق الحجارة، كما أفعل الآن معك، وجعلني أدرك روعة الألم. لكن الألم الذي أحسسته كانت الطبيعة تمارسه على الإنسان ولا يمارسه إنسان على آخر. كان هذا الطقس يدعى «شوغان دو» وهي ممارسة ترقى إلى آلاف السنين.

قال لي إنني كنت رجلاً لا يهاب الألم وهذا شيء جيد. ذلك أن ترويض الروح يمر عبر ترويض الجسد. لكن المشكلة، في رأيه، أنني أستخدم الألم بطريقة خاطئة، وهذا سيّىء جداً.

كان ذلك الحطّاب الأمّي يعتقد أنه يعرفني أفضل مما أعرف

نفسي. وهذا ما أثار غيظي. إلا أنني شعرت بالفخر، لأن لوحاتي تستطيع أن تعبّر عما أحسّه، ويفهمها كل الناس.

شعرت ماريا أن حجراً أكثر حدّة من الحجارة الأخرى جرح قدميها. لكن البرد كان أقوى من كل شيء. كادت عروقها تتجمّد من شدة الصقيع، وشقّ عيها الاستماع إلى أقوال رالف: لماذا لا يهتمّ الرجال في هذا العالم اللعين إلّا بالكلام على الألم معها، الألم المقدّس، الألم المقترن باللذة، الألم مع إيضاحات أو من دونها، لكن، دائماً الألم، ولا شيء إلّاه...

أدمى حجر آخر قدمها الجريحة. كتمت آلامها على مضض، وواصلت تقدّمها. في البداية، حاولت الحفاظ على رباطة جأشها، وعلى تماسكها المطلق، وعلى الضوء المنبعث منها. ها هي الآن تمشي فيما معدتها تضطرب، وأفكارها تدور مكانها: شعرت أنها ستتقيأ، قررت التوقّف. كل ما تفعله غير مجدٍ، وعلى الرغم من ذلك لم تتوقّف.

لم تتوقّف احتراماً لكبريائها. كانت قادرة على مواصلة هذه الرحلة حافية القدمين، مستغرقة ما تتطلّبه من وقت، لأنها سرعان ما تبلغ نهايتها، لأنها لن تدوم طوال الحياة. وفجأة، خطرت لها فكرة أخرى: ماذا لو لم تستطع الذهاب غداً إلى «كوباكابانا» بسبب الندوب الخطيرة، أو الحمّى القوية التي قد يسبّبها الزكام المحتّم؟ أخذت تفكّر بالزبائن الذين ينتظرونها، بميلان الذي يثق بها كثيراً، بالمال الذي لن تكسبه، بمزرعتها المقبلة، بأهلها الفخورين بها. لكن الألم سرعان ما أبعد كل هذه الخواطر، وأخذت تمشي متعثّرة الخطوات، تنتظر بفارغ الصبر أن يعترف رالف هارت بأنها بذلت قصاراها، ويقول لها إن هذا يكفي، وإنها تستطيع ارتداء حذائها من جديد.

بَيْدَ أن رالف بدا بعيداً غير مكترث. كانت تلك طريقته الوحيدة لتحريرها من هذه الاشياء التي تجهلها وتسحرها في آن،

لكنها ستترك في النفس دماراً وجراحاً أعمق من الكلوم التي أحدثتها الأصفاد. كانت تعرف أنه يحاول مساعدتها، وتبذل جهوداً مضنية لإثبات قوة إرادتها. لكن الألم قطع عليها كل الأفكار التي راودتها، دنسة كانت أم نبيلة. وحده الألم يحتلّ فضاء كيانها الآن، يرعبها، يرغمها على الاعتراف بأن هناك حدوداً لا يمكن تجاوزها.

لكنها قامت بخطوة،

ثم بأخرى،

وبدا الألم، وكأنه يجتاح نفسها ويضعفها روحياً. فالقيام بمسرحية صغيرة في فندق من خمس نجوم، وهي عارية أمام كأس من الفودكا وطبق من الكافيار شيء، والمشي في البرد وقدماها حافيتان تجرّهما على الحجارة الناتئة شيء آخر. شعرت أنها مضطربة الذهن، ولا تقوى على التفوّه بكلمة واحدة أمام رالف هارت. كان عالمها مقتصراً فقط على الحجارة الصغيرة الحادّة التي ترسم دربها بين الأشجار.

وفيما كانت على أهبة الاستسلام، اجتاحها شعور غريب، شعور بأنها تجاوزت الحد، وباتت تطفو على مساحة فارغة، وبدا لها أنها عائمة فوق نفسها غافلة عمّا تحس به. أيكون هذا الشعور هو ما أحس به طالبو المغفرة الذين حدّثها عنهم تيرنس. اكتشفت في الجهة الأخرى من الألم باباً يفضي إلى طبقة أخرى من الوعي، حيث لا مكان للطبيعة التي لا ترحم ولا تُقهر.

أصبح كل شيء من حولها ضبابياً وكأنها في حلم: المنتزه المضاء بشكل سيىء، البحيرة القاتمة، الرجل الصامت، المتنزّهون الذين لم يلاحظوا أنها كانت حافية القدمين وتتعثّر في مشيتها... هل كان هذا بفعل البرد أم الألم؟ وفجأة، فقدت حاسة الشعور، وانتقلت إلى حالة انتفى فيها كل إحساس بالرغبة أو الخوف. اعتراها إحساس غامض لا تدري ماذا تسمّيه؟ إنه «سلام» غامض. لم

يكن الحد الذي بلغه الألم هو الحد الأقصى، وباستطاعتها أن تذهب أبعد من ذلك.

فكّرت بكل الكائنات البشرية التي تتعذّب بصمت دون أن تفتعل الألم كما هي تفتعله الآن. هذا أيضاً لا يهمّها. المهمّ أنها تخطّت حدود جسدها، ولم يتبقَّ من الآن فصاعداً إلا الروح، «الضوء». إنه مجرد فراغ، دعاه أحدهم الجنة ذات يوم. ثمة آلام لا تُنسى إلا إذا كانت لدينا القدرة على تجاوز آثارها.

المشهد الثاني الذي تذكّرته هو حين أخذها رالف بين ذراعيه. خلع سترته ووضعها على كتفيها. تداعت أرضاً بسبب البرد. قلّما يهمّ. كانت سعيدة ولم تكن خائفة. عليها أن تنتصر، ولن تذلّ نفسها أمام هذا الرجل.

أصبحت الدقائق ساعات. لا بدّ أنها غفت بين ذراعيه. حين استفاقت وجدت نفسها، وكان الوقت لا يزال ليلاً، في غرفة تحوي، في إحدى زواياها، جهاز تلفزيون، ولا شيء آخر، غرفة بيضاء فارغة.

ظهر رالف يحمل كوباً من الشوكولاتة الساخنة.

قال:

ـ حسناً، وصلت بك حيث أردت الوصول.

ـ لا أريد شوكولاتة، أريد نبيذاً. أريد أن أذهب إلى غرفتنا، وأرى المدفأة والكتب المبعثرة أرضاً.

قالت «غرفتنا». تفوّهت بهذه الكلمة سهواً.

نظرت إلى قدميها. وما عدا الجرح الصغير، لم يكن هناك إلا ندوب حمراء سرعان ما تختفي في وقت قصير. نزلت الدرج على شيء من المشقّة. وذهبت لتجلس في إحدى الزوايا على السجادة قرب المدفأة. كان هذا المكان يريحها، وكأنه خُصّص لها في هذا البيت.

ـ قال لي هذا الحطّاب إنه عندما نقوم بتمرين جسدي ونسعى الى انتزاع كل الطاقة من جسدنا، تكتسب الروح عندئذٍ قوة غريبة تشبه «الضوء» الذي رأيته فيك. أخبريني ماذا شعرت؟

ـ أن الألم صديق المرأة.

ـ هذا خطر.

ـ وأن الألم له حدود.

ـ هذا هو الخلاص. لا تنسي ذلك.

كانت أفكار ماريا لا تزال مشوّشة. أحست بهذا «السلام» عندما ذهبت أبعد ممّا تحتمل. اكتشفت شكلاً جديداً من العذاب، وهذا منحها لذة غريبة.

تناول رالف كرتوناً للرسم، وبسطه أمامها قائلاً:

ـ هذه هي قصة الدعارة. طلبتِ إليّ أن أستعلم عن الموضوع يوم تعارفْنا.

أجل، تذكّرَتْ أنها طلبت إليه ذلك بهدف التسلية وتزجية الوقت، أو ليكون الأمر مدخلاً لاستعراض ذكائها. أما الآن، فلم يعد لذلك أي أهمية.

ـ في الأيام الأخيرة، شعرت طوال الوقت أنني أسبح في مياه مجهولة. لم أكن أعتقد أن هناك تاريخاً لهذه الظاهرة. كل ما أعرفه أنها أقدم مهنة في التاريخ. لكن تاريخها موجود، وهناك قصتان.

ـ وهذه الرسوم؟

شعر بقليل من الخيبة، لأنها لم تفهم كلامه. ثم أضاف:

ـ رسمت على الورق الأشياء التي استلهمتها، كنت أقرأ وأقوم بالأبحاث وأتعلّم.

ـ نتكلم عن هذا في يوم آخر. أما اليوم، فلا أريد أن أغيّر الموضوع. أريد أن أفهم الألم.

عانيت الألم البارحة، واكتشفت أنه يقودك إلى اللذة. وعانيتِه اليوم وشعرت أنك وجدت السلام. لذا أقول لك: لا تتعوّديه، إنه مخدّر خطير ندمنه. إنه يواكبنا في حياتنا اليومية وفي عذابنا الخفيّ، في استسلامنا وفي انهيار أحلامنا، لكننا نحمّل الحب مسؤولية آلامنا على الدوام. الألم مخيف عندما يكشف عن وجهه الحقيقي، لكنه ساحر عندما يكون تعبيراً عن التضحية أو التخلّي عن

الذات أو الجُبن. يستطيع الكائن البشري أن يتجنّب الألم، كما يستطيع أن يجعله ملاذه الأمين، ويسعى لأن يجعله جزءاً من حياته.

ـ لا أعتقد ذلك. لا أحد يرغب في العذاب.

ـ إذا استطعت أن تفهمي أنك قادرة على العيش دون عذاب، فهذا يعني أنك قمت بخطوة كبيرة إلى الأمام. لكن لا تظنّي أن الآخرين سيحذون حذوك. لا أحد يرغب في العذاب. ومع ذلك، فإن الجميع، أو الغالبية العظمى، يبحثون عن الألم والتضحية التي يشعرون أنها تحرزهم وتطهّرهم وتجعلهم جديرين بالاحترام في عيون أولادهم وأزواجهم والله. فلنتخلَّ عن التفكير بذلك الآن. اعلمي فقط أن ما يحرّك الكون ليس السعي وراء اللذة، بل التخلّي عن كل ما هو جوهريّ. ألا يذهب الجندي إلى الحرب ليقتل العدو؟ لا، يذهب ليموت فداء بلاده. ألا تحبّ المرأة أن تعبّر لزوجها عن الحد الذي تشعر معه بالرضى والاكتفاء؟ لا، تريد أن يرى إلى أي حدّ تتفانى وتتعذّب لكي يكون سعيداً. ألا يذهب الزوج إلى العمل وهو يسعى لأن يحقّق تألّقه الشخصي؟ لا، يبذل عرقه ودموعه من أجل عائلته، وهكذا دواليك. يتخلّى الأولاد عن أحلامهم لكي يُدخلوا السرور إلى قلوب أهاليهم. ويتخلّى الأهل عن الحياة ليدخلوا السرور إلى قلوب أولادهم. ويصبح الألم والعذاب الدليل على ذلك الشيء الذي يُفترض به ألا يؤدّي إلاّ إلى الفرح، وهو الحب.

ـ توقّف!

توقّف رالف. حان الوقت لتغيير الموضوع من جديد. أخرج الرسوم التي أنجزها الواحد تلو الآخر. بدا كل شيء مشوّشاً أول الأمر. كانت هناك شخصيات مرسومة، ولكن أيضاً خربشات وألوان وخطوط متوتّرة أو هندسية. ثم بدأت ماريا تفهم تدريجياً ما كان يقوله، لأنه كان يرافق كل كلمة بحركة من يده، وكل جملة تعيدها إلى العالم الذي تنكّرت له، مع أنها تنتمي إليه، متذرعة أن

ذاك العالم لا يشكّل إلا مرحلة مؤقتة من حياتها، ووسيلة لكسب المال، ليس إلّا.

ــ اكتشفت أنّ هناك قصّتين للدعارة لا قصة واحدة. الأولى تعرفينها لأنها تشبه قصتك تماماً: تكتشف فتاة جميلة، ولأسباب عديدة اختارتها أو فُرضت عليها، أن الطريقة الوحيدة لتكسب رزقها هي في أن يشبع جسدها. وتوصّلت بعض العاهرات، من خلال هذه الوسيلة، للسيطرة على أمم في التاريخ: هناك ميسالين في روما، وأخريات تحوّلن إلى أسطورة مثل مدام دوباري، أو أغرتهن المغامرة، لكنهن كن سيئات الحظ مثل الجاسوسة ماتاهاري. إلا أنّ معظمهن لم يعرفن لحظة مجد واحدة، ولا واجهن تحدّيات كبيرة، بل بقين إلى الأبد الفتيات اللواتي كنّ يسعين وراء الشهرة والزوج والمغامرة، ثم اصطدمن بواقع مختلف، فآل بهن الأمر إلى الاستسلام للواقع، والتآلف معه، فانهارت أحلامهن بالسيطرة عليه، ولم يتوصلن لأن يفعلن شيئاً آخر. منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، والفنانون يتفنّنون في صنع المنحوتات والرسوم واللوحات والكتب، والعاهرات يقمن بعملهن منذ الأزل، وكأنّ شيئاً لم يتغيّر. هل تريدين أن أحدّثك عن تفاصيل أخرى؟

وافقت ماريا بإشارة من رأسها. لكن لا يزال همّها أن تفهم الألم، وأن يتسنّى لها الوقت لذلك. شعرت أن شيئاً مؤذياً شريراً خرج من جسدها، فيما كانت تمشي في المنتزه.

ــ هناك دوماً إشارة إلى العاهرات في النصوص القديمة: في الرسوم الهيروغليفية المصرية وفي الكتابات السومرية وفي العهدين القديم والجديد. لكن المهنة لم تنتظم إلا في القرن السادس قبل المسيح، عندما أنشأ المشترع سولون المواخير التي تشرف عليها الدولة، وقام بفرض ضريبة على «الاتجار بالجسد». لقي هذا الإجراء ارتياحاً في صفوف رجال الأعمال في أثينا، لأن هذه التجارة التي كانت محرّمة صارت شرعية. أما العاهرات، فكن يصنّفن وفقاً للضرائب

التي يدفعنها. هناك العاهرة الأقل ثمناً وتدعى "Pone"، وهي عبدة يملكها أصحاب المواخير. ثم تأتي العاهرة التي تجد زبائنها في الشارع وتدعى «Peripatètike»، وأخيراً العاهرة التي تأتي في الصدارة من حيث النوعية والمبلغ الذي يُدفع لها وتدعى Hetaira (اي الأنثى الرفيقة)، وهي ترافق رجال الأعمال في أسفارهم وتتردّد إلى المطاعم الفخمة، وتتمتّع بالسيادة المطلقة على أموالها، وتسدي النصائح، وتتدخّل في حياة المدينة السياسية. كما رأيت، ما كان موجوداً بالأمس لا يزال مستمراً حتى اليوم. في القرون الوسطى، وبسبب الأمراض الجنسية المعدية...

ساد الصمت. النار في المدفأة تُدفىء جسد ماريا وروحها. لم تكن ماريا تريد الاستماع إلى هذه القصة التي تُشعرها أن العالم توقّف عن الدوران، وأن كل شيء يتكرّر دون أن يتوصّل الإنسان أبداً لأن يبوّىء الجنس المكانة التي يستحقّها.

ـ لا يبدو أن الموضوع يثير اهتمامك.

قالت ماريا، وهي تريد أن تكون صريحة لاسيما وأنها قرّرت أن تبوح لهذا الرجل بكل مكنونات قلبها (مع أنها لم تعد الآن أكيدة من شيء):

ـ لست مهتمة بما مرّ معي من قبل، لأنه يبعث أحزاني الدفينة. قلت لي إن هناك قصة أخرى.

ـ القصة الأخرى مخالفة كلياً للأولى، وهي الدعارة المقدّسة.

وفجأة خرجت ماريا من حالة الحذر التي استسلمت لها، واستجمعت قواها لتصغي بانتباه: ماذا يقول؟ الدعارة المقدّسة؟ كيف بالإمكان كسب المال عن طريق الجنس، والاقتراب من الله، في الوقت نفسه؟

ـ كتب المؤرخ الإغريقي هيرودويتس في معرض حديثه عن بابل العبارات التالية:

«كانت هناك عادة غريبة في سومر: كانت كل امرأة مرغمة

أن تذهب مرة على الأقل في حياتها إلى معبد الإلهة عشتار وتسلّم جسدها لمجهول يزور المدينة، كعلامة على حسن الضيافة، مقابل مبلغ رمزي تتقاضاه».

فكّرت ماريا في أن تعرف أكثر عن هذه الإلهة. لعلّ هذا يساعدها هي أيضاً، على استعادة شيء فقدته ولم تعد تذكره.

ـ انتقل تأثير عشتار إلى أنحاء الشرق الأوسط كلها، وبلغ حدود سردينيا وصقلية فيما بعد. لكن، في ظل الإمبراطورية الرومانية، كانت هناك إلهة أخرى تُدعى فستا، وهي تفرض إما العذرية التامة، وإما العطاء التام.

كانت النسوة في معبدها مسؤولات عن حراسة شعلة النار المقدّسة. ولأجل ذلك يوكل إليهن تلقين الشبان والملوك أصول الجنس؛ وينشدن الأناشيد الإيروتيكية، وتصيبهن الرعدة، ويقدّمن نشوتهن إلى الكون، باعتبارها شكلاً من أشكال الاتصال بالألوهية.

عرض رالف على ماريا نسخة تحوي كتابة قديمة ومقرونة بالترجمة الألمانية في أسفل الصفحة:

حين جلسْتُ عند باب الحانة

أنا، الإلهة عشتار

أنا العاهرة الأم

رغم أنكم تسمونني «الموت»

أنا ما تبحثون عنه

وأنا ما وجدتموه

وما نشرتموه

والآن تجمعون أشلائي المبعثرة

غصّت ماريا بريقها، وأخذ رالف يضحك. رجعت إليها حيويتها المعهودة، وبدأ «الضوء» يلتمع في عينيها من جديد. من الأفضل أن

يكمل رالف القصة ويظهر لها الرسوم، ويستمر في أن يشعرها بأنها محور اهتمامه.

ـ لا أحد يعرف السبب الذي أدّى إلى اختفاء الدعارة المقدّسة، بعد أن انتشرت مدة ألفي سنة على الأقل. قد يكون السبب الأمراض أو المجتمع الذي عمل على تغيير قوانينه مع تغيّر الأديان. اختفت الدعارة المقدّسة الى الأبد. في أيامنا هذه، الرجال يحكمون العالم، وكلمة «عاهرة» تُستخدم للنيل من كل امرأة لا تتّبع الطريق القويم.

ـ هل بإمكانك المجيء إلى «كوباكابانا» غداً؟

لم يفهم رالف ما يرمي إليه السؤال، لكنه وافق في الحال.

وهذا ما دوّنته ماريا في يومياتها ذلك المساء، حين مشت حافية القدمين في الحديقة الإنكليزية بجنيف:

«قلّما يهمني أن يُعاد إحياء الدعارة المقدسة ذات يوم. لكني أكره ما أفعله لأنه يُدمّر روحي ويمنعني من التقاء ذاتي، ويعلّمني أن الألم مكافأة، وأن المال يشتري كل شيء، ويبرّر كل شيء. لا أحد ينعم بالسعادة من حولي: لا الزبائن لأنهم يعرفون أنهم مجبرون على دفع المال مقابل أمر كان يمكن أن يحصلوا عليه مجاناً، وهذا أمر محبط، ولا النساء لأنهن يعرفن أنهن يبعن ما كن يرغبن في أن يمنحنه بفرح ومحبة، وهذا الأمر مدمّر. حاربت نفسي كثيراً قبل أن أكتب هذه الكلمات وقبل أن أعترف وأقول إنني تعيسة وغير راضية. كنت في حاجة إلى الصمود بضعة أسابيع بعد. لكن لم يعد بإمكاني أن أفعل ذلك بطمأنينة كما في السابق، وكأن كل شيء طبيعي، أو كأن ما يحصل مجرّد مرحلة من حياتي لا تلبث أن تزول. أريد أن أنسى كل ذلك. أنا في حاجة إلى الحب، فقط إلى الحب.

الحياة أقصر أو أطول من أن أجيز لنفسي أن أعيشها على هذا الوجه البالغ السوء».

لم يكن اللقاء في بيته ولا في شقتها، لا في البرازيل ولا في سويسرا، بل في فندق لا تنطبق عليه مواصفات المكان المحدّد: أثاثه كأنه خارج حدود الزمن، وديكوره الأليف مختلف عن كل طابع معهود.

لم يكن يشبه بشيء الفندق المطلّ على البحيرة الذي يذكّرها بالألم والعذاب الممزوج باللذة. تشرف نوافذه على طريق مار يعقوب، وهي طريق يقصدها الحجّاج سعياً وراء غايات شتّى، لا تقتصر على طلب المغفرة والتكفير عن الخطايا فحسب، بل على جانبيها يتلاقى الناس في المقاهي ويتحدثون ويتصادقون ويكتشفون «الضوء» الكامن فيهم، بعدما كان محتجباً عن بصائرهم، ويتحابون...

إنها تمطر. الشارع مقفر في هذه الساعة من الليل. لعلَّ الطريق ترتاح الآن من كل الأقدام التي عبرتها كل يوم على مر العصور.

أشعل النور، وأُسدلت الستائر.

طلب إليها أن تخلع ملابسها وكذلك فعل. حتى الآن لم يسبق لها أن رأته عارياً؛ كانت هي الوحيدة التي عرّت جزءاً صغيراً من جسدها. كان ينبعث من القاعة نور خافت. ما لبثت عينا ماريا أن اعتادتا الضوء الخفيف المتسرّب من مكان مجهول، واستطاعت أن تبصر قامة الرجل الذي تحبه.

أُخرج منديلان مطويان بعناية مغسولان بالماء ومجفّفان جيداً حتى لا يبقى عليهما أثر لعطر أو لصابون. تقترب منه وتطلب إليه

أن يعصب عينيها. يرمقها بنظرات حائرة، ويردّد كلمات مفادها أنه اجتاز الجحيم مرات عدة. تؤكّد له أن كل ما تبتغيه هو العتمة الكاملة فقط بعيداً عن الجحيم، وأنه جاء دورها لتعلّمه شيئاً، بعدما علّمها البارحة درساً في الألم. يطيعها ويعصب عينيها. وهي تعصب عينيه. الآن، لم يعد هناك أي ضوء، إنها العتمة الكاملة. يمسك أحدهما بالآخر ويمشيان حتى السرير.

لا، لا يفترض بنا أن نستلقي أو نتمدّد. يجب أن نجلس كما نفعل دائماً، وجهاً لوجه، ويقترب أحدنا من الآخر حتى تتلامس ركبتانا.

غير أنها رغبت دوماً في القيام بما تفعله الآن ولم تتسنَّ لها الفرصة، لا مع حبيبها الأول، ولا مع حبيبها الذي أفقدها عذريتها، ولا مع العربي الذي تقاضت منه مبلغ ألف فرنك وهو يؤمّل النفس بأن تمنحه أقصى ما هي قادرة عليه ـ مع أن الألف فرنك مبلغ لا يكفي لتشتري ما كانت تشتهيه ـ ولا مع الرجال الكثيرين الذين تناوبوا على اعتلاء جسدها وتزاحموا على استباحة فخذيها جيئة وذهاباً، وهم أحياناً لا يفكرون إلا بأنفسهم، أو أحياناً أخرى يسعون لكسب ودّها أو امتلاك قلبها، إمّا تسيطر عليهم أحلام رومنطيقية، وإما تحرّكهم غريزة ممارسة العمل الجنسيّ تكراراً: قيل لهم إنه ينبغي للرجل أن يتصرّف على هذا النحو، وإنه اذا انتهك هذه القاعدة فهو ليس برجل.

تذكّرت ماريا ما دوّنته في يومياتها. لم تعد تستطيع الاستمرار في ما تفعله. رغبت في أن تمر الأسابيع التي تبقّت لها في سويسرا بسرعة. لهذا السبب بالذات، أي لأن الأيام المتبقّية هنا باتت معدودة، فإنّها تمنح نفسها لهذا الرجل. هنا يكمن الضوء الذي يستنير به حبّها السريّ. ليست الخطيئة الأصلية في أن حواء أكلت التفاحة، بل في أنها كانت بحاجة لكي تتقاسم مع آدم الانفعالات التي

أحست بها لحظة ارتكابها الفعل المحرّم. خافت حواء أن تواصل سلوك الطريق دون أن يساعدها أحد.

ثمة أشياء لا يمكن تقاسمها مع أحد، وتبقى ملكنا وحدنا، وهي سرّ حريتنا. يجب ألا نخاف من المحيطات التي اخترنا الغوص فيها بكامل إرادتنا، لأن الخوف يُفسد اللعبة كلها، والإنسان يواجه الجحيم مرات عدة ليدرك هذه الحقيقة. لنحبَّ بعضنا بعضاً، لكن لنتخلَّ عن سعينا المتداول لامتلاك بعضنا لبعض.

أحب هذا الرجل الجالس قربي لأنني لا أمتلكه ولأنه لا يمتلكني. لدينا الحرية الكاملة لأن يهب واحدنا نفسه للآخر. وعليّ أن أعيد هذه الكلمات عشرات، مئات، لا بل ملايين المرات، إلى أن أقتنع بها أنا نفسي، وتصبح يقيناً مرادفاً للحقيقة.

فكرتْ بالعاهرات اللواتي يعملن معها، بأمّها وبصديقاتها. جميعهن يعتقدن أن الرجال لا يعيشون إلا من أجل الإحدى عشرة دقيقة في اليوم، وأنهم مستعدون لإنفاق ما ملكت أيديهم للحصول على المتعة التي توفّرها المضاجعة. لكن هذا غير صحيح، إذ يمتلك الرجل بعضاً من الأنوثة داخله ويتوق إلى اللقاء الغرامي بحدّ ذاته ليضفي على حياته معنى جديداً.

أيُعقل أن تكون أمها قد تصرّفت مثلها خلال الممارسة الجنسية مع أبيها، فتظاهرت ببلوغ نشوة لم تبلغها في الحقيقة؟ تُرى ألا يزال محرّماً على امرأة من داخل البرازيل أن تبوح بأنّها استمتعت في ممارسة العمل الجنسي وبلغت فيه ذروة النشوة؟ تعرف ماريا أشياء قليلة عن الحياة والحب. لكنها الآن تكتشف، معصوبة العينين مصدر الأشياء كلها: هنا يبدأ كل شيء حيث يُفترض به أن يبدأ، حيث أحبّت أن يبدأ.

عندما تلامسا، في العتمة الكاملة، نسيت العاهرات والزبائن وأمها وأباها. كانت قد قضت فترة ما بعد الظهيرة تتساءل عمّا بإمكانها أن تفعل لتسعد رجلاً أعاد إليها كرامتها، وأفهمها أن

البحث عن السعادة يفوق في أهميته الأهمية التي نوليها للألم وضرورته في حياتنا.

أريد أن يجعلني أكتشف شيئاً جديداً، لأن هذا ما يُسعده. بالأمسِ أظهر لي سر العذاب، وحكى لي قصة الدعارة والعاهرات، عاهرات الشارع والعاهرات المقدسات. يسعده أن يعلّمني. فليرشدني إذن وليعلّمني. أريد أن أعرف كيف يبلغ الجسد نشوته قبل الروح، الإيلاجَ والمتعة.

مدّت ذراعها نحوه، وطلبت إليه أن يحذو حذوها. دمدمت بعض الكلمات: هذا المساء، في هذا المكان المجهول المنسيّ الذي لا طابع له، أريد أن يتلمّس جلدي، وهو الحد الفاصل بيني وبين العالم.

سألته أن يتحسسها بيديه، لأن الأجساد تتفاهم قبل الأرواح، أن يلمسها وتلمسه متجنّبين المناطق المثيرة في جسديهما، وكأنهما يتعمّدان ذلك لكي يطيلا أمد الرغبة البطيئة المتمهلة، لا تلك التي تشعر فيها الطاقة الجنسية باندفاع لا رجوع منه.

لامست أصابعه وجهها فاشتمّت فيها رائحة الأصباغ، رائحة معاندة لا يستطيع إزالتها، حتى لو غسل يديه ملايين المرات، رائحة رافقته منذ الولادة، منذ أن لمح أول شجرة، أول بيت، ورسمهما في أحلامه. وهو أيضاً، لا بدّ أنه اشتم رائحة ما في يدها، لكنها تجهل مصدرها ولا تريد أن تعرف، لأن كل شيء يصير جسداً في هذه اللحظة، والباقي صمتاً. تداعب جسده ويداعب جسدها، وبإمكانها أن تبقى هكذا طوال الليل، لأن هذا ممتع ولذيذ ولا يفضي بالضرورة إلى أي فعل جنسي. وفجأةً، لأن الأمر كذلك، لأنها حرة ولا تُمارس ضغوط عليها ولا إكراه، أحست بحرارة تسري بين فخذيها، وبأن عضوها رطب. بعد قليل، سيلامس عضوها ويجده رطباً. ولا بأس إن كان ذلك جيداً أم سيئاً. المهم أن جسدها يتفاعل بهذه الطريقة، ولا تنوي أن تقود الرجل في خطواته، كأن تقول له مثلاً ألمسني هنا أو هناك، بطريقة أبطأ أو بإيقاع أسرع...

ها إن يدي الرجل تتّجهان الآن إلى تحت إبطيها فينتصب وبر ذراعها. تريد إبعاد يديه لأنها تشعر بالألم. داعبته بدورها في المكان ذاته. لاحظت أن ملمس البشرة تحت إبطيه مختلف تماماً عنها، هل السبب مزيل الرائحة الذي يستعمله؟ لكن ما بالها تفكّر على هذا النحو؟ يجب ألا تفكّر بشيء إطلاقاً. يجب أن تلمس جسده بيديها. هذا كل شيء.

رسمت أصابعه دوائر حول نهدها، كما يرسم الحيوان المفترس الدوائر حول الفريسة التي يتربّص بها. ودّت لو تتحرّك أصابعه بسرعة أكبر فتلامس حلمتها. تستبق أفكارها لمساته. لعلّه يتباطأ في حركاته لكي يستفزّها فتسري اللذة على مهل مؤجّلة الفعل الجنسي إلى ما لا نهاية. تنتصب حلمتاها. يعبث بهما قليلاً. يقشعر شعر بدنها ويذوب عضوها رغبة. يجيل الآن أصابعه ويمرّرها حول بطنها نزولاً حتى ساقيها وقدميها. يدخل يديه بين ساقيها، ويتحسّس حرارتها دون أن يقترب. لمساته عذبة، خفيفة، ذات خفة هاذية.

تعيد اللمسات التي مرّرها على جسدها إلى جسده: تلامس يداها شعيرات ساقيه وتتحسّس الحرارة المنبعثة من عضوه. ثم، وكأنها استعادت فجأة عذارتها بطريقة غامضة دفينة، أو كأنها تكتشف جسد الرجل لأول مرة، تلمس عضوه. كان أقلّ صلابة مما تصوّرت، فيما عضوها رطب تماماً. إنها مفارقة غريبة: هل يحتاج الرجل لوقت أطول كي تستفيق شهوته ويبلغ انتصابه التام؟ من يدري!

تتلمّس جسده كما يمكن للعذارى وحدهن أن يفعلن ذلك. فالعاهرات نسين أصول المداعبة الحقيقية. يتأثّر الرجل ويتضخّم عضوه، فتزيد ماريا من الضغط بيديها. تعرف الآن كيف يجب أن تلمسه ـ في الأسفل بدلاً من الأعلى ـ وكيف تطوّق عضوه بأصابعها، وهي ترجع القلفة بعنف إلى الوراء. يهتاج كثيراً. يداعب

شفرتي فرجها بالنعومة السابقة نفسها، فيما هي تتوق الآن للمسة أكثر عنفاً، وأعمق توغلاً. يمزغ بظرها بالقليل من الماء الذي انبجس من أحشائها، ثم يعود إلى رسم الحركات الدائرية نفسها التي رسمها حول حلمتها. يداعبها هذا الرجل كما لو كان امرأة، كما لو كان يلبس جسدها ويتحسّس أحاسيسها.

صعدت إحدى يدي رالف من جديد إلى نهدها. ما أعذب ما ينتابها من شعور باللذة! ما أعظم شوقها إلى عناقه في هذه اللحظة. لكن لا. كل ما يفعلانه الآن هو اكتشاف جسديهما فقط. ولديهما الوقت، كل الوقت... لا شيء يمنعهما من ممارسة الحب الآن، إنه لأمر في منتهى التلقائية والإمتاع؛ لكنها تريد أن تكتشف شيئاً جديداً، لذة متمهّلة مختلفة، حضوراً مختلفاً للجسد. لذا، يجب أن تسيطر على نفسها لئلّا تفسد كل شيء، وأن يكون لقاؤهما كما في ذلك المساء، حين احتست معه الخمر على مهل. كانا يتلذّذان بكل جرعة، وكانت الجرعات المتأنية البطيئة تبعث في نفسها الدفء، وتفتح لها آفاقاً وحرية، وتجعلها أكثر التصاقاً بالحياة.

ترغب في احتساء هذا الرجل كما احتست تلك الخمر. عندئذٍ فقط، يمكنها إلى الأبد نسيان الخمر السيئة التي نتجرّعها دفعة واحدة، فتسكرنا، ونستيقظ، من ثَمَّ، بفمٍ متخشّب وبثقوب في الروح.

توقفت لتشبك أصابعها بأصابع رالف. سمعت تأوّهاً، وكانت راغبة في أن تتأوّه بدورها، لكنها تماسكت وشعرت بالدفء يسري في أنحاء جسدها، وأيقنت أنه يشعر بالشيء نفسه. باتت تدرك أن الطاقة تنتشر في الجسد دون بلوغ النشوة الجنسية، وتصل إلى الدماغ. لم تعد ماريا تفكّر في شيء إلا في الذهاب حتى النهاية، مع أنها ترغب في التوقّف، التوقّف في منتصف الطريق: تمنّت أن تترك للذة أن تجتاح جسدها بالكامل حتى تبلغ أدراك روحها، فتوقظ

فيها الرغبة الحقيقية الجامحة. تلك اللهفة، الثمرة النادرة للتورّط العاطفي التي يمكنها وحدها أن ترجع لها عذريتها التي فقدتها.

انتزعت ماريا المنديلين بهدوء، وأشعلت المصباح الموجود قرب السرير. كانا عاريين تماماً. لم يبتسما. نظرا فقط أحدهما إلى الآخر ببساطة. فكرت ماريا: «أنا الحب، أنا الموسيقى، فلنذهب إلى الرقص».

لكنها لم تقل ذلك. يتحدثان عن أشياء سخيفة. متى سنلتقي مجدداً؟ تقترح موعداً. بعد يومين؟ يقول إنه يريد أن يدعوها إلى معرضه، تتردّد لأن هذا يعني دخول عالمه الفني والتعرف إلى وسطه وأصدقائه. تُرى ماذا سيقولون عنها؟

ترفض. لكنه يعرف أنها راغبة في الذهاب. يُصرّ على طلبه متذرّعاً بحجج واهية تشكّل جزءاً من اللعبة. يحدّد موعد اللقاء في المقهى الذي تعارفا فيه. لا، البرازيليون متطيّرون: يجب ألا يلتقي الناس بعضهم بعضاً ثانية في المكان الذي التقوا فيه لأول مرة، لأن هذا يمكنه أن يسدل الستار على علاقتهم، ويضع حداً لها.

شعر بالغبطة لأنها لا تريد أن تقطع معه حلقة الاتصال. قررا الالتقاء في إحدى الكنائس التي تشرف على المدينة وعلى طريق مار يعقوب، لكأنها جزء من الحجّ الغامض الذي سلكا دربه منذ أن تعارفا.

وهذا ما دوّنته ماريا في يومياتها عشية قررت أن تشتري تذكرة العودة:

«كان ما كان، كان عصفور له جناحان رائعان بريشات برّاقة وألوان رائعة. كان مخلوقاً ليحلّق في سماء الحرية، ويدخل السرور العظيم على قلوب هؤلاء الذين يراقبون تحليقه.

ذات يوم، رأت امرأة هذا العصفور وفُتنت به. شاهدته يطير مندهشة حتى حدود الانبهار، وقلبها يخفق بجنون، وعيناها تلتمعان من شدة الانفعال. دعاها العصفور لمرافقته، وطارا معاً وهما في كامل الانسجام. كانت متيّمة بالعصفور، تحتفي بجماله طوال الوقت.

لكن المرأة فكرت ذات يوم: «ترى هل يتوق إلى اكتشاف جبال بعيدة؟» خافت. خافت أن يرحل وألا تقع في الحب مرة ثانية. أحست بالغيرة، غارت من قدرة العصفور على الطيران.

أحست أنها وحيدة.

فكرت: في المرة المقبلة، حين يظهر العصفور سأنصب له فخاً وهكذا لن يتمكّن من الطيران مجدداً.

عاد العصفور، الذي كان هو أيضاً مفتوناً بها، لرؤيتها في اليوم التالي، فوقع في الفخ واحتبسته في قفص.

كل يوم، كانت المرأة تراقبه بشغف وتعرضه أمام صديقاتها فيهتفن: ما أسعدك وما أوفر حظك! ومع ذلك، بدأت الأمور تتغير

بشكل غريب: بما أن العصفور صار ملكها ولم تعد بحاجة لأن تعمل على كسب وده، لم تعد المرأة تهتم به.والطائر الذي لم يعد في إمكانه التحليق والتعبير عن معنى لحياته، بدأ ريشه يذبل ويفقد بريقه، ويتحول جماله إلى قبح. ولم تعد المرأة توليه أي اهتمام، بل اقتصرت عنايتها به على إطعامه وتنظيف قفصه.

وذات يوم، مات العصفور، فحزنت المرأة للغاية، ولم تكن تكف عن التفكير فيه. لكنها لم تكن تتذكر قط القفص. تذكرت فقط اليوم الذي لمحته فيه لأول مرة، وهو يطير بعيداً محلقاً فوق الغيوم.

لو أنها استجابت لدوافع مشاعرها كما ينبغي، لأدركت أن الشيء الذي أثار انفعالها عندما التقت العصفور كان حريته، والطاقة الكامنة في حركة جناحيه، وليس حسن شكله الخارجي.

فقدت حياتها معناها عندما فقدت العصفور. وجاء الموت يقرع بابها.

سألت المرأة الموت:

ـ لم جئت؟

فأجاب:

ـ لكي تتمكني من الطيران معه مجدداً في السماء. لو أنك تركته يرحل ويعود في كل مرة، لكنت استطعت كسب وده، ولازداد إعجابك به أكثر فأكثر. من الآن فصاعداً، أنت في حاجة إلي لكي تقدري على استعادته.

بدأت ماريا نهارها بعمل كانت تهيّأت له منذ أشهر: الذهاب إلى وكالة سفريات لشراء تذكرة العودة إلى البرازيل، وفقاً للتاريخ الذي حدّدته على الروزنامة.

لم يتبقَّ لها، والحالة هذه، إلا أسبوعان في أوروبا. بعدها تعود إلى البرازيل وتغادر جنيف التي ستظل تشكّل لها وجه رجل أحبّته. أما شارع برن، فستقتصر ذكراه على اسمه المرادف لعاصمة سويسرا. بالطبع، ستتذكّر غرفتها والبحيرة واللغة الفرنسية وضروب الجنون التي يمكن أن تخطر على بال فتاة في الثالثة والعشرين (احتفلت بذكرى مولدها البارحة)، قبل أن تدرك أن هناك حدوداً لهذا الجنون.

لا تطمع في أن تحتبس العصفور، أو أن تدعوه للعودة معها إلى البرازيل: كان هذا العصفور أبهى ما صادفته في هذه الحياة. لذا، عليه أن يطير بحرية وأن يعيش على حنينه إلى الجولات التي كان يقوم بها مع رفيقته، وهما يسبحان في الفضاء الرحب. كانت ماريا هي أيضاً عصفورة، وحضور رالف إلى جانبها سوف يذكّرها إلى الأبد بمرحلة «كوباكابانا»، التي باتت جزءاً من ماضيها، وليس من حاضرها.

قطعت عهداً على نفسها أنها لن تقول له «وداعاً» إلا لحظة الرحيل لئلّا تتعذب كلّما خطر لها على بال: «عمّا قريب لن أكون هنا». وهكذا أرادت أن تغافل قلبها في ذلك الصباح، وهي تجتاز

شوارع المدينة وكأنها تعرفها منذ الأزل: التلة، طريق مار يعقوب، جسر «مون بلان»، الحانات التي اعتادت التردد إليها... راقبت بنظرها طيور النورس وهي تحلّق فوق النهر، وراقبت البائعين وهم يعيدون ترتيب بضائعهم، والناس يخرجون من مكاتبهم لتناول وجبات الغذاء، والطائرات تحطّ في البعيد. لاحظت لون التفّاحة التي كانت تأكلها، وقوس القزح يرتفع فوق الفوارة وسط البحيرة. قرأت في عيون العابرين نظرات الفرح الخجول أو المقنّع، نظرات الرغبة، النظرات الفارغة من أي تعبير، النظرات ببساطة. عاشت سنة تقريباً في مدينة من مدن كثيرة في هذا العالم، في مدينة لولا هندستها الخاصة ووفرة اللافتات فيها، لكانت أشبه بأي مدينة أخرى داخل البرازيل. رأت السوق والخادمات يساومن، والتلامذة يخرجون من مدارسهم قبل الأوان، ربّما كانوا مزوّدين بعذر من أبيهم أو من أمهم المريضة، ليتنزهوا على ضفاف البحيرة، ويتبادلوا القبل. رأت ناساً يشعرون أنهم في ديارهم، وآخرين غرباء. رأت الصحف المثيرة للفضائح والمجلات المحترمة المخصصة لرجال الأعمال الذين، والحق يقال، لا يقرأون إلا الصحف المثيرة للفضائح...

ذهبت ماريا إلى المكتبة لتعيد الكتاب الذي استعارته والمتعلّق بالإدارة الزراعية. لم تفهم منه شيئاً، لكنه ساعدها مع ذلك لتستعيد السيطرة على نفسها، بعدما كادت تفتقدها. كما ساعدها على العودة إلى ذاتها لتحديد هدفها الواضح في الحياة. كان الكتاب رفيقاً صامتاً، غلافه أصفر سميك ويحوي سلسلة من الرسوم البيانية. كان منارة تضيء لياليها القاتمة في الأسابيع الأخيرة.

فكّرت أنها تخطّط دائماً لمشروعات المستقبل، ولكنها تصطدم دائماً بالحاضر. فكّرت أيضاً بالطريقة التي اكتشفت عبرها نفسها، عبر الاستقلال واليأس والحب والألم، لكي تعثر من جديد على الحب؛ وكانت ترغب في أن تتوقّف عند هذا الحد.

الأغرب من كل ذلك أنها، فيما كانت بعض زميلاتها في العمل يتحدّثن عن المزايا والمتعة التي يجدنها في مضاجعتهن الرجال، كانت تشعر، من ناحيتها، أن الجنس لم يوفّر لها شيئاً، لا جيّداً ترجوه ولا سيّئاً تخشاه، ثم إنها لم تستطع أن تحل مشكلتها، وهي عجزها عن بلوغ النشوة أثناء الإيلاج. أصبح الفعل الجنسي بالنسبة إليها مبتذلاً للغاية، وأمراً عادياً جداً، بحيث أنها باتت شبه مقتنعة أنها لن تتوصّل أبداً إلى العثور على النار والسعادة اللتين طالما حلمت بهما خلال سعيها اللامجدي، واللتين لا يمكن اختبارهما إلا عندما «تتعانق الأرواح التي كانت هائمة تفتش عن نصفها الآخر»، حسبما يقول رالف.

أو قد يكون السبب بكل بساطة هو استحالة وصولها إلى النشوة دون الحب، كما كانت تؤكّد ذلك الأمهات والآباء ورجال الأدب الرومنطيقي.

كانت أمينة المكتبة (وهي صديقتها الوحيدة حتى لو لم تقل ذلك) ذات مزاج طلق، بخلاف العادة. استقبلتها في وقت تناول الغداء، ودعتها إلى تقاسم السندويش معها. شكرتها ماريا قائلة لها إنها تناولت غداءها منذ قليل.

ـ استغرقت قراءة هذا الكتاب وقتاً طويلاً.

ـ لم أفهم منه شيئاً.

ـ هل تتذكّرين الموضوع الذي سألتني عنه مرة؟

لا، لا تتذكّر، لكنها ما إن رأت الابتسامة الماكرة على مُحيّا المرأة حتى فهمت قصدها: الجنس.

ـ هل تعرفين؟ مذ أتيتِ تبحثين عن كتاب مختص بهذا الموضوع حتى أمرت فريق العمل بإجراء إحصاء شامل لكل ما نملك في بابه. لم يكن هناك الشيء الكثير. لكن، بما أنه علينا العمل على تنشئة الشباب جنسياً، سعيت إلى الحصول على عدة مؤلفات.

وهكذا لن يحتاجوا للاستعلام عن الموضوع بالطريقة الأسوأ، وهي معاشرة العاهرات على سبيل المثال.

أشارت أمينة المكتبة إلى زاوية فيها كدسة من الكتب، وجميعها يغلّفها بعناية ورق بنّي اللون.

ـ لم يتسنَّ لي الوقت لتصنيفها بعد، لكني ألقيت نظرة سريعة عليها، وهالني ما اكتشفته.

حسناً، راهنت ماريا على ما ستتطرّق المرأة إليه: الوضعيات غير المريحة، السادية المازوشية... فضّلت ماريا الادعاء بأنه حان الوقت لتعود إلى عملها (لكنها لم تتذكر ما قالت للمرأة عن عملها: هل تعمل موظفة في مصرف أم في محل؟ لأن الكذب في أي حال يوجب على الذاكرة بذل المزيد من الجهود).

شكرت أمينة المكتبة، وأشارت إلى أنها تريد الرحيل. لكن الأخرى قالت:

ـ أنت أيضاً ستصابين بالذعر مثلي: هل تعرفين مثلاً أن البظر اكتشاف حديث؟

اكتشاف؟ حديث؟ ماذا تقول هذه المرأة. هذا الأسبوع بالذات، لامس أحدهم بظرها وبدا لها وكأنه موجود هنا منذ الأزل، أو كأن يديه تعرفان غيباً الميدان الذي تتلمسانه بالرغم من العتمة الكاملة.

ـ لم يُعترف بوجوده رسمياً إلا عام ١٥٥٩ عندما نشر طبيب يدعى رونالدو كولومبو كتاباً عنوانه «De re anatonica» ووصف فيه البظر على أنه شيء جميل ومفيد. هل تصدقين ذلك؟

أخذتا تضحكان.

ـ وبعد سنتين أي عام ١٥٦١، نسب طبيب آخر يدعى غابرييل فالوبيو الاكتشاف إليه. كان الطبيبان، وهما إيطاليان طبعاً ومتّفقان على الأمور، يحاولان معرفة من منهم كان السبّاق في

إدخال البظر رسمياً إلى تاريخ العالم. مهما اتّسم هذا الحوار بالأهمية، فإن ماريا لا تستطيع المضي به قدماً. أحسّت من جديد أن عضوها يصير رطباً ما إن تتذكّر الملامسة والعصابتين واليدين اللتين مرّتا على جسدها. لا، لم تقضِ حباً بالجنس. ثمة رجل حرّرها من عبودية الجنس بطريقة أو بأخرى. ما أعظم أن يكون هذا الرجل موجوداً وحياً يرزق.

لكن أمينة المكتبة تحمّست للموضوع وكأنها صارت خبيرة فيه:

ـ حتى بعد ذلك الحين، استمر الناس يتجاهلون البظر ويحتقرونه. عملية استئصال البظر التي لا تزال تمارسها بعض القبائل الإفريقية لتمنع على المرأة حقها في المتعة، والتي يحكى عنها اليوم في الصحف، ليست جديدة. هنا أيضاً، في أوروبا كان الختان يمارس في القرن التاسع عشر، وكان الناس مقتنعين بأن هذا العضو السخيف الناتىء في جسد المرأة هو السبب في الهستيريا والصرع وتسهيل الخيانة الزوجية والعقم.

بسطت ماريا يدها لتستأذن بالانصراف، لكن أمينة المكتبة لم تنهِ حديثها بعد:

ـ والأسوأ من ذلك أن عزيزنا فرويد، مؤسس علم التحليل النفسي، كان يؤكد أن اللذة الجنسية لدى امرأة سليمة البنية يجب أن تنتقل من البظر إلى المهبل. وعمل تلاميذه الأوفياء على تدعيم نظريته مدّعين أن تمركز اللذة الجنسية حول البظر كان علامة عدم نضج، أو استعداد للثنائية الجنسية.

ومع ذلك، فإننا نعرف جميعاً أن من الصعب جداً الحصول على النشوة الجنسية فقط عبر الإيلاج. من الجيد أن يمتلكنا رجل في الفراش، لكن اللذة تكمن في هذا البرعم الذي اكتشفه أحد الإيطاليين.

أَحسّت ماريا أنها مصابة بالنقص الذي شخّصه فرويد، وأن

الجنس لديها لا يزال في مرحلته الطفلية، ولم يتطوّر من البظر باتّجاه المهبل. ربما كان فرويد على خطأ!

ـ والنقطة G[1] ما رأيك بها؟

ـ هل تعرفين أين تقع؟

علا وجه المرأة الاحمرار، ثم تنحنحت، لكنها تحمّست للجواب، فقالت:

ـ هناك عند المدخل، في الطابق الأول، قرب النافذة، في الزاوية.

هذا التشبيه للمهبل بالمبنى أمر عبقري! لكأنه تشبيه طالع من هذه الكتب التي تتناول التربية الجنسية المخصّصة للفتيات، الممتلئة بالصور التي تمثّل مجهولاً يقرع على الباب وغايته أن يحملهن على اكتشاف أجسادهن بالذات. وكلّما كانت ماريا تستمني، كانت تفضّل هذه النقطة المشهورة على البظر الذي كان يسبّب لها تبلبلاً ولذة ممتزجة بالقلق. لذا كانت تذهب مباشرة إلى الطابق الأول عند النافذة، في الزاوية.

وإذ أدركت ماريا أن المعلومات التي تريد أمينة المكتبة إعطاءها لا تنضب ـ ربمّا كانت تجد في ماريا شريكة تساعدها في فهم حياتها الجنسية المفقودة ـ أومأت ماريا بيدها ورحلت.

لم تكن لديها رغبة في الرجوع إلى «كوباكابانا». ومع ذلك شعرت أنها ملزمة بإنهاء عملها دون أن تفهم السبب. كانت قد ادّخرت مالاً بما فيه الكفاية، ويمكنها الذهاب في فترة بعد الظهيرة لشراء حاجياتها، والتقاء مدير أحد المصارف وهو زبون لديها وعدها بتقديم النصائح بالنسبة للمال الذي ادّخرته، وتناول فنجان قهوة، وإرسال بعض الأمتعة التي لا تستوعبها الحقائب عبر البريد. لكن الغريب في الأمر أنها شعرت بحزن غامض، لعلّه عائد إلى أنه

---

(١) النقطة G: قاعدة البظر، وهي شديدة الحساسية إذا أُحسنت مداعبتها، فإنها تقصّر الطريق إلى بلوغ النشوة لدى المرأة.

لم يتبقَّ لها إلا فترة قصيرة في أوروبا. وينبغي لها أن تستفيد من الوقت، وتنظر إلى المدينة بعينين جديدتين، وتشعر بالرضى، لأنها عاشت فيها تجربة فريدة.

وصلت إلى مفرق طرق تجاوزته مئات المرات، ومنه تستطيع النظر إلى البحيرة والفوّارة، وإلى ساعة الأزهار في الجهة الأخرى من الطريق وسط المنتزه. ساعة الأزهار الكبيرة هي أحد رموز جنيف التي تقطع عليها الكذب لأن...

وفجأة، تجمّد الوقت والعالم في مكانهما! ماذا تعني قصة العذرية المستعادة التي فكّرت فيها منذ أن استيقظت؟

بدت الحياة وكأنها تجمّدت، أو كأن عقارب الساعة توقّفت عن الدوران. أدركت ماريا أنها أمام أمر هو في غاية الجدية، أمر جوهري لا يحق لها التغافل عنه أو نسيانه، كما كانت تفعل مع أحلامها الليلية، فتعد نفسها بتدوينها، ثم لا تلبث أن تنساها عند الصباح.

لا تلوي على شيء. لقد توقّف الكون عن الحركة، فما الذي حدث؟

يكفي!

العصفور، قصّة العصفور التي دوّنتها في يومياتها، ألا تنطبق على رالف هارت؟ لا بل عليها! ونقطة على السطر!

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً، وقصتها تنتهي هنا. شعرت ماريا أنها غريبة عن جسدها، وأنها أعادت اكتشاف عذريتها، وأنها ولدت من جديد. لكن هذه الولادة واهية جداً، بحيث أنها لو بقيت في سويسرا لضاعت هذه الحالة إلى الأبد. لعلّ ماريا عرفت السماء، لكنها أكيدة أنها احترقت بنار الجحيم، وأن المغامرة شارفت على النهاية. من المستحيل إذن انتظار أسبوعين أو عشرة أيام أو أسبوع. عليها أن تولّي هاربة دون رجعة، لأنها حين نظرت إلى ساعة الأزهار والسيّاح الذين يلتقطون الصور، والأولاد الذين يلعبون حولها،

اكتشفت سبب حزنها. السبب هو التالي: لا تريد الرجوع إلى البرازيل، والدافع لم يكن رالف هارت ولا سويسرا ولا المغامرة. الدافع بسيط جداً: المال.

المال! أوراق خاصة ذات ألوان رصينة، والجميع متّفقون أنها ذات قيمة بالغة. وقد كانت، هي أيضاً، تؤمن بذلك، إلى أن رجعت وفي حوزتها مجموعة كبيرة من الأوراق المالية التي أودعتها أحد مصارف سويسرا التقليدية، المتكتمة جداً، وتساءلت: «هل بإمكاني أن أحظى ببضع ساعات من السعادة في حياتي؟ فأجابتها نفسها: لا يا سيدتي، نحن لا نبيع، بل نشتري فقط».

خرجت ماريا من هذيانها على صوت مكبح سيارة: كان السائق يعترض، والعجوز يبتسم وهو يطلب إليه بالإنكليزية أن يتراجع، لأن الضوء الأحمر هو للمشاة.

«أعتقد أنني اكتشفت أمراً مهمّاً وعلى الجميع أن يعرفوه».

لكن لا أحد يعرفه. نظرت من حولها. كان العابرون يتقدّمون منخفضي الرؤوس، وهم يحثّون الخطى متوجّهين إلى عملهم، إما إلى المدرسة وإما إلى إحدى وكالات التوظيف في شارع برن. بدا وكأن كل واحد منهم يقول: «بإمكاني الانتظار والتريث قليلاً بعد. ليس ضرورياً أن أحقّق حلمي اليوم. ينبغي لي أن أجمع المال أولاً». بالطبع، كان عملها ملعوناً، لكنه، في العمق، كما سائر الأعمال، يقوم على حسن استغلال الوقت، كما يفعل الجميع؛ واحتمال ناس لا يُحتملون كما يفعل الجميع؛ وتسليم جسدها الثمين وروحها الثمينة باسم مستقبل لن يأتي، كما يفعل الجميع؛ والادعاء بأنها لم تجمع مالاً بما فيه الكفاية كما يفعل الجميع؛ وإقناع النفس بالتصبّر قليلاً كما الجميع؛ ثم الانتظار للحصول على علاوة، وإرجاء تحقيق الرغبات بحجّة أنها في الوقت الحالي منشغلة جداً، فالزبائن في انتظارها ويستطيعون أن يدفعوا لها مبلغاً يراوح بين ثلاثمئة فرنك وألف فرنك في الليلة الواحدة.

لكن، للمرة الأولى في حياتها، ورغم كل الإغراءات المادية وما يمكن للمال أن يوفّره لصاحبه من كفاية حاجة ورغد عيش ـ فمن يدري أي ثروة تستطيع أن تجني في سنة واحدة فقط ـــ قرّرت ماريا بكل ما في داخلها من وعي واستنارة بصيرة وحزم أن تدع الفرصة تمرّ دون أن تنتهزها.

انتظرت حتى أُذن لها بالمرور. تجاوزت الطريق وتوقّفت أمام ساعة الأزهار. فكّرت برالف. أحسّت من جديد بنظرته التي كانت تنضح شهوة في المساء الذي عرّت فيه جزءاً من صدرها. أحسّت بيديه تلمسان نهديها وعضوها ووجهها. نظرت إلى الفوّارة الهائلة في البعيد. ومن دون أن تلمس جزءاً واحداً من جسدها، بلغت النشوة هنا، أمام الجميع.

إن أحداً لم يلاحظ. كانوا جميعاً منشغلين بأمورهم، منشغلين كثيراً.

ما إن دخلت ماريا الحانة حتى نادتها نيا، وهي الزميلة الوحيدة التي كانت تقيم معها علاقة يمكن وصفها بأنها «صداقة». كانت جالسة إلى جانب رجل بدت عليه سمات أهل الشرق، وكانا يضحكان معاً.

قالت نيا:

ـ انظري، انظري ماذا يريد أن أفعل به.

وجّه الرجل نظرة متواطئة، وعلت شفتيه ابتسامة واسعة. رأت ماريا علبة مزخرفة تشبه تلك التي توضع فيها السيجار. نظرت إلى داخل العلبة من بعيد لترى ما إذا كانت هناك حقن أو مخدرات. لاشيء من هذا، فقط جهاز لا يفهم الرجل نفسه كيفية تشغيله كما يجب.

قالت ماريا:

ـ لكأنه شيء من القرن الماضي.

هزّ الرجل رأسه موافقاً، لكنه استاء من هذا التعليق الذي يكشف عن جهل تام بالموضوع:

ـ هذه العلبة تعود إلى أكثر من مئة سنة، وقد كلّفتني ثروة.

كانت العلبة عبارة عن مقبض مُدوّر للجهاز ومجموعة من المصابيح والموصلات الكهربائية المزوّدة بمفاتيح معدنية صغيرة وبطاريات. وهي تشبه مذياعاً قديماً، وكانت مزوّدة بسلكين كلٌ من طرفيهما موصول بقضيب صغير من الزجاج بحجم الإصبع. لا شيء من هذا يكلّف ثروة!

ـ كيف يعمل هذا الجهاز؟

أبدت نيا انزعاجها من سؤال ماريا، مع أنها كانت تثق بالبرازيلية. لكنها تعتقد أن الناس يتغيّرون في لمحة بصر، وأن ماريا تفكّر في أن تسرق منها زبونها!

قالت نيا:

ـ سبق أن شرح لي، إنه «القضيب البنفسجي».

ثم التفتت إلى الرجل، واقترحت عليه أن يذهبا، لا سيما وأنها وافقت على دعوته لها. لكن الرجل بدا متحمّساً للاهتمام الذي أثارته لعبته.

ـ في عام ١٩٠٠، عندما بدأت أولى البطاريات تنتشر في السوق، ضاعف الطب التقليدي من التجارب التي تستخدم الكهرباء ليرى ما إذا كانت تستطيع معالجة الأمراض العقلية أو الهستيريا.واستُعملت أيضاً في التخلّص من البثور في الوجه، وإضفاء الحيوية على البشرة. هل ترين هذين السلكين على الطرفين؟ كانا يوضعان هنا ـ وأشار إلى صدغيه ـ فتفرغ البطارية شحنة سكونية كتلك التي نشعر بها عندما يكون الهواء جافاً جداً.

لم تكن الشحنة السكونية موجودة في البرازيل، لكنها منتشرة جداً في سويسرا، وقد اكتشفتها ماريا ذات يوم عندما فتحت باب سيارة التاكسي فسمعت اصطفاقاً وأحسّت بصدمة.

اعتقدت أن في السيارة عطلاً، فاعترضت قائلة إنها لن تدفع الأجرة فبادرها السائق بالكلام الجاف ووصفها بالجاهلة. كان على حق. لم تكن السيارة السبب بل الهواء الجاف جداً. أخذت ماريا، إثر عدة حوادث من هذا القبيل، تتجنب ملامسة المواد المعدنية، إلى اليوم الذي عثرت فيه في «السوبر ماركت» على سوار قادر على التخفيف من الشحنة الكهربائية المختزنة في الجسم.

التفتت إلى الرجل الشرقي، قائلة:

ـ لكن هذا مزعج للغاية!

نفد صبر نيا بسبب تعليقات ماريا، فطوقت بذراعيها كتفي الرجل وكأنها تتظاهر بالاستئثار به.

قال الرجل وهو يضحك:

ـ هذا يتوقف على المكان الذي تجري معالجته بواسطة هذا الجهاز.

أدار المقبض الصغير وبدأ القضيبان يتخذان لوناً بنفسجياً ثم بحركة خاطفة، وضعهما على جسد الفتاتين، فحصلت فرقعة، لكن الصدمة لم تسبب ألماً، بل ما يشبه الحكاك.

اقترب ميلان وقال:

ـ لا تفعل هذا من فضلك؟

فأعاد الرجل ترتيب القضيبين في العلبة. اغتنمت الفيليبينية الفرصة، واقترحت عليه الذهاب في الحال. بدت على وجه الرجل علامات الخيبة، لأن الوافدة الجديدة كانت تهتم بالقضيب البنفسجي أكثر من المرأة التي تدعوه الآن إلى الذهاب. ومع ذلك، لبس سترته ووضع العلبة في محفظة جلدية، وقال:

ـ في أيامنا هذه، نصنع أجهزة جديدة. وهذا أصبح رائجاً لدى الناس الذين يبحثون عن ملذات مبتكرة. لكن النموذج الذي رأيته

فريد من نوعه تقريباً، ولا نجده إلا في مجموعات طبية قديمة، أو في المتاحف، أو عند بائعي التحف القديمة.

بقي ميلان وماريا صامتين لا يعرفان ماذا يقولان.

ـ هل رأيت مثل هذا النموذج؟

ـ لا. لا بدّ أن هذا كلّف ثروة. هذا الرجل موظّف إداري كبير في شركة للنفط. لكني رأيت أجهزة أخرى أحدث منه.

ـ وكيف يتم استعمالها؟

ـ يضعها الرجال على أجسادهم... ويطلبون من المرأة أن تدير المقبض ويشعرون بالصدمة من الداخل.

ـ ألا يمكنهم أن يفعلوا ذلك بمفردهم؟

ـ في ما يتعلق بالجنس، يمكننا القيام بكل شيء بمفردنا، لكن من الأفضل أن يستمر الناس في اقتناعهم بأن اللذة تكون أكبر إذا كان هناك شريك، وإلا فإن حانتي ستقفل، وأُعلن إفلاسي، وتذهبين للعمل عند بائع الخُضر. تذكّرت «زبونك» قال إنه سيأتي هذا المساء، فارفضي كل دعوة أخرى من فضلك.

ـ سأرفض بالتأكيد، وبما فيها دعوته. أتيت فقط لأودعكم. أنا راحلة.

لم يبدُ على ميلان أنه سيتقبّل الصدمة بسهولة:

ـ هل الرسام هو السبب؟

ـ بل «كوباكابانا». هناك حدّ للأمور، وقد بلغته هذا الصباح أمام ساعة الأزهار قرب البحيرة.

ـ وما هو هذا الحد؟

ـ ما يكفي لشراء مزرعة في المنطقة الداخلية من البرازيل. أعرف أن بمقدوري أن أربح مالاً أوفر إذا عملت لعام إضافي. لكن، هل تريد أن تعرف الفرق بين أن أبقى لعام إضافي، أو أن أرحل قريباً؟ الفرق هو أنني سأبقى دائماً في هذا الفخ. كما أنت باق مع

الزبائن والموظفين الكبار ومفوّضي الحكومة ومستخدمي الموظفين الكبار ومديري مؤسسات الاسطوانات وكل الرجال الذين عرفتهم وبعتهم وقتي، ولا يقدرون أن يعيدوه لي. لو بقيت يوماً واحداً بعد فسأبقى عاماً كاملاً، وإذا بقيت عاماً كاملاً، فلن أخرج من هنا أبداً.

هزّ ميلان رأسه موافقاً، دون أن يقول كلمة، أو يعلق على الموضوع؛ لأن العدوى يمكن أن تنتقل من ماريا إلى الفتيات اللواتي يعملن عنده. لكنه كان رجلاً طيباً. صحيح أنه لم يمنحها بركته، لكنه لم يفعل شيئاً لإقناع البرازيلية بالعدول عن قرارها.

طلبت إحضار شراب لها: كأس شمبانيا، لأنها لم تعد تحتمل كوكتيل الفواكه. الآن تستطيع أن تتناول كأساً لأنها لم تعد في الخدمة. قال لها ميلان إنها تستطيع الاتصال به إذا ما احتاجت إلى شيء، وبأنها ستحلّ دوماً على الرحب والسعة.

أرادت أن تدفع ثمن الكأس؛ لكن ميلان اعترض قائلاً. إنّها هدية من الحانة إلى من ساهمت في ازدهارها. أذعنت ماريا لطلبه. لقد أعطت هذه الحانة أكثر من ثمن تلك الكأس.

ما دوّنته ماريا في يومياتها ما إن رجعت إلى بيتها:

«لا أذكر متى. ذات أحد، قرّرت دخول إحدى الكنائس، لأحضر رتبة القدّاس. بعد انتظار طويل، أدركت لاحقاً أنني لم أكن في المكان الصحيح: كان المعبد كنيسة بروتستانتية.

كنت سأخرج عندما بدأ أحد القساوسة عظته. وفكرت أن من غير اللائق أن أفعل. كانت هذه خطوة مباركة، لأنني سمعت في ذلك النهار أشياء كنت بحاجة ماسة إلى سماعها.

«هناك مثل مأثور وهو متداول في جميع لغات العالم، يقول: «بعيد عن العين، بعيد عن القلب». أؤكّد لكم إن هذا القول خاطىء تماماً. كلما بعدنا، استيقظت المشاعر التي نحاول تناسيها وسلخها من القلب. عندما نكون في المنفى، نسعى لأن نحتفظ بأقلّ ذكرى تذكّرنا بجذورنا. وعندما نكون بعيدين عن الكائن المحبوب، نتذكّره عبر كل إنسان يمر بنا في الشارع.

إن الأناجيل والنصوص المقدّسة في جميع الديانات كُتبت في المنفى، وجميعها سعت إلى فهم الله وترسيخ الإيمان الذي يجعل الشعوب تتقدّم، ويجعل الأرواح الهائمة على وجه الأرض تسعى في دروب الحجّ. لم يكن أجدادنا يعرفون، ولا نحن أيضاً، ماذا يتوقّع الله منهم ومنا في حياتنا. في المنفى، كُتبت المؤلّفات ورُسمت اللوحات، لأننا لا نريد ولا نستطيع أن ننسى من نحن».

في نهاية الرتبة، ذهبت إلى القس، وعبّرت له عن امتناني، قلت

له إنني غريبة في بلد غريب، وشكرته لأنه ذكّرني بأن ما لا تراه العين يراه القلب. هذا ما شعرت به عميقاً، ولهذا قررت الرحيل».

أمسكت ماريا بالحقيبتين ووضعتهما على السرير. تخيّلت أنها ستملؤهما هدايا وملابس جديدة وصوراً عن المناظر الثلجية والعواصم الأوروبية الكبيرة، وهي ذكريات تعيدها إلى زمن سعيد، حين عاشت في البلد الأكثر أماناً وكرماً في العالم. صحيح أن لديها بعض الملابس الجديدة وبعض الصور عن الثلج الذي تساقط يوماً على جنيف. لكن، فيما خلا هذا، جرت الأمور عكس ما كانت تتوقّع.

جاءت إلى هنا، وهي تحلم بأن تجمع المال الكثير، وأن تتدرّب على مواجهة الحياة، وتكتشف هويتها الحقيقية، وتجد زوجاً، وتدعو عائلتها لزيارتها في بيتها. كانت ماريا ترجع إلى البرازيل وفي جعبتها المبلغ الكافي بالضبط لكي تحقّق حلمها. وتحسّرت لأنها لم تزر بعد الجبال، ولأنها تعود، وهذا أسوأ ما في الأمر، غريبة عن نفسها. لكنها كانت سعيدة، لأنها عرفت متى يجدر بها أن تتوقّف عن مواصلة عملها، ونفّذت القرار.

قليل من الناس يعرفون متى يجدر بهم التوقف...

خاضت أربع مغامرات فقط: الرقص في الملهى، وتعلّم الفرنسية، والعمل في الدعارة، والوقوع في غرام رجل إلى حدّ الجنون. كم من الناس يستطيعون التباهي بهذا المقدار الذي لا يستهان به من الانفعالات في مدى سنة واحدة! كانت سعيدة رغم حزنها. كان لهذا الحزن اسم، ليس الدعارة ولا سويسرا ولا المال، بل رالف هارت.

كانت تودّ لو تتزوج به، حتى لو لم تعترف بذلك في سريرتها. وهو سينتظرها في الكنيسة، حيث تواعدا، وسيظهر لها رسومه، ويعرّفها إلى أصدقائه، والوسط الذي يحيا فيه.

عزمت على ألّا تذهب إلى الموعد، بل أن تنزل في أحد المطاعم قرب المطار، لأن طائرتها تقلع غداً صباحاً. ابتداءً من هذه اللحظة، ستكون كل دقيقة تقضيها إلى جانب رالف، وكأنها سنة من الألم الآتي من كل ما كان بإمكانها أن تقوله ولم تقله، من الذكريات: يداه، صوته، حكاياه، دعمه لها.

فتحت من جديد حقيبتها، وأخرجت منها الحافلة الكهربائية التي قدّمها إليها في المساء الأول حين ذهبت إلى بيته. تأمّلتها لبضع دقائق، ثم رمتها في سلة المهملات. هذه الحافلة لا تستحق أن تتعرف إلى البرازيل، لأنها كانت ظالمة وغير نافعة للصبي الذي رغب دوماً في أن يلهو بها.

لا، لن تذهب إلى الكنيسة. سيطرح عليها أسئلة، وإذا أطلعته على الحقيقة وقالت له إنها راحلة، سيطلب إليها البقاء، ويعدها بأي شيء شرط ألا يفقدها. وسيعلن لها حبه الذي أظهره لها في كل دقيقة قضياها معاً. لكنهما تعلّما أن يمارس كلّ منهما حريته المطلقة، وهذا هو السبب الذي أدّى إلى نجاح علاقتهما، أي أنهما لم يكونا محتاجين أحدهما إلى الآخر. يخاف الرجال دائماً عندما تقول لهم امرأة: «أريد الارتباط بك». كانت ماريا ترغب في أن تحتفظ، عن رالف، بصورة العاشق الذي وهب نفسه لها بكليته، وأظهر استعداده ليفعل كل شيء من أجلها.

لا يزال أمامها الوقت كي تقرّر ما إذا كانت ستذهب إلى الموعد أم لا. الآن عليها أن تحصر اهتمامها بأشياء أكثر عملية. رأت أن معظم أمتعتها لا تزال خارج الحقائب، وأنها حائرة بخصوص الأشياء التي يجب أن تستبقيها. في أي حال ثمة أشياء لا تستطيع حملها

في الحقائب، وستترك لمالك الشقة أن يتّخذ القرار بشأنها، كالأدوات الكهربائية المنزلية واللوحات التي اشترتها من سوق التحف والمناشف والشراشف. من المستحيل أخذ كل هذا معها إلى البرازيل، حتى لو كان أهلها محتاجين إلى هذه الأغراض أكثر من المتسوّل السويسري، ثم إنّها ستتذكّرها على الدوام بالمغامرة التي خاضتها.

غادرت المقهى. ذهبت إلى المصرف وطلبت بأن تسحب كامل المبلغ الذي أودعته هناك. قال لها المدير، الذي كانت على علاقة حميمة به، إن ما تقوم به ليس في مصلحتها، وإن هذه الفرنكات يمكن أن تدر عليها مالاً مع إمكانية تحويلها إلى مكان إقامتها لاحقاً في البرازيل. ثم ماذا لو سُرق منها هذا المال، كم من الأشهر التي عملت خلالها سيذهب جناها سدىً! ترددت ماريا للحظة، كما هي عادتها، وفكّرت في أن هذا الرجل يريد مساعدتها حقاً. لكنها، بعدما أمعنت في الأمر قليلاً، استنتجت أن الهدف من هذا المال هو أن يتحوّل إلى مزرعة وبيت لأهلها، مع بضع بهائم وكثير من العمل، وليس أن يبقى أوراقاً نقدية.

سحبت من المصرف كامل المبلغ، حتى آخر فلس، ووضعته في حقيبة اشترتها خصيصاً للمناسبة، وربطتها بحزامها تحت ملابسها.

ذهبت إلى وكالة السفريات، وهي تصلّي لكي يمنحها الله الشجاعة للذهاب بعيداً. عندما أرادت أن تأخذ تذكرتها، قالوا لها هناك إن الطائرة ستتوقف غداً في باريس، وأن ركّابها سيستأنفون رحلتهم على متن طائرة بديلة. لا يهمّ، المهم أن تبتعد من هنا قبل أن تبدّل رأيها.

مشت حتى الجسر، واشترت مثلجات، مع أن البرد كان قد عاد مجدّداً إلى جنيف، وأخذت تراقب المدينة. عندئذٍ بدا لها كل شيء مختلفاً، وكأنها لا تزال واصلة للتوّ، وتتهيأ لزيارة المتاحف والآثار التاريخية والحانات والمطاعم الرائجة. أمر غريب أننا عندما نسكن

في مدينة، فإننا نؤجّل اكتشافها إلى وقت لاحق، ونظل على جهلنا لها.

قالت في نفسها إن عليها أن تكون سعيدة بالرجوع إلى ديارها، لكنها لم تستطع ذلك. فكّرت أيضاً أنها لا بدّ وأن تكون حزينة، لأنها تغادر مدينة تحترم ساكنيها، ولم تستطع قبول ذلك الواقع. تركت بعض الدموع تنساب من عينيها، خافت من نفسها. كانت الفتاة الذكية التي تملك كل المواصفات لتنجح، لكنها تقوم دوماً باتّخاذ القرارات السيّئة.

وتمنّت من كل قلبها ألّا تقوم باتّخاذ قرار سيّىء هذه المرة.

عندما دخلت، كانت الكنيسة مقفرة تماماً. واستطاعت أن تتأمّل بصمت الزجاجيات التي تنيرها سماء أجلت غيومها العاصفة التي هبّت في الليلة الفائتة. أمامها مذبح وصليب بلا مصلوب. ليس الصليب هنا وسيلة عذاب تحمل رجلاً يُحتَضر، بل رمزاً للقيامة التي يغيب معها كل معنى للعذاب وما يتضمّنه من هول ورهبة. تذكّرت ذلك السوط في الليلة العاصفة. أحسّت أنه مماثل للصليب: «يا إلهي، ماذا دهاني كيف لي أن أفكر بهذا؟».

كانت سعيدة لأنها لم ترَ في الكنيسة صوراً لقديسين يتألّمون وآثار الدم والجراح بادية عليهم. كانت الكنيسة مكاناً يجتمع فيه الناس، ليعبدوا إلهاً يتجاوز حدود إدراكهم.

توقّفت أمام بيت القربان، حيث يُحتفَظ بجسد يسوع الذي تؤمن به، مع أنه لم يشغل من أفكارها حيّزاً مهمّاً. جثت على ركبتيها، وتعهّدت لله والعذراء مريم ويسوع وجميع القديسين أنه مهما يحصل لها هذا النهار فلا شيء سيمنعها من تغيير رأيها، وأنها سترحل في جميع الأحوال. وقد تعهّدت لله بذلك، لأنها تعرف جيداً خطورة أفخاخ الحب القادرة في أي لحظة على تغيير إرادة امرأة.

ما إن مضت دقائق حتى شعرت بيدٍ على كتفها. أحنت رأسها حتى كادت تلامسها:

ـــ كيف حالك؟

ـ عظيمة. لنذهب ونتناول فنجان قهوة.

خرجا وهما يضعان يداً في يد مثل حبيبين يتلاقيان بعد طول فراق. تبادلا القبلات علناً، ونظر إليهما بعض المارّة وهم مصدومون. ابتسما كلاهما للاستياء الذي أثاره تصرفهما، وللرغبات التي أيقظاها بقبلاتهما، وهما يعرفان جيداً أن هؤلاء الناس يودّون لو يقومون بالشيء نفسه، على الرغم من أن الأمر يعتبر بمثابة فضيحة.

دخلا مقهى شبيهاً بكل المقاهي المألوفة، لكنه بدا مختلفاً في هذا اليوم، لأنه يضم حبيبين جمع بينهما الحب. طفقا يتحدّثان عن جنيف ومصاعب اللغة الفرنسية وزجاجيات الكنيسة ومضارّ التدخين، مع أنهما كانا يدخّنان وليس لديهما إطلاقاً نيّة التخلّي عن هذه العادة السيئة.

أصرّت على أن تسدّد الحساب، فوافق. ذهبا إلى حيث كان يُقام معرض رالف. وهناك تعرّفت ماريا إلى الفنانين والأغنياء الذين يبدون أكثر ثراءً مما هم، وأيضاً أصحاب الملايين الذين يبدون أكثر فقراً، والجمهور الذي يطرح الأسئلة عن أشياء لم تسمع بها من قبل. كان الجميع يقدّرون حضورها وأعربوا عن إعجابهم بفرنسيتها، وسألوها عن الكرنفال وكرة القدم والموسيقى في بلادها. كانوا كلهم مهذّبين ولطفاء وودودين وساحرين.

عندما خرجا. قال لها إنه سيذهب لرؤيتها في «كوباكابانا». توسّلت إليه ألا يفعل، لأنها حرة هذا المساء، وتريد أن تدعوه إلى العشاء. وافق على الدعوة، وقبل أن يفترقا، حدّدا مكان العشاء في مطعم جميل يقع في ساحة كولوني الصغيرة.

عندئذٍ، تذكّرت ماريا صديقتها الوحيدة، وقرّرت أن تزور أمينة المكتبة لتقول لها وداعاً.

•

بقيت محتبسة بسبب زحمة السير وقتاً طويلاً، حتى انتهى الأكراد (للمرة الثانية!) من التظاهر، وتمكّنت السيارات من معاودة السير بشكل طبيعي. لكنها الآن، وقد عادت سيدة وقتها، فلا أهمية لكل ذلك.

عندما وصلت، كانت المكتبة على وشك الإقفال.

قالت أمينة المكتبة لماريا ما إن دخلت:

ـ قد أبدو لك ودودة أكثر من اللازم. لكن ليس لديّ صديقة أخرى أعهد إليها بأسراري سواك.

هل هذا معقول؟ ليس لديها أصدقاء بعد أن قضت حياتها في المكان نفسه، وكانت تقابل عدداً غفيراً من الناس كل نهار... هل من المعقول ألّا يكون لديها صديق تتحدّث إليه، وتبوح له بمكنونات قلبها؟ وأخيراً عثرت ماريا على واحدة مثلها، واحدة مثل الجميع.

ـ أعدتُ التفكير فيما قرأته عن البظر.

ـ من جديد! أليس ممكناً التحدث في موضوع آخر؟

ـ أدركت أنني كنت أشعر بلذة كبيرة في جميع علاقاتي بزوجي، لكن كانت لديّ مشكلة في أن أبلغ النشوة خلال الإيلاج. هل تجدين هذا طبيعياً؟

ـ هل تجدين طبيعياً أن يتظاهر الأكراد كل يوم مثلاً؟ وأن تهرب النسوة العاشقات من فرسان أحلامهن؟ وأن يحلم الناس باستثمار الأراضي بدل التفكير في الحب؟ وأن يبيع رجال ونساء وقتهم دون أن يتمكّنوا من شرائه بالمقابل؟ ومع ذلك فهذا موجود. لا فرق إن كان ما أفكّر فيه صحيحاً أم لا. المهم أن هذا يصبح طبيعياً كيفما تبدّلت الأمور. يصبح كل ما هو مخالف للطبيعة ومخالف لرغباتنا الأكثر عمقاً، أمراً طبيعياً في أعيننا، حتى لو بدا ذلك ضلالاً وزيغاً في عين الله. نحن الذين فتّشنا عن جحيمنا، وبنيناه بأيدينا خلال آلاف السنين التي مرّت، وبذلنا لهذا الهدف كل جهودنا الممكنة. لذا حياتنا جحيم، لأننا نعيش عكس الحياة وقوانينها الطبيعية.

نظرت ماريا إلى أمينة المكتبة. ولأول مرة سألتها عن اسمها (لم تكن تعرف إلا اسمها الزوجي). كان اسمها هايدي، متزوجة منذ

ثلاثين سنة، لكن لم يسبق لها، ولو مرة واحدة، أن سألت إن كان طبيعياً ألا تبلغ النشوة أثناء ممارسة الجنس مع زوجها.

ـ لا أعرف إن كان جيداً أن أقرأ كل ذلك! ربما كان من الأفضل أن أبقى جاهلة، وأفكر أن زوجاً وفيّاً وشقة تطل على البحيرة، ووظيفة في المكتبة، هي كل ما تحلم به امرأة. منذ أتيتِ إلى هنا وبدأتُ قراءاتي عن الموضوع، انتابني القلق بشأن ما فعلته في حياته. هل الجميع هكذا؟

قالت ماريا، وهي تشعر أنها ممتلئة حكمة أمام هذه المرأة التي تتوسّل نصائحها:

ـ أؤكد لك أنهم كذلك.

ـ هل ترغبين أن أتطرق إلى التفاصيل؟

وافقت ماريا بإشارة من رأسها.

ـ لا شك أنك ما زلت شابة ويصعب عليك فهم هذه الأشياء. ولهذا السبب بالضبط، أردت أن أروي لك قصتي، لكي تتجنّبي الأخطاء التي وقعت فيها.

لماذا لم يكن زوجي يهتم قطّ ببظري؟ كان يظن أن النشوة مهبلية، وكان يشق علي، يشق عليّ كثيراً أن أصطنع انفعالاً لا بدّ لي أن أشعر به بحسب رأي زوجي. لا شك أنني كنت أشعر بلذة لكنها لذة مختلفة. فقط عندما يكون الاحتكاك في المنطقة العليا... هل تفهمين؟

ـ أفهم.

ـ الآن عرفت السبب.

ثم أضافت، وهي تشير إلى كتاب موضوع على الطاولة، ولم تستطع ماريا قراءة عنوانه:

ـ هناك حزمة من الأعصاب تمتد من البظر حتى النقطة G،

هي الطاغية. لكن الرجال يعتبرون أن المسألة كلّها تتعلق بالإيلاج. هل تعرفين ما هي النقطة G؟

فأجابتها ماريا وهي تقوم بدور الفتاة الساذجة البريئة:

ـ تحدثنا عنه في المرة السابقة،«النقطة G» هي عندما ندخل إلى الطابق الأول، عند النافذة، في الزاوية.

ـ نعم، نعم!

ثم أضافت المرأة، وقد أشرقت عيناها:

ـ هل فكّرت مرة كم من الأصدقاء تحدّثوا إليك عن هذا الموضوع؟ لا أحد؛ ويمكنك التأكد من ذلك بنفسك. أمر غير معقول! كان البظر اكتشاف ذاك الطبيب الإيطالي. أما النقطة G، فهي اكتشاف عصرنا. وعمّا قريب سيجري الكلام عنها في جميع العناوين الكبيرة في الصحف والمجلات، ولا أحد يستطيع تجاهل دورها. هل تتخيّلين أي مرحلة ثورية نعيش فيها؟

نظرت ماريا إلى ساعتها، وأدركت هايدي أن عليها الإسراع في تعليم هذه الفتاة الجميلة، وإفهامها أن النساء يملكن كل الحق في أن يكن سعيدات ومنفتحات جنسياً. أرادت أن يفيد الجيل المقبل من هذه الاختراعات العلمية المدهشة:

ـ اعتقد الدكتور فرويد أن لذتنا هي بالضرورة كامنة في المهبل، كما أن لذة الرجال تكمن في الإحليل. لكن يجب العودة إلى الأصل، إلى المنطقتين اللتين منحتانا اللذة على الدوام، وهما البظر والنقطة G! قليلات جداً هن النسوة اللواتي يتوصلن إلى إقامة علاقة جنسية ترضيهن، وتجعلهن يشعرن بالاكتفاء فعلاً. لكن، اسمعيني، سأعلّمك شيئاً في غاية الأهمية: اقلبي الوضعية خلال الممارسة، فليمتدّ شريكك، ولتصعدي فوقه، عندئذٍ سيحتك بظرك بعانته فتحصلين على الإثارة اللازمة، الإثارة التي تستحقينها!

تظاهرت ماريا بأنها لا تولي الحديث اهتماماً. ليست الغلطة غلطتها إذن. وكل القصة متعلقة بالتركيب الداخلي لأجزاء

الجسم! رغبت في أن تقبّل أمينة المكتبة، لأنها شعرت أنها تحرّرت من حمل ثقيل جداً. ما أحسن هذا اليوم الذي قامت به بهذا الاكتشاف، وهي لا تزال شابة، ولديها كل الحياة لتنعم بها! ما هذا اليوم الرائع!

ابتسمت هايدي ابتسامة المتآمرة وقالت:

ـ هم لا يعرفون أن عضونا أيضاً ينتصب.

«هم»، أي الرجال... عندئذٍ تشجّعت ماريا وأرادت أن تطرح على المرأة سؤالاً حميماً جداً:

ـ هل كانت لك علاقة خارج إطار الزواج؟

كان السؤال بمثابة صدمة لها. انبثقت من عينيها نار قدسية، وعلا وجهها الاحمرار، لم يُعرَف إن كان بسبب الغضب أم الخجل؟ ثم، بعد أن انتهى الصراع بين رغبتها في الاعتراف ورغبتها في اصطناع هيئة مستنكرة، قالت وهي تحاول تغيير الموضوع:

ـ لنرجع إلى موضوع الانتصاب. البظر أيضاً ينتصب، هل تعرفين ذلك؟

ـ منذ الطفولة.

بدت هايدي خائبة ثم أضافت:

ـ وإذا داعبت المنطقة حوله دون أن تلمسي رأسه، فإن اللذة ستنبثق بشكل أكثر حدّة.

بعض الرجال يستعجلون، فيلمسون مباشرة رأس البظر، دون أن يعرفوا أن ذلك مؤلم للمرأة. هل أنت موافقة؟ ثمّ إن المحادثة الصريحة مع شريكك هي دوماً مفيدة، كما ورد في الكتاب الذي كنت أقرأه.

ـ هل كنت تتحدّثين بصراحة مع زوجك؟

ومن جديد، تجاهلت هايدي السؤال، بحجّة أن زمانها كان مختلفاً. ما يهمّها اليوم هو أن تشارك الآخرين بتجربتها الفكرية.

نظرت ماريا إلى ساعتها وقالت لها إنها آتية لتودعها، لأنها أنهت فترة تدريب في سويسرا. بدت هايدي وكأنها لا تسمع ما تقول.

ـ ألا تريدين أن تستعيري هذا الكتاب عن البظر؟

ـ لا، شكراً.

ـ ألا تريدين أن تستعيري شيئاً آخر؟

ـ لا أنا عائدة إلى بلادي. لكن أريد أن أشكرك على معاملتك الحسنة وعلى احترامك وتفهمك. إلى اللقاء.

تصافحتا، وهما تتمنيان أن تنال كل منهما نصيبها الكبير في السعادة.

انتظرت أمينة المكتبة خروج الفتاة، ثمَّ، كانت الحركة أقوى منها: ضربت الطاولة بقبضة يدها: لماذا لم تغتنم الفرصة؟ لماذا لم تجب عن سؤال الفتاة حين تجزأت وسألتها عمّا إذا ارتكبت مرةً خيانة زوجية؟

«ليس الأمر خطيراً في أي حال».

ليس الجنس محور العالم، لكنه يمثّل مكانة كبيرة في حياتنا. نظرت من حولها: آلاف الأعمال التي تحيط بها تروي قصص حب. لكن القصة هي نفسها دوماً: يلتقي أحدهم الآخر ويقع في غرامه. يفترقان ثم يلتقيان من جديد... جميع هذه الكتب تتحدّث عن الأرواح التي تتواصل، والبلدان البعيدة، والمغامرة والعذاب والهموم. لكن، نادراً ما سمعت أحدهم يقول فيها: «انتبه أيها السيد، انتبه لجسد المرأة، وحاول أن تفهمه جيداً». لماذا لا تتحدّث الكتب عن الموضوع بصراحة.

لا يبدو أن هذا الموضوع يهمّ أحداً فعلاً، وفي العمق. يصرّ الرجال على البحث عن علاقات جديدة، وهم لا يزالون أشبه بالصيادين، ساكني الكهوف الذين يتبعون غرائزهم ونزواتهم. والمرأة؟ لا تدوم الرغبة عند المرأة في الحصول على المتعة مع شريكها إلا بضع

سنوات، بحسب تجربة هايدي الشخصية. ثم يخفّ كثيراً اهتمام المرأة بمتعتها وجسدها، وتفضّل عدم الكلام عن الموضوع، معتبرة أنها الوحيدة في العالم التي تعاني. وتكذب حين تتذرّع بأنها لم تعد تتحمّل رغبة زوجها وإصراره على مضاجعتها كل مساء.

وسرعان ما تكرّس النسوة أوقاتهن لمشاغل أخرى: الأولاد، المطبخ، تنظيم الوقت، الأعمال المنزلية، الفواتير التي يجب تسديدها، التساهل حيال مغامرات الزوج العاطفية، السفر خلال العطلات وتركيز الاهتمام فقط على الأولاد. وقد تجمع بين النساء والرجال علاقة تواطؤ، أو قد يدوم الحب بينهم، لكن الجنس، قطعاً لا.

كان يجدر بها أن تبدو أكثر انفتاحاً مع الفتاة البرازيلية، وهي فتاة تبدو بريئة ومن عمر ابنتها، وغير قادرة على اكتشاف الحياة. إنها مهاجرة تعيش بعيداً عن وطنها، وتشقى في عمل لا تحبه، وتنتظر أن تلتقي رجلاً يمكنها الزواج به، والتظاهر أمامه ببعض الرعشات الجنسية، والفوز بالأمان إلى جانبه، والمشاركة في زيادة النسل في الجنس البشري. ولا تلبث بُعَيد الزواج أن تنسى هذه الأشياء المتعلقة بالنشوة الجنسية والبظر والنقطة G، لتكون فقط زوجة صالحة وأماً صالحة، تسهر على الاعتناء ببيتها وعائلتها، وتستمني خفية من وقت لآخر، وهي تفكّر في العابر الذي التقته في الشارع، ووجّه إليها نظرة تلتمع فيها الشهوة. يجب الحفاظ على المظاهر. لكن لماذا يهتم الناس، جميع الناس، بالمظاهر إلى هذا الحد؟

أليس هذا هو السبب في أنها لم ترد على الفتاة حين سألتها: «هل كانت لك علاقة خارج إطار الزواج؟».

فكّرت أن مثل هذه الأسرار تُدفن معنا. كان زوجها رجل حياتها حتى لو أن مرحلة النشاط الجنسي باتت من الماضي البعيد. كان شريكاً ممتازاً، كريماً، متزناً، يناضل لإعالة أولاده، ويجهد لإسعاد من يعيشون في عهدته. كان الرجل المثالي الذي تحلم به

كل امرأة. لذا، كانت تشعر بأنها امرأة سيئة إذا فكّرت أنها اشتهت يوماً رجلاً آخر وتبعته.

تذكّرت لقاءهما. كانت راجعة من مدينة دافوس الجبلية عندما انهار جبل ثلجي، وقطع طريق مرور القطارات لبضع ساعات. اتصلت هايدي بعائلتها لتطمئنها أنها بخير، واشترت بعض المجلّات استعداداً لتزجية فترة انتظار طويلة في المحطة.

عندئذٍ، رأت رجلاً يجلس قربها، وهو يحمل حقيبة على ظهره وكيساً للنوم. كان شعره رمادياً، وكانت الشمس قد أحرقت بشرة وجهه، وكان الوحيد الذي لا يبدو عليه الانزعاج من الانتظار. على العكس، كان يبتسم ويفتّش من حوله، عساه يجد أحداً يتحدّث إليه. فتحت هايدي المجلة. لكن ـ آه ما أعظم أسرار هذه الحياة! ـ التقت عيناها بعيني هذا المسافر، ولم تستطع أن تشيح بهما عنه بسرعة، مما شجّعه على الاقتراب.

وقبل أن تسنح لها فرصة صدّه بأسلوب لائق ومهذب، كان الرجل قد توجّه إليها بالكلام. أخبرها انه كاتب وأنه شارك في ندوة كانت تقام في دافوس، وأنّ تعذُّر وصول القطار سيفوّت عليه موعد طائرته. سألها إذا كانت ستساعده على إيجاد فندق لدى وصولهما إلى جنيف.

نظرت إليه هايدي، وتساءلت: كيف بإمكان رجل سيفوّت موعد طائرته ومضطر إلى الانتظار ساعات طويلة في محطة مزعجة، أن يكون بهذا المزاج الهادىء؟

بدأ الرجل يحدّثها وكأنهما صديقان منذ وقت طويل. حكى لها عن أسفاره وعن سر الخلق الأدبي والأشياء التي أدهشته، وتلك التي أثارت الذعر في نفسه، وعن النساء اللواتي أحبهنّ والتقاهن في حياته. اكتفت هايدي بالاستماع إليه، وهي تهز برأسها موافقة على ما يقوله، فيما كان يتابع حديثه دون حرج. كان يعتذر من وقت إلى آخر على طلاقة لسانه، ويطلب إليها أن تحدّثه هي أيضاً عن

نفسها. لم يكن لديها ما تقوله، فقط: «أنا إنسانة بسيطة، ولا شيء خارقاً في حياتي».

وفجأة بدأت تأمل في ألا يتوقّف القطار أبداً. سحرها حديثه، وأخذت تكتشف أشياء لم يسبق لها أن اخترقت عالمها إلا عبر قصص الخيال. بما أنها لن تراه ثانية، فقد تشجّعت وسألته (لم تعرف سبب هذه الجرأة ولا حتى لاحقاً) عن موضوعات تشغل بالها. قالت له إن زوجها يمر بمرحلة صعبة، وسوف يطلب إليها أن تظل إلى جانبه، وتودّ أن تعرف ماذا بإمكانها أن تفعل لإسعاده. قدّم لها الرجل بعض النصائح المفيدة. لكنه اعتبر أن ليس من الضروري التحدث عن زوجها. قال لها وهو يردّد عبارة لم تسمعها منذ سنوات:

ـ أنت امرأة مثيرة جداً للاهتمام.

لم تعرف كيف كان ينبغي لها أن تتصرف. لاحظ الرجل حرجها، فأخذ يحدّثها عن الصحارى والجبال والمدن الضائعة والنساء المحجّبات والنساء العاريات الخصور، وعن المحاربين والقراصنة والحكماء المسنّين.

وصل القطار إلى المحطة. جلسا على المقعد نفسه أحدهما بجوار الآخر. الآن، لم تعد المرأة المتزوّجة التي تقيم في شاليه قبالة البحيرة، والتي لديها ثلاثة أطفال يجب أن تربّيهم، بل امرأة مغامرة تسافر إلى جنيف للمرة الأولى. عندما نظرت إلى الجبال والنهر، أحسّت أنها سعيدة لوجودها بقرب رجل يحاول إغواءها مثلاً جسدياً (فالرجال لا يفكّرون إلا في هذا)، ويفعل كل ما في وسعه لاستمالتها. فكّرت في كل الرجال الآخرين الذين حاولوا إغواءها، والذين لم تدع لهم أي مجال للتقرّب منها. في ذاك الصباح، تغيّر العالم بالنسبة إليها. أحسّت أنها مراهقة في الثامنة والثلاثين، وأنها تتابع بشغف المحاولات التي يقوم بها الرجل لإغوائها. وفيما كانت تظن أنها في خريف عمرها (هذا الخريف الذي جاء قبل الأوان)، وأن

لديها كل ما تحلم به امرأة، ها قد ظهر هذا الرجل في المحطة فجأة، ودخل عالمها دون استئذان.

نزلا في جنيف. أرشدته إلى فندق (أصر على أن يكون متواضعاً لأنه لم يكن يتوقع أن يقضي نهاراً إضافياً في هذه البلاد حيث مستوى المعيشة مرتفع للغاية). ثم طلب إليها أن ترافقه حتى غرفته، لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام. تنبهت هايدي إلى المحاذير التي يمكن أن تنتظرها، ومع ذلك، وافقت. أغلقا الباب وتبادلا قبلاً محمومة. نزع عنها ثيابها ـ ويا إلهي ـ كم كان خبيراً بجسد المرأة وأسراره وما تعانيه من عذاب وحرمان.

مارس الحب طوال بعد الظهيرة، ولم يختفِ السحر إلا عند هبوط الليل. عندئذٍ تفوهت بالجملة التي لم يكن يجدر بواحدة مثلها أن تقولها أبداً:

«عليّ أن أعود، زوجي ينتظرني».

أشعل سيجارة. بقيا صامتين لبضع دقائق. لم يودّع أحدهما الآخر. نهضت هايدي وخرجت دون أن تلتفت وراءها، مدركة تماماً أن لا معنى لأي كلمة أو لأي جملة يمكن أن تُقال.

تعرف هايدي أنها يجب ألا تعود لرؤيته أبداً. ومع ذلك لم تعد الزوجة الوفية لبضع ساعات، ولا ربّة البيت، ولا الأم الحنون أو الموظفة المثالية الثابتة في صداقاتها. رجعت امرأةً لبضع ساعات.

لاحظ زوجها تغيّرها، وقال لها إن مزاجها غريب، فهي إما أكثر فرحاً من المعتاد وإما أكثر حزناً. كان يشق عليه أن يصف حالتها بدقة. لكن، بعد أسبوع، عادت الأمور إلى سابق عهدها.

فكرت هايدي: «ليتني أخبرت الصغيرة عن هذه المغامرة. في أي حال لن تفهم شيئاً، لأنها تعيش في عالم مختلف، حيث الناس أوفياء وعهود المحبّين أبدية».

ما دوّنته ماريا في يومياتها:

«لا أعرف ما الذي كان يفكر فيه عندما فتح الباب في ذلك المساء ورآني وأنا أحمل في يدي حقيبتين.

قلت له على الفور:

ـــ لا تشغل بالك كثيراً. لن أقيم في بيتك. تعال نذهب لتناول العشاء. ساعدني على إدخال حقيبتي دون أن ينبس بكلمة. لم يقل: «لمَ هذه الحقائب؟» أو «كم أنا سعيد برؤيتك». أمسك ذراعي ببساطة، جذبني إليه، وبدأ بتقبيلي وهو يمرّر يديه على جسدي ونهديّ وعضوي، وكأنه انتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، أو كأنه يحدس أن هذا اللقاء سيكون الأخير.

جرّدني من سترتي وثوبي وتركني عارية. وهناك في الردهة، ومن أي مقدمات، والهواء البارد ينساب من شقوق الباب، مارسنا الحب لأول مرة. رأيت أن من الأفضل أن نكفّ عن مواصلة عملنا، وأن نبحث عن مكان أكثر إراحة، لأثبت له أن لدينا متسعاً من الوقت لاكتشاف الأسرار التي أودعها القدر والكون في أجسادنا. لم أقل شيئاً. أريده فيّ، فهو الرجل الذي لم أمتلكه ولن أمتلكه أبداً. لذا أستطيع أن أحبه بكل كياني وأن أحصل منه ـ ولو لليلة واحدة ـ على سعادة لم أحلم بها في حياتي، ولن يتسنّى لي بلوغها مع رجل آخر.

مدّدني على الأرض وولجني، دون أن يكون عضوي رطباً، لكن

الألم الذي شعرت به لم يزعجني. على العكس، أحببت أن يكون ولوجه مؤلماً. جميل أن يدرك أنني ملكه وأنه لا يحتاج أن يطلب إذناً مني للدخول. لست هنا لأعلّمه شيئاً من خبرتي كعاهرة، ولا لأظهر أنني متفوّقة في إحساسي على النساء الأخريات. «أنا هنا فقط لأقول له «نعم»، وإنني أستقبله بكل كياني، وأنتظره مثلما ينتظرني، وإن تجاوز حدود البروتوكول بيننا يهيجني. لكن، فلنترك لغرائزنا أن تقودنا إلى حيث تشاء، أنا المرأة وهو الرجل. كنا في الوصف الأكثر تقليدية: أنا تحته وساقاي منفرجتان وهو فوقي يتمرّغ بي. نظرت إليه دون أي رغبة في التصنّع أو التأوه أو أي شيء. رغبت فقط أن أبقى مفتوحة العينين، لأتذكّر كل دقيقة وأراقب تقاسيم وجهه وحركات يديه اللتين تعبثان بشعري، وفمه ينهال عليّ عضاً وتقبيلاً دون أي لمسات تمهيدية أو غير مألوفة، فقط هو فيَّ وأنا في روحه.

كان يتمرّغ بي: يثور حيناً ثم يهدأ أحياناً، ثم ينظر إلى وجهي حيناً آخر. ولم يكن ليسألني هل أجد متعة في ما يفعله، لأنه يعرف أنها الطريقة الوحيدة لتتواصل روحانا في هذه اللحظة. زاد جموحه في داخلي، وعرفت أن الدقائق الإحدى عشرة شارفت على نهايتها. ليت تلك اللحظات تستمر إلى ما لا نهاية! ما أجمل أن يمتلكني رجل وألا أمتلكه! حصل كل هذا وعيناي مفتوحتان تراقبان ما يجري إلى أن أصبح إدراكنا بما حولنا مشوّشاً، وكأننا دخلنا في بعد آخر، حيث كنت الأم العظيمة والكون والمرأة المحبوبة والعاهرة المقدّسة في الطقوس القديمة، التي حدّثني عنها وأنا أحتسي كأس النبيذ وأتدفأ بنار المدفأة. شعرت بدنوّ نشوته قبل أن يبلغها: طوّقته بذراعي وشددته إلى صدري، وزاد ولوجه حمأة وسرعة. وعندئذ أطلق زعقة عالية. لم يتأوّه ولم يعضّ شفتيه بل زعق! وزأر مثل حيوان! خطرت لي فكرة أن الجيران سيستدعون الشرطة لتتعقب الصارخ، وتتبيّن سبب الصراخ. لكن الأمر لم يعد له أهمية. تضاعفت لذتي عند سماع صرخاته التي

ذكّرتني بغياهب الأزمنة، حين التقى أول رجل وأول امرأة ومارسا الحب.

وما لبثا أن أطلقا معاً زعقة واحدة!

ثم تداعى جسده فوقي. لا أعرف كم من الوقت بقينا متعانقين، هكذا داعبت شعره، كما فعلت في ذلك المساء، حين وضعنا المنديل الأسود، وكانت العتمة كاملة في غرفة الفندق. شعرت أن خفقات قلبه تهدأ، وأن يديه تمرّان برفق على ذراعي، فتقشعر لمرورهما كل شعيرات جسدي. ثم تنبه إلى ثقل جسده الذي يضغط عليّ، فمال ناحيتي وهو يمسك بيديّ، وبقينا معاً ننظر إلى السقف والثريا.

قلت له:

ـ ليلة سعيدة.

جذبني ناحيته مسنداً رأسه إلى صدري، وداعبني طويلاً، ثم قال لي بدوره:

ـ ليلة سعيدة.

قلت:

ـ لا بدّ أن الجيران سمعوا كل شي!

لم أشأ أن أقول له «أحبك» في هذه اللحظة، لأنه لم يكن لذلك معنى كبير. هو يعرف ذلك وأنا أيضاً.

أجابني:

ـ الهواء المنساب من شقوق الباب بارد جداً.

بدل أن يهتف قائلاً: «ما أروع تلك اللحظات».

ثم أضاف:

ـ لنذهب إلى المطبخ.

نهضنا. ولاحظت أنه لم يخلع سرواله كلياً. كان لا يزال

مرتدياً ثيابه، وعضوه ما زال ظاهراً. لبست سترتي، ولحقت به إلى المطبخ. أعدّ القهوة ودخّن سيجارتين، فيما دخّنت سيجارة واحدة. جلس أمام الطاولة وكان يقول لي «شكراً» بعينيه، وكنت أجيبه أنا أيضاً أريد أن أشكرك، لكن شفاهنا ظلّت مطبقة.

ثم تجاسر وسألني:

ـ ماذا تعني هاتان الحقيبتان؟

ـ أعود إلى البرازيل غداً صباحاً.

هل كان يجدر بي أن أقول: «أحبك»، أو «أود لو أبقى هنا معك»، أو «اطلب مني البقاء»!

ـ لا تفعلي.

ما أجمل أن يقول لي ذلك.

ـ لا أستطيع. هذا وعد. هذا قسم.

لو أني لم أقم بهذا الوعد لكنت اعتقدت أن هذا سيدوم إلى الأبد، وهو ليس كذلك. ليس إلا جزءاً من حلم فتاة جاءت من بلاد بعيدة جداً لتتعرف إلى مدينة كبيرة وتواجه ألف مشقة، لكنها التقت الرجل الذي تحبه. هذه أيضاً نهاية سعيدة لأنني بعد كلّ المشقات التي واجهتني ستراودني حكاية ذلك الرجل الذي أغرم بي، كلّما راجعت أيامي التي قضيتها في أوروبا. وسيكون معي دائماً لأن روحي ستظل تعانق روحه إلى الأبد.

آه! رالف، لا تعرف مقدار حبي لك. أعتقد أن النساء يقعن دائماً في الحب من أول نظرة، ولا يستمعن إلى نداء العقل، مهما قال لهن إنهن مخطئات ومهما دعاهن إلى محاربة مشاعرهن. ثم تأتي اللحظة، حين يجتاح الانفعال كياننا كله، كما في ذلك المساء عندما مشيت حافية القدمين في المنتزه متحمّلة الألم والبرد، لأنني أعرف جيداً أنك تحبني.

أجل، أحبك كما لم أحب رجلاً من قبل. ولهذا السبب بالضبط

أرحل. لو بقيت، لصار حلمي واقعاً بليداً، وتحوّل حبي إلى رغبة في امتلاك حياتك..أي إنني أتخلّى عن كل هذه الأشياء التي تحوّل الحب إلى عبودية. الإبقاء على الحلم هو أفضل أمنية لديّ. يجب أن نعتني بكل لحظة سعادة حصلنا عليها من بلد زرناه، أو هبة وهبتها الحياة لنا.

أراد رالف أن يغيّر موضوع السفر ويظهر اهتمامه بي. كان حريصاً على ألا يلزمني بشيء، خشية أن يفقدني إلى الأبد. كان يعتقد أن أمامه الليل كله ليحملني على تغيير رأيي فقال:

ـ لم تبلغي النشوة.

ـ لم أبلغ النشوة لكني شعرت بلذّة هائلة.

ـ كان من الأفضل لو أنك بلغتها.

ـ كان بإمكاني التظاهر بذلك، فقط لكي تكون مسروراً، لكنك تستحق أفضل من هذا. أنت رجل حقاً، يا رالف هارت، بكل ما في هذه الكلمة من جمال وقوة. عرفت كيف تدعمني وتساعدني، وقبلت أن أدعمك وأساعدك دون أن يحس أي منا بأي حرج. أجل، كان الأمر أجمل لو أنني بلغت النشوة لكني لم أبلغها. ومع ذلك، شعرت أنني أعبد الأرض الباردة وجسدك الحار والعنف الممتع الذي ولجتني به.

اليوم، ذهبت إلى المكتبة لأردّ الكتب التي كانت لا تزال في حوزتي. سألتني أمينة المكتبة عما إذا كنت أتحدث إلى شريكي عن علاقتي الجنسية بصراحة. وكنت أرغب في أن أجيبها: «عن أي شريك تتحدثين؟ عن أي علاقة جنسية؟» لكنها لا تستحق مثل هذا الجواب، لأنها كانت دائماً ملاكاً معي.

في الواقع، لم أعاشر إلّا شريكين منذ قدومي إلى جنيف: أحدهما أيقظ فيّ أسوأ ما في داخلي وقد سمحت له بذلك حتى إنني رجوته كي يفعل. والآخر أنت. بفضلك شعرت من جديد أنني أستعيد انتمائي إلى العالم. أود لو أستطيع أن أعلّمك أين تلمس جسدي، بأي درجة من الحدّة بأي درجة من الرفق ولكَم من

الوقت، أعرف أنك ستفهم كلامي على أنه اتّهام أو عتاب أو لوم. لكن كل ما أبتغيه من ذلك أن يكون إرشادك إلى هذا الأمر وسيلة تسمح لأرواحنا بأن تتواصل بشكل أفضل. فن الحب كالرسم: يتطلّب تقنية وصبراً وممارسة مشتركة، ويفترض جرأة لأنه يجب الذهاب إلى ما هو أبعد مما تعارفنا على تسميته «ممارسة الحب».

بدل أن يأخذ رالف كلامي على محمل الجد، أشعل سيجارة ثالثة في أقلّ من نصف ساعة، ثم قال:

ـ أولاً: سنقضي الليلة هنا (لم يكن قوله طلباً بل أمراً).

ـ ثانياً: سنمارس الحب من جديد لكن بتشنج أقلّ وبرغبة أكبر.

ـ ثالثاً: وأخيراً أود أن تكتشفي أنت أيضاً الرجال بشكل أفضل.

ماذا قال: أكتشف الرجال بشكل أفضل؟ لكني كنت أقضي معهم جميع ليالي، مع البيض والسود والآسيويين واليهود والمسلمين والبوذيين! ألا يعرف هذا!

أحسست أنني أكثر خفّة وطلاقة. كان جيداً أن يتّخذ الحوار شكل النقاش. لأنني، للحظة ما، أوشكت أن أطلب المغفرة من الله، لأنني مضطرة أن أنكث بوعدي له. كان الواقع حاضراً بقوة أمام عيني، يأمرني بأن أحتفظ بحلمي كاملاً، وألّا أقع في الأفخاخ التي ينصبها لي القدر.

لاحظ رالف السخرية التي علت وجهي، فقال:

ـ أجل، أطلب إليك أنت أيضاً أن تفهمي الرجال بشكل أفضل. تحدثينني عن ضرورة أن تعبّر المرأة عن أحاسيسها الجنسية، وأن تكتشف جسدها وتريدين مساعدتي في الإبحار على متن جسدك، وتطلبين إليّ أن يكون لديّ الصبر والوقت. أنا موافق. لكن، هل خطر ببالك أننا مختلفان على الأقل في ما يتعلق بالوقت؟ لماذا لم تشكي أمرك لله وتطلبي إليه المساعدة؟

حين التقينا، طلبت إليك أن تعلّميني الجنس، لأنني فقدت كل

رغبة فيه. هل تعرفين لماذا فقدتها؟ لأن كل علاقاتي الجنسية أفضت بي إلى الضجر والحرمان. أدركت أن من الصعب جداً أن أمنح النساء اللواتي أحببتهن اللذة نفسها التي كنّ يمنحنني إياها.

«النساء اللواتي أحببتهن». لم تعجبني العبارة، لكني تظاهرت باللامبالاة وأشعلت سيجارة.

ـ لم تكن لدي الشجاعة لأقول للمرأة: «علّميني أسرار جسدك». لكن، حين التقيتك ورأيت ضوءك، أحببتك على الفور. وفكرت أنني في هذه المرحلة من حياتي، لن أخسر شيئاً إذا كنت صادقاً مع نفسي، ومع المرأة التي أود أن تكون إلى جانبي.

كان طعم السيجارة لذيذاً، ورغبت في أن يقدّم لي قليلاً من الخمر، لكني لم أشأ تغيير الحديث.

ـ لماذا لا يفكر الرجال إلا بالجنس؟ لماذا لا يحاولون أن يفعلوا معي ما فعلته أنت، أي أن ترغب في معرفة أحاسيس جسدي وأحواله؟

ـ أيقال إننا لا نفكّر إلا بالجنس؟ العكس هو الصحيح. نقضي حياتنا، ونحن نقنع أنفسنا أن الجنس بالغ الأهمية. نتعلّم ممارسته مع العاهرات أو مع العذارى، ونخبر قصصنا لمن يودّ سماعها. وحين نتقدّم في السن، نخرج برفقة الصغيرات لكي نقنع الآخرين، أو نفرحهم بأننا لا نزال كما تتوقّع منا النساء أن نكون. لكن، لا شيء من هذا صحيح. نحن لا نفهم شيئاً. نعتقد أن الجنس والقذف أمر واحد، وليس الأمر كذلك. لا نتعلّم، لأننا لا نملك الجرأة لنقول لامرأة: «علميني أسرار جسدك». ولا نتعلّم، لأن المرأة أيضاً لا تملك الجرأة لتقول: «حاول أن تعرفني». وهكذا فإننا نبقى عند مستوى الغريزة البدائية للمحافظة على استمرار النوع، ونقطة على السطر. هل تعرفين بمَ يهتم الرجل أكثر من الجنس؟ احزري...

فكرت أن ما يهمه أكثر هو المال أو السلطة، ولكني لم أقل شيئاً.

ـ بالرياضة. لأن الرجل حينئذٍ يفهم جسد الرجل الآخر. في الرياضة نلاحظ حوار الأجساد التي تتفاهم.

ـ أنت مجنون.

ـ قد أكون مجنوناً. لكن هذا يتضمّن شيئاً من الحقيقة. هل سبق لك أن تساءلت عن شعور الرجال الذين تضاجعينهم؟

ـ نعم. تنقصهم الثقة بالنفس وأشعر أنهم خائفون دوماً.

ـ لا بل يعتريهم ما هو أكثر من الخوف، يشعرون بأنهم سريعو العطب. حتى لو لم يكونوا عارفين ماذا يفعلون. كل ما يفعلونه هو أن المجتمع والأصدقاء والنساء أنفسهن يدّعون أن الجنس مهم. «الجنس، الجنس، الجنس، إنه ملح الأرض». هكذا تدّعي أيضاً الإعلانات والأفلام والكتب، ولا أحد يعرف عمّا نتكلم. نعرف فقط أنه يجب القيام بذلك، لأن الغريزة أقوى منا جميعاً وهذا كل شيء.

هذا يكفي. حاولت أن أعطيه دروساً لكي يحميني، فبادر إلى التصرّف مثلي. لكن مهما اتّسمت كلماتنا بالحكمة ـ لأن واحدنا كان يحاول التأثير في الآخر ـ فإن كل ما نقوله كان سخيفاً وغير جدير بالتعبير عن حقيقة مشاعرنا! اجتنبته ناحيتي، لأن الحياة، بغضّ النظر عما كان سيقوله أو عمّا فكرت فيه، قد علّمتني كثيراً. في بداية الأزمنة، كان كل شيء حباً خالصاً وتضحية بالذات. لكن ما لبثت الأفعى أن ظهرت لحوّاء، وقالت لها: «ما أعطيته سوف تخسرينه». وهذا ما حصل لي. طُردت من الجنة في المدرسة. ومنذ ذلك الوقت، أحاول أن أقول للأفعى إنها مخطئة، وإن التضحية بالثمين الغالي أهم من محاولة الاستئثار به. لكن الأفعى هي التي كانت على حق، وأنا المخطئة. جثوت على ركبتيّ وجرّدته من ثيابه على مهل. رأيت أن عضوه قد استرخى. قبّلت باطن ساقيه بدءاً من القدمين. تأثّر عضوه بقبلاتي، فلامسته وأخذته في فمي من دون تسرّع، ومن دون تلميح، وكأنني أستنهضه للقيام بمهمة عاجلة: «هيا، حضّر نفسك للتحرك». قبّلته

بحنان من لا ينتظر شيئاً. ولهذا نلت كل شيء. اهتاج وبدأ يداعب نهديّ راسماً حول حلمتيّ دوائر كتلك التي رسمها في تلك الليلة، حيث كانت العتمة شاملة. اشتعلت في أحشائي الرغبة ليلجني من جديد، أينما يشاء وبالطريقة التي يجب أن يمتلكني بها، سواء في فمي أم في عضوي. لم يجردني من سترتي. مدّدني على الطاولة على بطني، وساقاي مسندتان إلى الأرض، وولجني على مهل، هذه المرة دون قلق، دون تشنج ولا خوف من أن يفقدني، لأنه هو أيضاً كان يعرف أن ذلك ليس إلا حلماً، وسيبقى حلماً على الدوام.

عضوه فيّ، ويده تتلمس صدري وردفيّ، تتلمّسني، كما امرأة وحدها قادرة على ذلك. عندئذ فهمت أننا مخلوقان أحدنا للآخر لأنه يستطيع أن يكون امرأة مثلي وأستطيع أن أكون رجلاً مثله. وها إن نصفينا المفقودين يلتقيان لكي يكتمل الكون.

كلّما ولجني وداعبني بلمساته، أحسست أنه لا يلجني أنا فقط بل يلج الكون كله. لدينا الوقت كله والحنان كله لتتسع معرفة أحدنا للآخر. أجل، كان رائعاً أن أصل بحقيبتين، وبي رغبة لا تقهر في الرحيل، وأن يرميني حالاً على الأرض ويلجني في العنف والرهبة. كان جميلاً أيضاً أن أعرف أن الليل لن ينتهي أبداً وأن النشوة التي بلغتها على طاولة المطبخ لم تكن غاية بحد ذاتها، ولكن بداية لقاء.

جمد عضوه فيّ، فيما كانت أصابعه تنتقل بسرعة. ومن نقطة حساسة إلى أخرى بلغت نشوتي الأولى والثانية والثالثة. كانت لدي رغبة في إبعاده، لأن ألم اللذة كان قوياً جداً، كانت اللذة حين تعذّب، اللذة المزوجة بالألم، لكني تحملت بعزم، وتقبلت برضى أن يكون الأمر كذلك. أستطيع أن أتحمل نشوة أخرى بعد أو نشوتين أو أكثر...

وفجأة تفجّر ضوء في داخلي. لم أعد أنا نفسي، بل صرت كائناً متفوقاً على كل ما عداي. عندما أوصلتني يده إلى النشوة الرابعة

رأيتني أدخل مكاناً حيث السلام الكامل. وفي النشوة الخامسة بلغت آفاقاً بعيدة. عندئذٍ أحسست أن عضوه يعيد التوغل فيّ من جديد، ويترافق جموحه مع حركه يده. قلت: يا إلهي، أنا متروكة ولا أعرف إن كانت هذه سماءً أم جحيماً.

لكنها كانت الجنة. كنت الأرض والجبال والنمور والأنهار الجارية حتى البحيرات والبحيرات الجارية حتى البحر. كان يذهب فيّ بسرعة متزايدة والألم يمتزج باللذة. أردت أن أقول: «لم أعد أحتمل، لكن هذا ظلم، لأننا في هذه المرحلة من تداخلنا كنا أنا وهو واحداً».

تركته يلجني طوال الوقت اللازم. كانت أظافره مغروزة في ردفي، وأنا ممدّدة على بطني فوق طاولة المطبخ. فكرت أنه ما من مكان في العالم أروع من ذلك المكان لممارسة الحب. من جديد سارع إلى غرز أظافره فيّ بشكل مؤلم، وعضوه يجلد بقوة بين ردفيّ، كان جسده ملاصقاً لجسدي، وأوشكت أن أبلغ النشوة وهو أيضاً، لكن لا شيء من هذا ـــ لا شيء من هذا كذب!

ـــ تعالي.

كان يعرف عمّا يتكلم، وكنت أعرف أنه آن الأوان. استرخى كل جسدي، لم أعد نفسي. لم أعد أسمع ولا أرى ولا أشعر بطعم شيء. تحوّلت إلى مجرد جسد يحسّ.

ـــ تعالي!

وأمنيته، لم تكن إحدى عشرة دقيقة بل أبدية. كنا وكأننا خرجنا كلينا من جسدينا، ودخلنا جنّة الخلد، حيث الحب الحقيقي والتفاهم التام والسعادة المطلقة. كنا امرأة ورجلاً، رجلاً وامرأة. ولم أعرف كم من الوقت دام هذا، لكن كل شيء بدا صامتاً يصلّي، وكأن الكون والحياة صارا في حال من الخشوع لا أدري ماذا أسميها خارجة على المكان والزمان.

ثم ما لبث أن رجع الكون إلى مستقره والزمن إلى دورانه.

سمعت صرخاته وصرخت معه. كانت قوائم الطاولة تضرب الأرض بعنف، ولم يزعجنا الضجيج، ولم نسأل ماذا ستكون ردة فعل سائر الناس.

أخرج عضوه مني دون أن يعلمني. أخذت أضحك. التفتُّ نحوه وضحك هو أيضاً. تعانقنا ملتصقين أحدنا بالآخر، وكأننا نمارس الحب لأول مرة في حياتنا.

قال لي:

- باركيني.

باركته دون أن أعرف ماذا أفعل. وتوسلت إليه أن يفعل الشيء نفسه. قال «مباركة هذه المرأة التي أحببتها كثيراً». كانت كلماته جميلة فتعانقنا من جديد وبقينا على هذه الحال دون أن نعرف كيف أن إحدى عشرة دقيقة يمكنها أن تقود رجلاً وامرأة إلى الجنة.

لم تظهر على أي منّا علامات الإرهاق. توجّهنا إلى الصالون. وضع اسطوانة، ثم فعل بالضبط ما كنت أتوقّع منه أن يفعل: أشعل النار في المدفأة، وقدم لي خمراً، ثم فتح كتاباً وقرأ ما يلي:

زمن الولادة وزمن الموت

زمن الزرع وزمن الحصاد

زمن القتل وزمن الشفاء

زمن الهدم وزمن البناء

زمن البكاء وزمن الضحك

زمن النحيب وزمن الرقص

زمن رمي الحجارة وزمن جمعها

زمن المعانقة وزمن الفراق

زمن الاحتفاظ وزمن التخلّي

زمن التمزيق وزمن الرتق

زمن الصمت وزمن الكلام

زمن الحب وزمن الكراهية

زمن الحرب وزمن السلم

كان هذا النص يتلاءم مع اللحظة التي أعيشها، ويبدو وكأنه قصيدة وداع. إلا أنه كان من أجمل النصوص التي قرأتها في حياتي.

ضممته إلى ذراعي وضمني إلى ذراعيه. تمددنا على السجادة أمام المدفأة. كان لا يزال الشعور بالاكتمال حاضراً فيّ، وكأنني كنت على الدوام امرأة حكيمة، سعيدة، متفتّحة.

ـ كيف أمكن لك أن تقع في غرام عاهرة؟

ـ لم أفهم السبب حينذاك. لكنني، الآن، أعتقد، بعدما أمعنت في التفكير، أن السبب هو أنني أعرف أن جسدك ليس ملكي لي وحدي. لذا أستطيع أن أحصر اهتمامي كله بامتلاك روحك.

ـ والغيرة؟ ماذا تفعل بالغيرة؟

ـ لا نستطيع أن نقول للربيع: «تعال شرط ألا تتأخر وتدوم أطول وقت ممكن»، ولكن فقط: «تعال وباركنا بالأمل الذي تشيعه بيننا، وابق قدر ما يحلو لك».

كلمات في الهواء. لكني كنت بحاجة إلى سماعها وكان هو أيضاً محتاجاً إلى قولها. نمت وحلمت بعطر يغمر كل شيء».

فتحت ماريا عينيها، فتسرّبت خيوط الشمس عبر الستائر المعدنية المفتوحة.

فكّرت وهي تنظر إلى الرجل النائم قربها: «مارست الحب معه مرتين ومع ذلك أشعر وكأننا كنا معاً منذ الأزل، أو كأنه يألف منذ الأزل حياتي وروحي وجسدي وضوئي وألمي».

نهضت لتعدّ القهوة. عندئذٍ رأت الحقيبتين في الرواق وتذكّرت كل شيء: القَسَم، الصلاة في الكنيسة، حياتها، الحلم الذي أوشك أن يصير حقيقة، ويفقد سحره«الرجل الكامل، الحب الذي يتّحد فيه الجسد والروح واللذة والنشوة.

بإمكانها البقاء. ليس لديها ما تخسره سوى قليل من الوهم الإضافي. فكّرت في القصيدة التي قرأها لها: «زمن البكاء وزمن الضحك». لكن هناك جملة أخرى تقول: «زمن للعناق وزمن للفراق». أعدّت القهوة، أغلقت باب المطبخ أخذت الهاتف واتّصلت بسائق تاكسي. استجمعت ما لديها من قوة وإرادة وأطبقت جفنيها على ذكرى تلك الليلة الساحرة، وعزمت على الرحيل.

ارتدت ملابسها، أخذت الحقائب، ورحلت آملة من كلّ قلبها أن يستيقظ الرجل ويطلب منها البقاء.

لكنه لم يستيقظ. وفيما كانت تنتظر وصول سيارة التاكسي في الخارج مرّت غجرية قربها وهي تحمل مجموعة من باقات الزهور.

ـ هل تريدين باقة؟

اشترت ماريا باقة. كانت هذه الزهور إيذاناً بقدوم الخريف ورحيل الصيف. من الآن فصاعداً لن تُشاهد في جنيف الطاولات المنتشرة على أرصفة المقاهي، ولا المتنزهات مغمورة بضوء الشمس ومزدحمة بالمتنزّهين. لا يُفترض أن تشعر بالأسى لرحيلها، فهذا كان خيارها، وليس هناك ما يدعو للتحسّر والنحيب.

وصلت إلى المطار وطلبت فنجان قهوة. انتظرت، لأربع ساعات، وصول الطائرة المتّجهة إلى باريس، وهي تتوقع أن يظهر رالف بين اللحظة والأخرى لاسيما وأنها أبلغته بساعة الرحيل قُبَيل أن ينام. فكرت أن هذا يحصل فقط في الأفلام. في المشهد الأخير وفيما المرأة على وشك الصعود إلى الطائرة، يصل الرجل يائساً فيشدها إليه ويقبّلها ويعيدها إلى عالمه في كنف النظرات المستمتعة والمجاملة لموظّفي الطائرة. ثم تظهر كلمة «النهاية» على الشاشة، ويتأكد المشاهدون أن البطلين سيعيشان في سعادة إلى الأبد.

لكن الأفلام لا تروي أبداً ما يحصل بعد ذلك! هذا ما خطر على بال ماريا لكنها استرسلت في الخيال لتعزّي نفسها، وتذكّرت أن الأفلام لا تروي شيئاً عن الزواج والطبخ والأولاد والعلاقات الجنسية التي تخف وتيرتها باطراد، والعثور على أول رسالة غرام من العشيقة (فتتّخذ الزوجة القرار بإثارة فضيحة ثم يعد الزوج بأن هذا لن يتكرر)، ثم رسالة ثانية من عشيقة أخرى (فتثير الزوجة فضيحة أخرى وتهدّد بالطلاق ويكتفي الزوج بأن يقول لها إنه يحبها). ولدى العثور على الرسالة الثالثة من العشيقة الثالثة تقرّر الزوجة أن تصمت وتتظاهر بأنها لا تعرف، خشية أن يقول لها الزوج إنه لم يعد يحبّها، وإنها تستطيع الرحيل متى تشاء.

لا، فالستار يُسدل قبل أن تبدأ مسرحية الحياة الواقعية. قرأت ماريا مجلة واثنتين وثلاثاً. وأخيراً أُعلن على الميكروفون عن وصول الطائرة، بعدما أحسّت ماريا أنها قضت سنوات في قاعة الانتظار في

المطار. صعدت إلى الطائرة متخيّلة أيضاً المشهد الشهير الذي ما إن تضع فيه البطلة حزام الأمان، حتى تشعر بيد تلمس كتفها، فتلتفت وتجد حبيبها مبتسماً لها.

لم يحصل شيء من هذا.

نامت خلال الرحلة القصيرة من جنيف إلى باريس. لم يتسنّ لها الوقت لتفكّر في القصة التي سترويها لأهلها وأصدقائها. لكن أهلها سعداء ولا شك برجوع ابنتهم، وبالمزرعة التي تضمن لهم شيخوختهم.

أيقظها صوت عجلات الطائرة، وهي تلامس أرض المطار. جاءت المضيفة وقالت لها إن عليها أن تغيّر منصة الانطلاق، لأن الطائرة المتجهة إلى البرازيل تنطلق من المنصة F فيما هي موجودة في المنصّة C، وإن عليها ألا تقلق لأنه ليس هناك تأخّر، وأن لديها متسعاً من الوقت، وإن الموظفين على الأرض يستطيعون مساعدتها لتهتدي إلى وجهتها الصحيحة. فيما كانت الطائرة تقترب من سلّم النزول، تساءلت هل يستحق الأمر عناء أن تقضي يوماً في باريس، لا لشيء إلا لتلتقط بعض الصور، وتتباهى لدى وصولها إلى البرازيل بأنها زارت المدينة. كانت تشعر أنها بحاجة أيضاً إلى الوقت لكي تفكّر وتكون وحيدة مع نفسها، وتستعيد مجريات الليلة الفائتة لكي ترسّخها جيداً في ذاكرتها، وتستنير بضوئها، مسترجعة سحرها ساعة تشاء، لتشعر أنها لا تزال حية. أجل، باريس فكرة رائعة. استعلمت من مضيفة الطيران عن موعد الطائرة المقبلة المتوجّهة إلى البرازيل، وهذا يفيدها في حال قرارها بألا تسافر اليوم.

أخذت المضيفة تذكرتها، وأسفت لأن تسعيرة التذكرة لا تسمح لها بإرجاء موعد الرحلة، فعزّت نفسها بالقول إن اكتشاف مدينة بهذا الجمال بمفردها سيشعرها بالإحباط. وسرعان ما توصّلت إلى الاحتفاظ بهدوء أعصابها وقوة إرادتها، لأنها لن تفسد كل شيء بسبب اشتياقها إلى رجل.

نزلت من الطائرة وخضعت لتفتيش الشرطة، ستنقل أمتعتها مباشرة إلى الطائرة الأخرى. فتحت الأبواب وأخذ المسافرون يقبّلون من جاؤوا لتوديعهم: زوجاتهم أو أمهاتهم أو أولادهم. تظاهرت ماريا وكأن كل ذلك لا يعنيها فيما كانت تفكّر من جديد بوحدتها. لكن هذه الوحدة كانت أقل مرارة لأن لديها سرّاً / حلماً، ولأن الحياة ستكون أسهل.

«ستكون باريس دائماً هنا».

لم يكن الدليل السياحي الذي تفوّه بهذه العبارة، ولا سائق التاكسي. أخذت ساقاها ترتجفان عندما سمعت صوته.

«ستكون باريس دائماً هنا»؟

ـ هذه الجملة تذكّرني بفيلم أعبده. هل تودّين أن تري برج إيفل؟

أجل، تودّ كثيراً. كان رالف يحمل باقة ورود في يده، وعيناه مفعمتان بالضوء، الضوء الذي رأته فيهما، في اليوم الأول للقائهما، عندما كان يرسم صورتها، فيما الهواء البارد يشعرها بالانزعاج.

قالت لكي تخفي دهشتها:

ـ كيف وصلت إلى هنا قبلي؟

لم يكن للجواب أي أهمية. احتاجت إلى قليل من الوقت لتتماسك.

ـ رأيتك تقرأين مجلة. كان بإمكاني الاقتراب منك، لكني رومنطيقي، رومنطيقي حتى العظم. فكرت أن من الأفضل أن أستقلّ أول طائرة متجهة إلى باريس. تنزّهت في المطار وانتظرت ثلاث ساعات وأنا أستعلم في كل لحظة عن مواعيد الطائرات. اشتريت لك زهوراً وأردت أن أقول لك الجملة التي تفوّه بها ريكي لحبيبته في فيلم «كازابلانكا»، وأنا أتخيل الدهشة على وجهك. كنت أكيداً من أن هذا ما تريدينه وما تتوقّعينه، وأن كل قوة

العالم لا تكفي لتقف في وجه الحب وقوة الحب القادرة على قلب كل المعادلات بلمحة بصر. لا يكلّفنا شيء أن نكون رومنطيقيين كما في السينما. ألا توافقينني الرأي.

لا تعرف إن كان ذلك يكلّفنا أم لا، ولا تريد أن تفكر في أي «سعر»، لأن هذا آخر هم لديها. تعرف فقط أنها التقت هذا الرجل، وأنهما مارسا الحب للمرة الأولى منذ ساعات، وأنه قدّمها لأصدقائه الليلة الفائتة. وتعرف أيضاً أنه تردّد إلى الحانة الليلية حيث كانت تعمل، وأنه تزوّج مرتين، وأنه ليس منزّهاً عن كل عيب. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، صار لديها المال لتشتري مزرعة، وهي لا تزال في مقتبل العمر. أمامها المستقبل، وخلفها تجربة كبيرة في الحياة وإحساس قوي بالاستقلالية. رغم كل ذلك، فإن القدر يختار عنها وبإمكانها المجازفة من جديد.

بما أنها لم تعد متشوّقة لتعرف ماذا سيحصل بعد كلمة «النهاية» على الشاشة، عانقت رالف وقبّلته. لكن، لو عرفت يوماً أن أحدهم يريد أن يروي قصتها، فستطلب منه أن يبدأها، كما تبدأ قصص الجنيات: كان ما كان ...



ملاحظات الكاتب

استغرقت وقتاً طويلاً لأكتشف المعنى المقدّس للجنس، على غرار الجميع، وأعمّم دون تردّد. كانت الفترة التي عشت فيها شبابي تتّسم بالحرية المتطرفة والاكتشافات المتنوّعة والشطط. تبعتها فترة اتسمت بالجو المحافظ والقمعي. وهذا الثمن ندفعه دائماً بعد فترات المجون التي تمر بها المجتمعات، والتي لا تختفي دون عواقب وخيمة.

خلال هذا العقد من الفجور والتفلّت الجنسي (فترة السبعينيات)، نشر الكاتب إيرفينغ والاس كتاباً يتطرق فيه إلى موضوع الرقابة في الولايات المتحدة، ويشير إلى الدسائس القضائية التي عملت على تحظير نشر أحد النصوص التي تتحدث عن الجنس، وكان بعنوان: «سبع دقائق».

في رواية والاس، ليس الكتاب، هدف الرقابة، إلا ذريعة روائية؛ ونادراً ما يظهر موضوع الجنس بحد ذاته. تساءلت حينئذٍ ماذا بإمكانه أن يكون هذا الكتاب وما المادة الروائية التي يمكن أن يتضمّنها. ثمّ دفعني هذا التساؤل إلى آخر: ماذا لو حاولت بنفسي كتابة رواية عن الجنس.

خلال سياق الرواية، يشير والاس عدة مرات إلى الكتاب الوهمي، دون أن يحدّد ما فيه؛ ممّا جعل مهمة التخيّل لدي مستحيلة. لم يتبقّ في ذاكرتي من ذاك الكتاب إلا العنوان «سبع دقائق» (لكني أجد والاس يبالغ كثيراً في اختزاله مدة الفعل الجنسي. قررت أن

أطيلها). وفكّرت أنه لأمر هام أن نقارب الجنس بطريقة جادّة. وهذا ما قام به على أية حال عدد لا يستهان به من الأدباء.

عام ١٩٩٧، وبعد أن انتهيت من إلقاء محاضرة في مانتو بإيطاليا، وجدت في الفندق، حيث نزلت، مخطوطة تركت لي عند الاستعلامات لا أقرأ المخطوطات في العادة؛ لكنني قرأت تلك المخطوطة، وهي تروي القصة الحقيقية لعاهرة برازيلية وزيجاتها والصعوبات التي واجهتها مع القانون، ومختلف الأحداث التي عاشتها. عام ٢٠٠٠، كنت ماراً بمدينة زوريخ، فتحدّثت عبر الهاتف مع هذه العاهرة التي تدعى سونيا (وهو اسم مستعار). قلت لها إنني أحببت النص الذي كتبته ونصحتها بأن ترسله إلى ناشري البرازيلي الذي لم يوافق على نشره. استقلت سونيا القطار المتّجه إلى زوريخ ودعتنا للذهاب، أنا وصديق وصحافية من جريدة «Blick» التي كانت قد أجرت مقابلة معي للتو، إلى لانفستراس، حي الدعارة الشهير. كنت أجهل أن سونيا أعلمت مسبقاً زميلاتها بزيارتنا، ودُهشت حين رأتني أوقّع للعاهرات كتبي المنشورة في لغات عدة.

عندئذٍ، اتّخذت قراري بأن أتحدّث عن الجنس، لكن لم يكن لدي بعد لا السيناريو ولا الشخصية الرئيسية. كنت قد فكّرت بقصة تذهب باتجاه البحث عن الجنس المقدّس. لكن هذه الزيارة إلى لانفستراس أنارت لي طريقي؛ ذلك أننا لكي نتمكّن من الكلام عن البعد المقدس للجنس، من الضروري أن نفهم لماذا تمّ تدنيس الجنس، أو امتهانه إلى هذا الحد.

عندما أجرت المجلة السويسرية «L'illustrée» مقابلة معي، تحدثت عمّا حصل لي في لانفستراس، وعن حفل التوقيع المرتجل الذي نظّمته العاهرات! الشيء الذي دفع المجلة إلى القيام بتحقيق واسع عن هذا الموضوع. وكانت نتيجة هذا التحقيق أن جاءت عدّة عاهرات إلى حفل توقيع أقيم لي في جنيف وهن يحملن في أيديهن الكتب ليحصلن على توقيعي. لفتت إحداهن انتباهي

بشكل خاص. ذهبت معها بصحبة وكيلتي وصديقتي مونيكا أنتونيس، لتناول فنجان قهوة؛ فتحوّل اللقاء إلى عشاء، ثم تبعته عدة لقاءات في الأيام اللاحقة. وعندئذٍ ولدت حبكة هذه الرواية: «إحدى عشرة دقيقة».

أوجّه شكراً خاصاً إلى آنا فون بلانتا، وهي ناشرتي السويسرية التي زوّدتني بمعطيات أساسية عن الوضع القانوني للعاهرات في بلادها. وشكراً أيضاً إلى النساء التالية أسماؤهن في زوريخ (وهي أسماء مستعارة): سونيا التي التقيتها للمرة الأولى في مانتو (لعلّ أحداً يهتم يوماً بنشر كتابها!)، ومارتا وأنتينورا وإيزابيلا. وفي جنيف، أشكر آيمي ولوتشيا وأندري وفانيسا وباتريك وتيريز وآنا كريستينا (وأسماؤهن ايضاً مستعارة).

كما أوجّه شكري إلى انتونيللا زارا التي سمحت لي باستخدام بعض المقاطع من كتابها «علم الشغف»، لأستعين بها في يوميات ماريا.

وأخيراً، أوجّه شكري إلى ماريا (اسم مستعار) التي لا تزال مقيمة في لوزان، وهي متزوّجة ولديها ابنتان. وقد أخبرتنا، أنا ومونيكا، القصة التي على أساسها بُنيت هذه الرواية، قصتها.

باولو كويليو

سلسلة الأدب واللغة

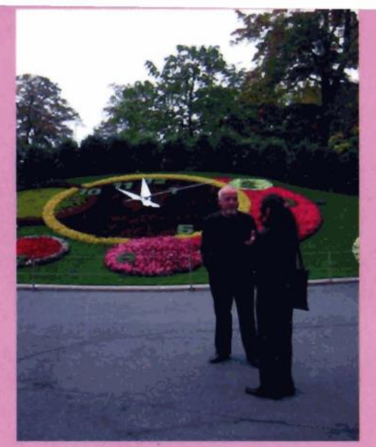
صدر منها:

- **الاستراحة** - ليلى عسيران
- **الحوار الأخرس** - ليلى عسيران
- **المدينة الفارغة** - ليلى عسيران
- **جسر الحجر** - ليلى عسيران
- **خط الأفعى** - ليلى عسيران
- **عصافير الفجر** - ليلى عسيران
- **قلعة الأسطة** - ليلى عسيران
- **لن نموت غداً** - ليلى عسيران
- **فروخ ناز (ألف يوم ويوم)** - نعمة الله ابراهيم
- **السير الشعبية العربية** - نعمة الله ابراهيم
- **الأيام والناس** - برهان الدجاني
- **علم الإبداع** - د. مروان فارس
- **آن الأوان** - طلال حيدر
- **انظر إليك** - مرام المصري
- **بائع الفستق** / رواية - سمير عطا الله
- **اللباس والزينة** - أ. بينول
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية** - د. محمد أبو علي
- **المساجلات** - أحمد حاطوم
- **في مدار اللغة واللسان** - أحمد حاطوم
- **كتاب الإعراب** - أحمد حاطوم
- **إميل بجاني، كاتب في الغربال** - بقلم شخصيات عدة
- **طه حسين، من الشاطئ الآخر** - عبد الرشيد محمودي
- **الله بالخير** - ابراهيم سلامة
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** - منير عبود
- **عشرون روائياً عالمياً يتحدثون** - عصام محفوظ
- **مختارات من الشعراء الرواد في لبنان** - عصام محفوظ
- **قصة يوطوبيا - قصة مشربية** - حسن فتحي
- **جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران** - د. بطرس حبيب
- **ألف ليلة وليلة - الجزء الأول** - قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة - الجزء الثاني** - قدري قلعجي
- **ألف ليلة وليلة - الجزء الثالث** - قدري قلعجي

- □ **ألف ليلة وليلة - الجزء الرابع** - قدري قلعجي
- □ **ألف ليلة وليلة - الجزء الخامس** - قدري قلعجي
- □ **الناس والآخرون** - قدري قلعجي
- □ **سلسلة «شهرزاد تروي»** ٣٠ جزءاً
- □ **سلسلة «شهرزاد تقدم»** ١٨ جزءاً
- □ **الحب والتصوف عند العرب** - د. عادل كامل الآلوسي
- □ **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** - هادي محيي الخفاجي
- □ **الطربوش** - روبير سوليه
- □ **مهما قلت لا تقل** - د. نبيل سليمان
- □ **امرأة تبحث عن وطن** - ماريا المعلوف
- □ **كنوز العرب** - شكري نصرالله
- □ **قالوا وفعلوا : وقائع من تاريخ العرب وتراثهم** - شكري نصرالله
- □ **الثالث** - شكري نصرالله
- □ **دريد لحام / مشوار العمر** - د. فاروق الجمال
- □ **خطوات أنثى** - رُدينة الفيلالي
- □ **بساط من الزهر الأحمر** - نيولوفر بازيرا
- □ **امرأة... وظلّان** - خلود عبد الله الخميس
- □ **اعترافات غايشا** - آرثر غولدن

مؤلفات پاولو كويليو

- □ **إحدى عشرة دقيقة**
- □ **الشيطان والآنسة پريم**
- □ **الخيميائي**
- □ **على نهر پييدرا هُناك جلست فبكيت**
- □ **حاجّ كومپوستيلا**
- □ **الجبل الخامس**
- □ **ڤيرونيكا تقرر أن تموت**
- □ **الزهير**
- □ **ساحرة بورتوبيللو**



ماريا وپاولو كويليو، جنيڤ، أوكتوبر ٢٠٠٢

پاولو كويليو

قبل أن يصبح پاولو كويليو، المولود سنة ١٩٤٧ في ريّو دي جانيرو، كاتباً شعبيّاً معروفاً، كان كاتباً مسرحياً، ومدير مسرح، وإنساناً هيپيّاً، ومؤلّف أغانٍ شعبية لأشهر نجوم البرازيل.

سنة ١٩٨٦، سلك طريق مار يعقوب، المزار الإسباني القديم؛ ثم وصف تجربته في كتاب أسماه «حاجّ كومپوستيلا»، ونشره سنة ١٩٨٧ وفي السنة التالية، صدر كتابه الثاني «الخيميائي»؛ فغدا واحداً من أكثر الكتّاب المعاصرين قرّاءً، وظاهرة حقيقية في عالم النشر. وحاز المرتبة الأولى بين تسع وعشرين دولة. وتوالت، من ثمَّ، سلسلة مؤلّفاته تحصد المزيد من الشهرة والانتشار؛ منها:

الڤالكيريز، على نهر پييدرا هناك جلست فبكيت، الجبل الخامس، محارب الضوء، ڤيرونيكا تقرر أن تموت، الشيطان والآنسة پريم، وآخر كتبه هو «إحدى عشرة دقيقة» الذي صدر في العام ٢٠٠٣ .

نشرت مؤلفاته في أكثر من ١٥٠ دولة، وترجمت إلى ٥١ لغة، وبيع منها أكثر من ٣١ مليون نسخة. ونال العديد من الأوسمة والتقديرات.

«تركت كتبه في نفوس الملايين من الناس، أثراً يزيد الحياة جمالاً»

صحيفة«التايمز» اللندنية،
آذار/ مارس١٩٩٨



«كان پاولو كويليو منذ سنين طويلة، أكثر من روائي عادي لمؤلفات تُعتبر من الكتب الأكثر رواجاً. إنه ظاهرة عالمية لا يستطيع المنطق وحده، أن يفسر التأثير الذي يتركه في النفس. إن الحدود الفاصلة بين الواقع والسحر تتلاشى عند پاولو كويليو- وهذه العلامة الفارقة تضعه في مصاف نخبة من أغنوا التراث الأدبي في أميركا الجنوبية»

«بروفيل»، النمساوية،
شباط/فبراير، ٢٠٠٠

❖❖❖

«الساحر البرازيلي يجعل الكتب تختفي من المكتبات»

صحيفة «نيويورك تايمز» الأميركية،
كانون الأول/ديسمبر١٩٩٩

❖❖❖

«إنه من القلائل الذين يستحقون صفة الظاهرة النشرية»

صحيفة «اندبندنت اون صاندي» اللندنية،
آذار/مارس١٩٩٨

❖❖❖

«تكمن قوة التأثير عند پاولو كويليو في بساطة وشفافية وصفاء اللغة. لا تسيئوا الفهم: ليس هناك ما هو أكثر صعوبة من العمل البسيط والشفاف والصافي»

مجلة«نوڤيل اوبزرڤاتور الفرنسية،
آذار/مارس١٩٩٨

"حتى أكتب عن الجنس كان علي أن أفهم لماذا دُنّس إلى هذا الحدّ".

البطلة ماريّا جاءت من شمال. شرقي البرازيل، تحمل معها من سن المراهقة حزناً عارماً.

إنها شابة جميلة كان باستطاعتها أن تتزوج بسهولة، لكنها لم تكن ترغب في ذلك قبل أن تحقق حلمها برؤية ريو دي جانيرو. ثابرت على ادّخار المال طوال سنتين، لترحل من ثم، متوجهّة إلى تلك المدينة الشهيرة. وعلى شاطئ كوباكابانا، تجتذب ماريّا انتباه رجل أعمال سويسري، دعاها فيما بعد، لمرافقته إلى أوروبا، ووعدها بأن يجعل منها نجمة. ولأن ماريّا كانت دائماً على استعداد للمجازفة، انتقلت معه إلى جنيف وفي يدها عقدٌ موقّع، لو قرأته بعناية، لكانت لاحظت العقدة المخفية فيه: لقد ألزمت نفسها بالعمل مقابل أجر بخس، كراقصة في نادٍ ليلي. ولم يطل بها الأمر حتى أصبحت عاهرة.

. يقول كويليو: "لا أدّعي كتابي دراسة للدعارة. حاولت أن أتجنب تماماً الحكم على الشخصية الرئيسية بسبب اختيارها. إن ما يثير اهتمامي حقاً هو الطرق المختلفة التي يقارب بها الناس موضوع الجنس."

. بعض الكتب تدفعنا إلى الحلم، وبعضها الآخر يعيدنا إلى الواقع، ولكن لا مجال للتهرب مما هو الأهم بالنسبة للكاتب: "الأمانة في ما يكتبه".